
كتابي
ترويض النمرة!
لشكسبير
حلمي مراد
وكتب أخرى
١٠ قروش



السيدة ايزابيللا — للرسام الاسبانى الخالد «جويا»



الجمال النائم

قطاع من لوحة فوتوغرافية للدكتور «عمر خيرت» فازت بجائزة عالمية

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السابع والعشرون (السنة الثالثة) : مايو ١٩٥٤
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

عزيزى القارىء ..

فى مكان آخر من هذا العدد ترى نتيجة استفتاء «كتابى» الخاص بالتعرف على رأيك فيه وفى ابوابه وموضوعاته ، وما قد يعن لك من اقتراحات ترغب فى ان يحققها لك على صفحاته ..

وقد كانت أول رغبة لك اسفر عنها الاستفتاء ، هى اصدار جميع اعداد كتابى ممتازة ، على نسق الاعداد الثلاثة الممتازة التى قدمها لك فى عامه الثانى .. وها انت ترى كتابى قد بادر الى الاستجابة لهذه الرغبة الكريمة التى تظهر مدى تعلقك به واستزادتك من مواده ولوحاته .. فصدرت اعداده ممتازة على التوالى ابتداء من بداية عامه الثالث فى أول مارس الماضى ..

اما بصدد استفتائى اياك فى أمر ابواب كتابى المختلفة وما قد يعن لك بشأنها من رأى ، **فقد جاءت النتيجة عجيبة حقا ، تزيدنى شعورا بالمسؤولية التى ألقيتها على عاتقى بهذا الاختيار ، اذ اجمع نحو تسعين فى المائة من القراء على انه «ليس بالامكان احسن مما كان» ـ على حد المثل المعروف ـ وعلى ان الابواب المنوعة التى درج كتابى على تقديمها اليك فى اعداده منذ يوم صدوره ـ سواء منها الابواب الثابتة التى تنشر فى كل عدد بانتظام ، والابواب التى تنشر بالتناوب بين الحين والآخر ـ ينبغى ان تبقى كما هى بلا تغيير .. الى حد ان أبى اكثر القراء ذكرها وتعدادها ، مرددين فى شبه اجماع نغمة واحدة تدعو الى الدهشة حقا ، هى ان جميع الابواب « بلا استثناء» شائقة وممتعة ولا غنى عن اى منها !** ـ وان اختلفت فى بعض الاجابات نسبة ترجيح بعضها على البعض الاخر تبعا لاختلاف الاذواق والميول بطبيعة الحال ..

وأما الابواب القصيرة التى سألتك ان كنت ترغب فى اعادتها او العدول عنها ، فقد جاءت اغلبية الردود تطالبنى ملحة باعادتها .. وعليه فقد رأيت ان أجمعها لك فى باب واحد كبير فى القسم الاخير من الكتاب ، اطلقت عليه «دائرة معارف الثقافة العالمية» ، واضفت اليه تلبية لرغبتك بابا فى «النقد الفنى» يكون لك بمثابة الدليل النزيه الذى يرشدك الى الغث والسمين من ألوان الفنون التى لا يتسع وقتك لمشاهدتها جميعا ، او التى ينبغى ان لا تضيع وقتك ونقودك فى مشاهدة التافه منها الذى لا يستحق المشاهدة..

وختاما ، اكرر لك العهد ان يواصل كتابى النهوض برسالته التى وجدت لها فى نفسك ابلغ الصدى .. يواصلها وقد استمد من تأييدك العزم مجددا ، والجهد مضاعفا ..

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

كتابى

أعـــداد نفدت

كتابى الاول : « **خطـــايا الحب** » وكتب أخرى ، وكتابى الثانى : « **قلب عذراء** » وكتابى الثالث : « **الهـاربة من الجنـــة** » وكتابى الرابع : « **حــواء الجديدة** » وكتابى الخامس : « **أحدب نوتردام** » وكتابى السادس : « **جريمة حب** » .

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السـابع « **عشيقة نابليـــون** » ، والثـامن « **مــذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطـم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر «**عندما تحقد المرأة**» ، والثانى عشر «**لعبة الحب والموت**» ، والثالث عشر «**توبة خاطئة**» ، والرابع عشر «**ايها الربيع ترفق**» ، والخامس عشر «**الشيطان على الارض**» ، والسادس عشر «**الليدى هاملتون**» ،والسابع عشر «**الارملة المرحة**» والثامن عشر «**حياة جورج صاند**» ، والتاسع عشر «**حياة سارة برنـار**» ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بيتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالثوالعشرون « **كوخ العم توم** » والرابع والعشرون «**الزوج والعشيق**» والخامس والعشرون «**البوهيمية**» ، والسادس والعشرون «**فتاة لها ماض**»

◆ **وتطلب من صاحب كتابى ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ، و١٦** ، و ٢٥ ، وثمن كل منها بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، والعدد العشرونوثمنه عشرون قرشا (تحديدا للطلبات نظرا لوشك نفاده وعدم امكان اعادة طبعه)

◆ **ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER** أو بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبـل العملة الاجنبيـة أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

الاشتراكات

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والســودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة .. وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طـريق مكاتب البريد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و ٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب **شركة فرج الله للمطبوعات فى بيروت وفى بغداد (بشارع السنك ، بغداد)**


انطوائه..
دمّره!
قصة مصرية
للمحرر

- ١ -

النهار قد أوشك أن ينطفىء ، وضـيـاؤه قد بدأ يبهت فى الفضاء العريض ، ويذوب ذرة فذرة فى الظلام ‥ والسيارة ماضية بهما ، تتلمس سبيلها على هدى الظل الهـزيل الباقى من الضياء ، وتتعثر فى الاشباح الباهتة المتتابعة التى ألقتها أمامها – على أرض الطريق – كتل المبانى الصماء ‥ وجذوع الاشجار ‥ وأعمدة المصابيح المطفأة ، التى لم يكن النور قد صعد بعد الى عيونها ‥

‥ وكان شبح الصمت الاخرس قد ضاق بنفسه ، وبالموت ، ونهشت الغيرة قلبه، فخرج من حيث يقطن بين القبور – فى هيئة أحدب كريه – يسعى الى أرض الاحياء ، ليتصيد عاشقين يندس بينهما كعادته ، متطفلا على خلوتهما ، كأنما ينفس على المحبين نجواهم ، ولا يعبأ بما سيكون من حسابه العسير مع آلهـة الهوى ، جزاء ما اقترف من آثام ‥

ولاحت له السيارة ماضية ب « نادية » و « سامى » تتحسس طريقها وتتعثر ، فانسل الى داخلها حيث يجلسان ، وقبـع بينهما يرهف سمعه لنبضات قلبين جاشا بالعاطفة ، فتحررا من صاحبيهما ، وراحا يعدوان ‥ كل على هواه : قلبها يسبقها الى الامام ويطوى الطريق متعجلا الوصول ‥ وقلبه يشده الى الوراء ، متخلفا عن الركب ، باسطا ما انطوى من الطريق الذى قطعاه ‥

وغاب سامى عن نفسه ، وصرخت نفسه فيه :

« أما ترى يا سامى ، هذا الكيان الناعم ‥ هـذا الجبين الوضىء ، والنظرات الوادعة ، والشفاه ؟ تأمل نادية يا سامى

وتمل من شبابها النضير، فها هى ذى اخيرا الى جوارك، فى هذا الثوب الفاتن الذى طالما حلمت بأن يلمس كتفك ، فتسمع حفيفه ناعما قرب أذنيك ، ها هو حلمك العذب قد تحقق ٠٠ فما أسعدك ! »

وصرخ سامى فى أعماقه : كفى بالله يا نفسى ٠٠ اصمتى ! »

- ٢ -

ومضى صوت يهمس له :

« انك لتذكر يا سامى أول مرة استراح فيها بصرك المتعب على هذا الجبين الوضىء ، والعيون الوادعة ، والشفاه ٠٠ كنت قد دعيت لتناول الشاى عند أسرة صديقة ، فترددت ، ثم أجبت الدعوة فى فتور ، فان روحك المضناة كانت ما تزال تلهث عقب مطاردة عنيفة للهناء ٠٠

الهناء ؟ ٠٠ ويلك يا سامى من هذا الظبى ، الشارد ابدا من الانسان ٠٠ ان متعته الكبرى ان يقسو فى مداعبة مطارديه ، فيتباطأ ويتمهل ، حتى اذا ما قاربوه ، وهموا باقتناصه ٠٠ أطلق فجأة لجموحه العنان وراح يسابق الريح ، تاركا عشاقه يخورون ، ويسقطون صرعى وهم كاذب ٠٠ وأمل قد خاب !

« وكنت يا سامى واحدا من صرعاه ، سقطت تتلوى على أثر حب فاشل قديم ، اعتصرت فيه عواطفك واعصابك مدى عامين كاملين ، حتى خاب ، ففطمت قلبك عن هواه ، وصفدته باغلال الرجولة والكبرياء ٠ ثم نجحت فى أن تقتل ايمانه ، فكفر بالمرأة وبالحب ، واستكان لحرمان طويل ٠٠ ورحت تنشد السلوى فى العمل المتواصل فخصصته بكل وقتك ، وجهدك ، ونسيت أن فى الدنيا غير التعب والجهد ٠٠ ونسى قلبك الانفعال !

« حتى استراح بصرك ، وأنت تتناول الشاى فى منزل الاسرة الصديقة مع نفر مختلط من المدعوين ، على هذا الجبين الوضىء ، والعيون الوادعة ، والشفاه ٠٠ وداعب سمعك صوت « نادية »

وضحكتها الناعمة وهى تخطو الى الصالون معتذرة عن تأخرها لصاحبة الدار ‥

« ‥ فانتشيت يا سامى ، كأنما براحة خفية ، وتملكك انتعاش غريب ‥ وكما تقلب اسطوانة على وجهها الآخر تغيرت الدنيا فى عينيك : احسست فجأة انها دنيا جميلة وعذبة ، الى غير حد ‥ وان عروقك تنبض بالحياة ، والقوة ، والشباب الذى لا يعترف بالصعاب ، ولا يقف بينه وبين غايته شيء !

‥ ولو قيل لك لحظتئذ ان فى الحياة أحزانا وكروبا وآلاما، لرثيت لغيرك ، وهزأت بالخوف ‥ فقد شملك اذ ذاك اطمئنان غريب ، ويقين بأنك فوق متناول تلك المكاره أو غيرها مما يصيب وينغص الناس ‥ !

« كيف تفسر يا سامى ما أصابك ؟ وتلك الانفعالات البهيجة الخاطفة التى اختلطت وتتابع حشدها العجيب على خاطرك ، فى طرفة حس ، فى أقل من لحظة ‥ (كما أدركت ذلك على الفور عندما تبينت أنك قد بلغت قمة الانشراح ، قبل أن يجيء دورك فى مصافحة يد الضيفة القادمة ‥ اليد التى مدتها اليك وهم يقدمونك اليها بين كلمات التعريف المألوفة) ‥ ؟

*

« ‥ وكم تراخت تلك اليد واستكانت طويلا فى يدك عندما بدأ الرقص بعد حين ، فمنحتك نادية خصرها فى بساطة ، دون دلال بغيض أو اعتذار كاذب ‥ ورحتما تدوران على الانغام الناعمة لاغنية الحمامة العاشقة « لابالوما » التى كان الراديو يبعثها عذبة حنونا ، كنظرات نادية اذ ذاك ‥ نظراتها التى تعلقت بفمك ، متسائلة فى صمت عن سر صمتك أنت الذى تفرض عليك اللياقة أن تبدأ الحديث !



فمنحتك نادية خصرها فى بساطة ٠٠

«ولكنك كنت تحلم ياسامى، فأطال الصمت مقامه بينكما، وكم كان عذبا ومحببا حينذاك، وهو فى قناع طيف باسم يحدب على المحبين ويبارك أحلامهم !

«٠٠ وأفقت من حلمك ياسامى بعد حين، عند ما استأذن الصمت منكما فى الرحيل، على صوت نادية تسألك : ما بالك ؟ ٠٠ فأجبتها معتذرا : « لا شىء، لا شىء ٠٠ سوى انى سعيد أكثر من اللازم، فقد كنت أحلم »

ــ تحلم ؟ ٠٠ وبم ؟

ــ « بعش جميل على النيل فى العراء، مفتوح للرياح والضياء والطيور ٠٠ » ثم أضفت فى سرك « ولك أنت »، فقد اشفقت أن تقولها لها قبل الاوان فتلومك نادية، ولو فى ضميرها !

٠٠ وماجت الانغام، و رق هديل « الحمامة العاشقة »، كانما الوجد قد أضناها فذابت لهفة على أليفها الذى فارقته، عندما هبطت الى الارض كى تغرد للبشر التعساء ٠٠ و رق بين يديك الكيان الناعم الذى كنت تراقصه، والذى ما كان يشعل البدن بقدر ما كان يشعل الوجدان والروح ٠٠ ورقت روحك بدورها، فانفلتت نظراتك منك لتلثم الوجه الوديع الذى يطالعك ٠٠

وماجت مشاعرك مع النغم، فغبت عما حولك يا سامى، سابحا فى ذلك المحيط العميق المتلاطم المشاعر والخلجات ــ محيط نفسك ــ وغصت فى أعماقك تبحث عن لآلىء غالية، جديرة بهذا الجيد الفاتن الذى أمامك، كى تقدمها مهرا اليها ٠٠ وتطارد الاحياء السامة التي لا يخلو منها قاع نفسك، كى

تقتلها قبل أن تدعو نادية الى حياتك ٠٠ وكم يذكى فيك الحسن الرفيع من طموح وتوثب يا سامى !

« وعند ما خفت هديل الحمامة الولهى ، وهى تودع الارض لتطير الى عشها السعيد ، وأليفها ٠٠ تضرع اليك قلبك فى مذلة ، أن تطلقه ليغنى هو الآخر لاليفه ٠ ورغم أنه كرر توسلاته طوال الامسية وانت تراقصها مرارا ، ورغم انه بكى فى صدرك وهو يؤكد لك انه قد سمع صدى لنبضاته فى قلبها، وان الفتاة على الاقل لم تستبشعك ٠٠ فانك نهرته ، وخرجت ليلتها يا سامى فخورا بالكتمان ، مدثرا هواك الوليد فى أكثر من قماط !

« وحين طالعك الطريق السابح فى الضياء الساجى ، وعدك القمر بأن يبارك حبك ، وأحسست بيد رقيقة تمتد فى رفق الى قلبك الحبيس ، لتفتح فى سجنه كوة تدفق منها سيل من النور الناعم ، أغرقه فى الهناء ، وبعث فيه ايمانه المفقود ٠٠

ولما لمحت سيارتك رابضة تنتظرك أمام الباب ، ككلب أمين ، ربت بيدك عليها فى رفق ، موصيا اخاك أن يعود بها ، فانك تؤثر العودة على قدميك ٠٠

٠٠ ثم سرت فى الضياء !

- ٣ -

« ونما هواك الوليد ـ يا سامى ـ فى القماط ، ورحت ترضعه من نظرات نادية كلما صادفتها فى منزل الاسرة الصديقة بين الحين والحين ٠٠ ومضت أسابيع وأنت فخور بالكتمان ، قانع بأن تزود عينيك من محياها الوضىء ـ وأنت تراقصها فى كل مرة ـ بما يكفيك أياما حتى يتكرر اللقاء ٠ وكلما تململ قلبك ، ولامك على جمودك ٠٠ أمهلته بحجة معسولة ، طالبا فرصة أخيرة ٠٠ فى كل مرة !

«٠٠ حتى كان ذلك اليوم المشئوم ٠٠ السعيد ! كنت فى بهو منزلك بعد الغداء ، مستلقيا على مقعد طويل ، يتجاذبك تخدر



لذيذ ويقظة هانئـــة ، وتحلم بأثاث بهو العش الذى سيضمك مع نادية فى المستقبل السعيد ، وكأنها الى جوارك تنسج لـك صدارا من الصوف ٠٠

« ٠٠ ودق جرس التليفون ، فأمسكت بالسماعـة فى تراخ متسائلا عمن هناك ٠٠

« لماذا ياسامى تختار الحياة دائما لضربنـا فى الصميم ، بمطرقتها القاسية، الوقت الذى نبلغ فيه قمة الرضا عنها ٠٠ وتضحى قلوبنا ابعد ما تكون عن توقـع الصدمات ، والتهيؤ لدفعهـا ؟

« ألأنها حسود ؟ أم أنها تخشى أن تفيض بنا السعادة ، فننسى اننا من التراب ونتجبر ؟

« انك لاتدرى ٠٠ وان كنت تذكر ماحدث وانت تضع السماعة على أذنيك ٠٠ لقد تبينت الصوت الحبيب على غير انتظار ، فهتفت من فورك : نادية ؟

ـ نعم ، أهذا انت يا ٠٠ « فتحى » ؟

«ووجدت نفسك يا سامى ترد بالايجاب ، دون وعى ، منتحلا شخصية أخيك الاصغر ٠٠ ثم سمعتها تقول بصوت يغلب عليه الحنان : « لماذا لم تحضر حفلة الامس ٠٠ أما وعدتنى ؟ لقـد انتظرتك طويلا ٠٠ »

« واعتذرت لها يا سامى بكلمة رقيقة ، وتحجرت فى عينيك دمعتان ٠٠ اذن فهو أخوك من ٠٠ اختارته ؟

« كيف لم تفكر فى هذا من قبل يا أحمق ؟ .. لقد عرفتماها فى أمسية واحدة ، فلماذا بربك تأخرت ؟

- ٤ -

« .. والآن يا سامى .. أما تتملى من هذا الشباب النضر .. هذا الجبين الوضىء ، والنظرات الوادعة ، والشفاه الحالمة ، والجسد الناعم ؟ .. ها هو حلمك السعيد قد تحقق ، وها هى أخيرا الى جوارك ، فى ثوبها الفاتن ، الذى طالما حلمت بأن يلثم كتفك فتسمع حفيفه قرب أذنيك .. فقط أوص قلبك بأن يخافت من دقاته قليلا ، وانصت لدقات أخـرى .. **أما تسمع دوى الطبول فى أذنيك ، والموسيقى تعزف من بعيد ؟ .. كلا ؟ اذن فلتصبر قليلا ، فان الهواء لن يلبث أن يحمل اليك انغامها ، مترفقا .. انكما تقتربان من منزلك ، حيث ينتظركما الزحام الطروب ، والهرج والغناء ، وموائد الوليمة .. وحيث فتيات الشرف ينتظرن مقدم العروس .. نعم ، فالليلة ليلة الزفاف يا سامى .. زفاف نادية وزفافك !**

« ولكن تمهل ، لا تفرح الا بقدر ، فانك المنبوذ !.. ان نادية ستزف بعد لحظات ، الى فتحى .. أما انت فستزف الى الحرمان يا سامى ، فان القمر الذى وعدك ان يبارك حبك ، قد احتجب .. كأنما اخجله أن يخلف الوعد !

« .. وحتى رفقتك السعيدة لنادية، التى بدأت عند منزلها، **ستنقضى سريعا، عند** باب منزلك .. حين تسلم الوديعة الغالية الى صاحبها ، ويأخذ فتحى منك نادية الى الابد !.. والقبلة التى طالما منيت بها شفتيك .. ستنالها أخيرا الليلة ، بعد الزفاف ، ولكن على « جبينها » الوضىء !

« تجلد ياسامى ، واعذرهما ، فانك الملوم .. وانطواؤك هو الذى دمرك ، وسيدمرك مالازمك .. انهمـــا يجهلان سرك المكظوم ، فادفنه يا سامى ، ادفنـــه الى الابد ، ودع نادية فى

جهلها السعيد ، فانها طيبة ، وقلبها لن يتحمل أن يسعد لتشقى أنت أو غيرك ٠٠ وكبرياؤك لن يقبل منها نظرة عطف أو رثاء ٠ فلا مفر اذن ٠٠ أغلق قلبك على هواك الموءود واعده الى محبسه ، فانه قد خلق للهوان واعتاد الالم ، ولن يلبث أن يتبلد ٠ فقط ساير كبرياءه ، أوهمه انك لا ترقبه ، وشجعه على أن يغسل شجنه فى البكاء ٠٠ وابك انت معه ، ولكن فيما بعد ٠٠ أما الان فتجلد يا سامى ، وارفع رأسك ، وابتسم ٠٠ للحمامة الوديعة التى توشك أن تطير الى عشها السعيد »

وانسل اخر خيط من الضياء من قلب سامى ، تاركا الظلام يطبق عليه كما أطبق على الفضاء العريض ٠٠ ومضت السيارة بهما تطوى الطريق على هدى مصباحيها المضيئين ٠٠ بعد أن استراحت من أشباح المبانى ، والاشجار ، والمصابيح القائمة على جانبى الطريق ، اذ كان الظلام قد ابتلعها جميعا ، مغرقا الطريق كله تحت انفاس شبح واحد عريض ٠

٠٠ ولم يدر سامى ان كان قد طال الزمن أم قصر ، قبل أن يتبين الشبح الاخير ــ شبح الصمت القابع بينهما ــ انهما ليسا بعاشقين ، وأنه قد أخطأ الهدف ٠٠ فلاذ بالفرار ، على صوت نادية تقول ، وقد أفاقت من تأملاتها فى الغد السعيد :

ــ ماذا يا سامى ٠٠ أما تريد أن تقول لى شيئا ٠٠ ما بالك صامت ؟

فأجاب كالحالم : « **لا شىء ٠٠ لا شىء يا نادية ، سوى أن الهناء قد فاض بى ، عندما رأيتك فى هذا الثوب الابيض ، الناصع كقلبك ، ها قد وصلنا ٠٠ فابتسمى يا نادية ، للسعادة التى تنتظرك بين ذراعى فتحى !** »

٠٠ وابتلع دمعتين ، كانتا فى طريقهما الى عينيه !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتيـة على التوالى : « كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل » و« كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم انتقلت بك منذ العدد (١٦) من صحبة اندريه موروا الممتعة الى صحبة مفكر عالمى آخر هو الفيلسوف الانجليزى المعاصر « برتراند رسل » فى كتـابه المشهور « غزو السعادة »

وبعـده قدمت لـك كتاب فرويد المشهور « التحليـل النفسى » ، يليه « كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة » ، ثم « الجنس الاخر » ، و « عش حياة ايجابية » ..

واليوم أقدم لك فيما يلى الجزء الثالث من الكتاب الشائق « أبواب الحب المغلقة » الذى قدمت لك منه الجزءين الاول والثانى فى العددين الماضيين ..


LOVE'S CLOSED DOORS
BY
WALTER WYNN
أبواب الحب المغلقة!
للباحث الاجتماعى "والتر واين"

٠٠ ومفاتيح أخرى للحب

◆ فى الفصول السابقة التى نشرت من هذا الكتاب «ابواب الحب المغلقة» ، عالج المؤلف ـ وهو رجل الدين والنفس والمجتمع ـ عددا من «المفاتيح» التى تفتح مغاليق القلب البشرى لأجمل وأسمى عاطفة فى الوجود : عاطفة الحب ٠٠ وقد دلل على آرائه فى الفصول الاولى بأمثلة من غراميات اربعة من البارزين فى التاريخ ، هم : دانتــى وملهمته بياتريس ، والاديبة الانجليزية جورج اليوت وعشيقها ٠٠ ثم حدثنا فى الفصول التى تلتها عن : الطريق الى الحب ، وعن الغيرة ، واقنعة الغش والخداع ، والتهوس فى الحب ٠٠ مستشهدا بأمثلة جديدة من عواطف وتجارب : المسيح ، ومحمد ، ثم اوليفر كروموبــل

وفى هذه الفصول الاخيرة من الكتاب يتابع المؤلف بحثه فيحدثنا عن الحب والطموح ٠٠ والحب والمال ٠٠ ثم الحب وفوارق الطبقات ٠٠ الى آخر ما ستقرأه فى الصفحات التالية :

الحـــب ٠٠ والطموح !

◆ **من** المؤلم حقا أن نرى بعض الامور تنقلب الى « مصائد » فى حياة بعض الناس ، وان هذه المصائد لا تلبث أن تحتوى هؤلاء الناس وتحتبسهم فلا ينجون منها الا بمعجزة ٠٠ ولعل الاكثر ايلاما أن نرى المرء ينساق الى المصيدة فى سذاجة وبراءة وحسن نية ٠٠ وهذا ما يحدث كثيرا بين الازواج !

ولنضرب لذلك مثلا بالطموح ٠٠ فالطموح اذا سيطر عليه الانسان صار هبة الهية ، أما اذا أفلت عنانه من الانســان ، فانه ينقلب الى أمر خطير ، ذى نتائج تدعو الى الاشفاق ٠٠

وانك لتجد الزوج ينصرف الى عمله بكل فكره وقلبه ، من أجل خير زوجته الحبيبة وأولاده ٠٠ فاذا عكر عليه أحد هؤلاء

صفو استغراقه فى العمل ، غضب واغتاظ . ومن شأن هذا الغيظ وذاك الغضب أن يلقيا على بيته ظلا من الخوف والارهاب قلما يفطن اليه الرجل فى غمرة العمل .. **وذلك لا يعنى أنه لا يحب زوجته وأولاده ، ولكنه يضع العمل أولا ، فان الطموح يصير عنده لونا من العبادة .. ومن ثم فانه يفرغ للسعى اليه صباح مساء ، حتى فى أيام الراحة !**

وللنساء أيضا مصائد تأسرهن ، فلا تتحقق الزوجة انها حبيسة المصيدة الا بعد أن يكون الباب قد أغلق خلفها .. ولقد يثور الفأر اذا ما ولج مصيدة ، أما المرأة الطموح فلا تكاد تحس بأنها حبيسة .. **بل ان من النساء من كان يخلق بها أن تولد رجلا ، أو من لم يكن يجدر بها أن تتزوج ، لانها تدع طموحها فى الحياة العامة ، وفى مهنتها ، يتقدم على ما لزوجها من مطالب شرعية !**

ويقول جوته ـ الشاعر الالمانى ـ ان الطموح والحب جناحان يسموان بالمرء الى جلائل الاعمال .. فهو يقرن « الحب » ب « الطموح » .. أى أنه ، بما أوتى من صفاء ذهن وبصيرة ، عبر فى جملة واحدة عما نسعى لشرحه : « فالمرأة قد تشعر بالعظمة فى كنف زوج عظيم ، ولكنها اذا لم تحطه بحبها فى جولاته فى سماء المجد ، فان طموحه لن يلبث أن يسلمها الى برودة وحرمان .. ومن ثم ينشط طموحها ليثأر لها ، وقد يدفعها اذ ذاك الى الانحدار بدلا من الارتفاع .. »

والواقع أن طموح الرجل ، اذا لم يقترن بالحب ، كفيل بأن يقتل حب زوجته وأسرته ، اذ يجعل منه صورة حية للبخل والجشع .. وليس فى الدنيا طموح يعوض صاحبه عن حب أولئك الذين يجب أن يحيط حبهم به فى الحياة .. **بل ان جده واجتهاده اذا جعلاه ينأى بعقله وجسمه عن أسرته ، لا يلبثان أن يجعلا من العمل عبئا ثقيلا ممضا .. اذ ما قيمة أعظم**

الاعمال اذا لم يجد الرجل حوله من يكافئونه عليها بالعرفان والحب والاجلال ؟٠٠ ومن أقدر على ذلك من زوجته وأولاده ؟٠٠ لذلك كان لزاما عليه أن يوفق بين سعيه الى تحقيق آماله – من أجل نفسه ومن أجلهم – وبين اعطائهم حقهم من الرعاية ٠٠

وكم رأينا من خطوبات تفصم ، لأن طموح الرجل قد صرفه عن أن يعنى بفتاته المختارة ، رغم حبه الضافى لها !٠٠ أعرف صديقا مفرط الذكاء ، مولعا بالادب القديم ، ويوشك أن يسجل لنفسه مكانة مرموقة فى عالمه ٠٠ وقد روى لى القصة التالية :

« وقعت فى الهوى فى الوقت الذى بدأ فيه يراودنى الطموح الى أن أكون الحجة الاولى فى الآداب القديمة جميعا ٠٠ ولم أرد أن أضيع أحد الامرين من يدى ،فقررت أن أدرس الادب فى المقابلات التى دبرتها مع فتاتى قبل أن نعلن خطبتنا رسميا ٠٠ وكان لقاؤنا الاول فى قاعة الجلوس بدارها ، وقد أخلى لنا أهلها الجو استنادا الى أننى الخطيب المنتظر ٠٠ وجلست الفتاة فى أحد طرفى الحجرة ، بينما جلست فى الطرف الآخر ، وبدأت أقرأ لها من « هاملت » فى القاء سليم راق ٠٠ وحرصت على أن أختار أروع المواقف ٠٠ وشد ما كانت دهشتى ، حين تطلعت الى فتاتى – فى سياق القراءة – فاذا بها تتثاءب٠٠ وتبينت اننى استغرقت ساعتين فى قراءة متواصلة ، وكنت مرتبطا بأعمال هامة ، فاستأذنت للانصراف فى عجلة ، بعد أن اتفقنا على لقاء آخر ٠٠

« وذهبت فى المرة الثانية متأبطا كتابى ٠٠ وما أن هممت بالقراءة حتى تبينت أن الفتاة قد تسللت فى سكون ٠٠ وفتح هذا عينى على الموقف ٠٠ فلما عادت ، تركت كتابى جانبا ، وجلست بالقرب منها ٠٠ ولن أثقل عليك بتفصيلات يغنيك عن سماعها اننا منذ ذلك الوقت ننعم بالسعادة معا ! »

وهكذا كان هذا الصديق محظوظا ، اذ تدارك الامر قبل

أن يقفل دونه باب المصيدة .. ولكن سواه قد لا يؤتى هذا الحظ !

خطورة التقلب و « الطموح » فى الحب !

◆ **وللحب** بدوره طموح .. وهو الآخر طموح قوى ، جبار اذا تمكن .. فكم من شاب فاتن ، تهفو اليه كل فتاة ، ولكنه لم ينل فى الحب توفيقا .. لانه أخذ يتقلب بين الفتيات، يجربهن كما يجرب المرء عددا من أربطة الرقبة لكى يختار أحدها !.. ذلك لانه يصبو فى توجيه حبه الى صورة طامحة فى ذهنه ، وينسى ـ أو لعله يجهل ـ ما فطرت عليه المرأة ، وما ينطوى عليه التقلب بين النساء ـ كما تفعل النحلة اذ تتنقل بين الزهور ـ من أخطار تنتهى به الى أن تنفض عنه كل النساء ويعرضن عن حبه ، ويتركنه يقضى العمر وحيدا .. محروما.. مهجورا !

وهذا الصنف من الرجال الذين أوتوا فى الحب طموحا ، يجهلون هذه العاطفة المحوطة بغلائل الغموض .. يجهلون أنها حين تأتى فانما تأتى مباغتة ، مفاجئة ، تهز الكيان هزا لا يبقى معه سبيل الى تجاهلها ..

والواقع ان التحليل العلمى بما أوتى من أساليب وطرق ، لا يستطيع مع ذلك أن يفسر كنه الحب .. انه حلم يصاب اللسان بعده بالعى آونة من الزمن .. حلم جميل جمال جناح الفراشة ، بألوانه الزاهية ، وخفقاته الرشيقة .. وما لم يدرك الساعى اليه حقيقة سره ، فانه يبقى العمر أسير حياة مغلقة الجوانب ، محدودة الآفاق !

ان الحب ليس بالوهم الخيالى .. انه ملاك ينفذ الى النفس ليسيطر على كل ما يختلج فيها من مشاعر وأحاسيس ، وينفرد بالسيادة عليها .. ثم يكون له البقاء بعدها .. **وهناك مثل يقول : « لئن تحب ثم تفقد حبك خير من أن لا تحب اطلاقا »**

.. ذلك أن الحب يطبع على الذاكرة صورا ذات ألوان لا يخبو لها رواء ولا تحيل لها بهجة ، بل ان الزمن لا يزيدها الا جمالا .. حتى اذا انصرم العمر ، وأخذت ذكريات الحياة تتلاشى رويدا ، بقيت ذكريات الحب معلقة بخيوط من حرير على أبواب الماضى وجدرانه ..

ومن الطموح ما يبدو براقا ، ثم لا يلبث أن يكشف عن زيف .. ولكن بعد أن يكون قد نأى بك عمن يمنحونك الحب خالصا — والحب الخالص خير من المال والجاه وكل عرض دنيوى ! — ولا شك أن مثل هذا الطموح مغرر ، خادع .. انه يرسم على محياك نوعا من الترفع أو عدم الاكتراث ، يصرف من يحبونك عن ملاحقتك بحبهم .. وهو فى الوقت ذاته يقودك حتى ينتهى بك الى صحراء لا تلقى فيها جزاء ، اللهم الا الجوع والعطش ..

ولكن الحب أعقل من الطموح وأكثر حكمة .. فالحب يفتح أمامك الابواب ، ويمهد السبل ، ويرقى بك قدما ، فى حين أن الطموح لا يتورع أحيانا عن اغرائك بمحاولة أن تزيح عن طريقك من قد يعترضك ، بأية طريقة تسعفك ، في سبيل الوصول الى غايتك !.. وقد جاء فى أحد الكتب القديمة أن « القاتل هو الشخص الذى لا يحب ، والذى يستر أعماله الاجرامية بأكاذيب وأعذار مسبوكة ، يخدع بها الناس » .. ولكن نسيج هذه الأكاذيب لا يلبث أن يبلى ، فيجد صاحبها جهوده تهوى وتنهار .. واذا الحفرة التى حفرها لمن كان يرجو أن يزيحه عن طريقه ، تستقبله هو .. حافرها !.. وهذا هو العقاب الذى لا مفر منه للطموح الذى يقترن بأهداف خاطئة .. وهذا هو المبدأ الذى يسود شئون البشر .. « من حفر حفرة لاخيه وقع فيها » !

وهذا المبدأ ينطبق على الحب أيضا انطباقه على الطموح .. وكم رأينا من شاب ماهر ، بارع ، يحاول أن يزيح عن طريقه

الى قلب فتاة غريما ، فاذا هو يعمد الى الدس ، والوقيعة ، والوشاية ، والنميمة ، وألوان الكذب التى تبعث الهواجس والمخاوف .. مثل هذا الحب يشاهد فى مختلف طبقات المجتمع، وان تباينت أشكاله .. فهو فى الطبقات الدنيا يتجلى صريحا فى قسوة .. بينما نراه فى الطبقات العليا مغلفا بأستار من الرقة المهذبة المثقفة !.. ولكن الغلبة دائما للحب الصادق .. فهو ينتصر فى النهاية ، ويترك صاحب الطموح منبوذا ، محسورا ..

ان الحب هو الاحساس الاول والاساسى فى القلب البشرى .. ونحن اذ نسىء علاجه انما نسىء الى أنفسنا .. فان الانانيين الذين يسعون الى سرقة الحب ارضاء لانفسهم انما ينسون أن ليس للحب من دواء ، وانه قط لا يتنحى ليدع الطموح يقتله أو يحل محله على عرش العواطف .. ولقد قال موليير يوما : « صدقونى ان أعظم ما ينبغى أن تطمح اليه النساء هو أن يوحين بالحب» !.. وهل ثمة معجزة للمرأة فوق الهام الحب؟.. الحب الحقيقى الصادق ، لا تلك العواطف العابرة والنزوات الطائشة .. واذا كان هذا شأن الحب بالنسبة الى طموح المرأة ، فهل من العدالة أن يسمح الرجل لاى طموح بأن يمتص هذه العاطفة ويترك قلب المرأة جائعا ظامئا ؟

والواقع أن القسط الاكبر من السعادة المنزلية ينبع من الحب .. ولكن الرجال فطروا فى الغالب على الاثرة والاهتمام بأنفسهم، واعتبار كل فرد فى المنزل مكلفا بأن يسهر على خدمتهم .. ولعل الباعث على ذلك أن الرجال يحشون رؤوسهم طيلة النهار بشئون العمل والكسب ، فاذا فرغوا منها عاد الواحد منهم الى داره فخلا الى نفسه ، أو سعى الى صحبة أصدقائه خارج البيت .. ولو درى لأدرك أنه بذلك انما يضيع على نفسه مسرات لا يعدلها شىء .. فما أحلاها من سعادة أن يسعى الى ادخال السرور على نفس زوجته ونفوس أولاده ..

النصف « الافضل » !

◆ **رأيت** ذات صباح فى « ديربان » ـ باقليم ناتال بجنوب افريقيا ـ أحد الاهالى الافريقيين ، يسير معتمدا على عصا ذات يد معقوفة ، فى تعال واعتداد مزهو ٠٠ وخلفه ، وعلى مسافة منه ، سارت أربع من زوجاته ٠٠ وكان يلتفت من آن الى آخر ليلقى اليهن أوامره ، فكن يطعن تعليماته فى ذلة ، دون أن يبدين شيئا من العاطفة نحوه ، كأنهن بقرات ذلولات ٠٠ وكأنه بالنسبة لكل منهن ، « النصف الافضل » أو « الاحسن » ٠٠

وكان الرجل فى مشيته وتصرفاته يذكرنا بما كان الملوك فى الماضى يزعمونه لانفسهم من « حق مقدس » أو « حـــق الهى» ٠٠ وكان المنظر كله صورة من حضارة قديمة تشوب رقعة الحياة الحديثة ٠٠

ولكن ، الى أى حد كانت العناصر : الانجليزى والامريكى واللاتينى والجرمانى ، تقلد العنصر الافريقى فى هذا ، والى أى حد هى ماضية فى تقليده ؟

لقد كان الرجل الى عهد قريب يسيطر على مال زوجته بموجب الزواج ٠٠ وكان ينفرد بحق التصويت والانتخاب ٠٠ بل ان الزواج لا يزال فى فرنسا يبيح للرجل أن يتصرف فى مال زوجته ٠٠ وللرجال فى كثير من بقاع العالم سلطان يتجاوز هذا الحد ٠٠ وهذا السلطان الذى يعززه القانون يستمد فى أصله من نفس المصدر الذى يستمد منه الافريقى سلطانه، بيد أن الافريقى الذى لم تشرق بعد على بلاده شمس الحضارة جدير بأن يعذر ، أما الغربى الذى يزعم أنه متحضر ، فلا عذر له ٠٠ ولا سبيل الى الصفح عنه .

وبغض النظر عن النواحى الشرعية والقانونية التى تسند « تفوق » الرجل على المرأة ، فاننا نجد أن روح ذلك الافريقى

مسيطرة على كثير من البيوت فى الدول المتمدينة ، فان « رب البيت » هو السيد ، الذى تستحيل كلمته الى قانون ، والذى يباح له أن يملى ، وأن ينتقد ، وأن يتوقع الحب من الجميع رغم ذلك ، ومن ثم يشكو اذا لم يتلق ذلك الحب ٠٠

ومن الصحيح أن من الزوجات من تتخذ هى هذا المسلك ازاء زوجها ، ولكن هذه حالة نادرة ، شاذة ٠٠

ولا يدرى الرجل أن اظهار « سلطانه » فى « داره » هو أكبر خطأ يرتكبه فى حياته ، اذ أنه يسد أذنيه عن أن يسمع أزيز باب الحب وهو يتحرك رويدا ٠٠ ليغلق دونه فى النهاية! ـ ومن عجب أن يشكو الرجل بعد ذلك من الضجة التى أحدثها الباب وهو يغلق ٠٠ وأن يعجب ، لم لم يبق الباب مفتوحا ؟!

والواقع أن فى فرض السلطان ـ مهما ضؤل ـ تدميرا لمجرد مبدأ الشركة الذى تقوم عليه الزيجات ٠٠ والسلطان يتضخم من تلقاء نفسه وينتفخ ، حتى يصل الى أقصى مداه ، فينفجر مدمرا نفسه !

وبينما نجد أن النفس المطبوعة على الود والمحبة تكتسب فتنة تفتح لها الابواب ٠٠ نجد أن « الترفع » أو « التعالى » يثير التمرد ، ويبعث النفوس على الصلابة ، والنفور ٠٠ اذ أن من العسير أن نحب الشخص « المتعالى » لان فى اصراره على فرض سلطانه اشعارا لنا بنقصنا ٠٠

والرجل الذى يرى أنه « النصف الافضل » فلا يفتأ يذكر أن الله خلق النساء « قوارير » ، وفضل الرجال عليهن ، ينساق الى الحماقة دون أن يدرى ، ويذكى فى نفسه الزهو والغرور دون أن يفطن ٠٠ فكيف لامرأة أن تبقى على حب مثل هذا الرجل ؟٠٠ لعلها ان هو سكت أن تكشف من نفسها نواحى تفوقه وامتيازه فتكبرها فيه وتكبره من أجلها ٠٠ ولكن زهوه كفيل بأن ينفرها منه !

والوسامة لدى الرجل ، كالجمال لدى المرأة ، كثيرا ما يبعث الغرور ٠٠ وينسى كلاهما أن عوادى الزمن لا تلبث أن تقضى على هذا العرض الظاهر ٠٠ وأن الحب لا يعلق بالمظاهر وانما هو يتغلغل الى ما فى الاعماق من ميزات ٠٠

ان الزهو والغرور أس كل خطأ وخطيئة ، ولا يمكن أن يقترن بحسن الخلق ولا طيب الشمائل ٠٠ ولكن ثمة زهوا آخر ، تتقبله المرأة راضية ، وتفخر بأن تشاطر رجلها اياه ٠٠ ذلك هو الزهو بالشرف وبالمواهب الفاضلة ٠٠ ومن طباع هذا الزهو أنه لا يعلن عن نفسه بالعجرفة والسيطرة والامر والنهى - وهى المظاهر الاعلانية التى تدفع باب الحب ليغلق فى عنف ودون انذار !

وكم من امرأة انسحبت من معركة الحياة كسيرة القلب من جراء ما يصبه عليها « النصف الافضل » من انتقاد لا يقوم على حب ، وانما قوامه الشعور بالسيادة والغرور ٠٠ وكم من رجل طلق الكفاح فى الحياة بسبب لسان زوجته الحاد المسنون ؟

ومع ذلك ، فان هذه المآسى سهلة العلاج فى بدايتها ٠٠ وذلك اذا أحللنا الحب محل البغضاء ، والعطف محل الانتقاد ، والمعونة والتعاون والتشجيع محل المعارضة والتأنيب !

وخير نصيحة لأى خطيبين أو زوجين هى أن يحرص كل منهما على الحب حين يقدم اليه ، حرصه على صندوق نفيس يضم أنفاس الحياة ٠٠ ولينشق من عبيره حتى يملأ قلبه ٠٠ فالحب يدعو الى التسامح والصفح ٠٠ وقد قال المسيح ، وهو المتسامح الاكبر : « من أجزل الحب ، أجزل له الغفران » ٠٠ لذلك فلا تدع الرغبة فى فرض ارادتك تطغى عليك ، ولا تدع الشعور بالتعالى والتفوق والافضلية يسيطر على تصرفاتك ويوجهك فى علاقاتك ب « النصف الآخر » ٠٠ فان هذا يؤدى بك الى الفشل والخيبة ٠٠ أما « الحب » فلا ينتهى قط الى حسرات !

الحب والمال !

◆ **لم يبق شىء لم يقل فى ذم المال والثراء** ، رغم أن النقود أصبحت فى مجتمعنا الحديث من الاشياء التى لا غنى عنها ‥ ومن هذا الذى قيل : ان «المثرى اما شرير او وريث شرير» ، و «المرأة الغنية لا تطاق» و «المال يفسد الخلق الطيب» و «يخلق الكبرياء ويقضى على التواضع» و « لاقناعة فى الثراء » وما الى ذلك من أقاويل ‥ ولكن الواقع على العكس من هذا كله ، فلا شىء يماثل قيمة المال «اذا» احسن استخدامه !

على أن فى الحياة أشياء أخرى لا تقل عن المال قيمة ، ان لم تفقه ، فالحياة بدونها جافة ، خاوية ‥ ومن هذه الاشياء : الحب ، والمرح ، والذكاء ، والشخصية ، والرفق ، والرحمة ‥ فهذه كلها اعظم من المال وأبقى ‥ **اذ ان المال قد يذهب ، ولكن الحب لا يذهب قط ، ومهما تجاهلته ، أو اسأت تقديره ، فانه لا يلبث ـ اذا ما عدت الى تقديره ـ أن ينتعش وينمو ‥‥ والمال قد يسهل جمعه اذا سلكت الاساليب الصحيحة لذلك ، وليس هذا شأن الحب ، فانه من أندر النباتات فى بستان القلب ‥ بل انه كالنسمات لا تعرف كيف تهب ، ولا متى ، ولا من أى الجهات ‥ وعندما تتجرد من غلائل الحياة الزائفة ، فان الحب الذى أولاك اياه رجل أو امرأة أو طفل يبقى ليرسل عليك ضياءه خلال حطام الحياة المادية ، فيكشف لك عن الجانب الروحى من الخليقة ، ويبين لك أن تلك الحياة المادية ليست الا عرضا زائلا ، وان وراءها ماهو أبقى وأكثر دواما ‥ وراءها الخلود !**

زرت مرة قصر أحد أصحاب الملايين ، فراعنى ما رأيت فيه من مظاهر الرفاهية والعز ‥ وكنت اعرف الرجل منذ الصبا ، اذ كنا صديقين ، وكان اذ ذاك فقيرا ، لطيفا ‥ ولكن طموحه صرفه عن أن يتقرب الى أية امرأة ‥ وان كنت قد عرفت امرأة أحبته حينذاك حبا خالصا ‥

ومع انه اصبح فى كبره من الثراء بحيث يستطيع ان يتزوج ، الا انه لم يجد بين نساء الطبقة التى أصبح ينتمى اليها من تحبه عن اخلاص ، فقد كان جاف الحديث ، دائم الجد ، نادر الابتسامة ‥ ولم يكن يجد فى مشكلات الوجود ما يستثير اهتمامه ، ولا كانت شهقات الانسانية المعذبة تخرجه عما راض نفسه عليه من عدم اكتراث ‥

ووجدته حين زرته يتشاجر مع سكرتيرته من أجل عدد من كشوف

الحساب لم يتجاوز مجموع المبالغ التى تضمنتها بضعة جنيهات .. ثم انقلب يشكو من ان احدا لا يحبه ويشفق عليه ، ومن أنه وحيد ، حتى أصبحت الحياة فى نظره « لا تطاق » .. وزفر فى أسى وقد بدأ يستعيد ذكريات الماضى ، ثم قال : «آه .. هل تذكر ايام الصبا ؟.. هل تذكر فلانة..؟ لقد كانت تحبنى ، وقد لمست الحب منها حقا ، ولكننى انبأتها بأننى لا انوى الزواج ، ورحت اتفادى كل ما يشجعها على ان تكشف عن عاطفتها .. تصور !.. يا الهى ! »

وانحدرت دمعة على الوجه الذى كان يبارى الصخر فى صلابته .. واستطرد قائلا : «انى لأتمثلها الان امامى ، برغم انها قد ماتت .. اننى لا زلت احتفظ برسائلها وأعتبرها المصدر الوحيد للتسرية فى وحدتى .. ولو أنها كانت على قيد الحياة لغمرتنى بحبها .. ولأحببتها .. ولكنى الان لا أجد من يحبنى ! »

مسكين !.. لقد تبين أن الحياة لا تطاق بلا حب ، وأن الحب أفضل من الثراء ، ولكن .. بعد فوات الوقت !

وأنت ترى أبناء العمال لا يكرهون شيئا فى الغالب قدر ما يكرهون مساء يوم السبت من كل أسبوع ، لما ينشب من مشادات بين الاباء والامهات حول النقود .. ولو اننا تنقلنا بين الطبقات لوجدنا المال محور أغلب الخلافات ، حتى فى أرقى الاوساط .. فهو أساس كل شر ، واذا ما دخل فى العلاقات بين الرجل والمرأة ، فقل على الحب السلام ، لانه اذ ذاك يطير من أقرب النوافذ ..

أما حين يتاح للحب أن يحكم ويفصل ، فان اسوأ الوان الشقاق سرعان ما ينتهى الى وئام ومسرة .. فالحب يصلح كل شىء .

حذار من التشاؤم !

◆ **ومن** الاسباب التى تجعل الحياة لا تطاق ، أن يستسلم المرء للتشاؤم فى كل الامور .. وقد يكون للاعصاب او المزاج أثر فى التشاؤم ، ولكن السبب الاكبر فيه يرجع الى عجز الناس عن أن يولوا وجوههم شطر الجانب البهيج من كل أمر ، وعن ان يطهروا عقولهم من الخرافات والخزعبلات ..

ان المتشائم ليقرأ الصحيفة فى الصباح ، فلا تجتذب عينيه سوى انباء الانتحار ، والاغتيالات ، والزلازل ، والاوبئة ، والحوادث المؤلمة .. واذا نفسه تعاف الفطور ، واذا شعور يتسلط عليه بأن حدثا مؤسفا لابد محدق به فى يومه .. لانه يقصر النظر على الجوانب المعتمة من الامور . ولو انه نظر الى الجوانب البهيجة لرأى كل شىء بهيجا .. ولو أنه رأى مصائب سواه لهانت عليه مصائبه ..



ان الاكتئاب ، والانقباض ، والحزن ، والاسى ، والزفرات ، والتنهدات ، والهواجس كلها عوامل تفعل مالا تفعله أية قوى اخرى فى تقويض حياة الافراد والبيوت .. وهى قد لا تكون دليلا على انعدام الحب ، ولكنها كافية لان توصد ابواب الحب فى قلوب الاخرين .. مع ان من اليسير على المرء ان يقفز من الافكار المدلهمة الى الافكار المشرقة .. فاذا همك امر فابحث بعين خيالك خارج الظلام .. تصور المروج الخضر ، ورؤى الطبيعة الجميلة ، فانها تهبك القوة على ان تحول افكارك الى النواحى البهيجة .. وهذه العادة قد لا تبدو سهلة فى اول الامر ، بيد انها لا تلبث بمرور الزمن أن تغدو غاية فى السهولة ، ولو شاع استعمالها لما وجدت المحاكم ما يشغل رجالها !.. ولانبعث الضوء فى آلاف البيوت التى خيمت عليها سحب الاسى المظلمة !..

وليس لرجل ان يدخل ــ بانقباضه ــ الخوف على قلب زوجته .. وكما ان اية امرأة لا يمكن ان تجد ما يستهويها فى الرجل العابس ، فكذلك لا يستطيع اى رجل ان يحتمل المرأة التى من طبيعتها الاكتئاب .. ولقد يكون الحب فى قلب كل منهما ، ولكن الاحزان والانقباض والعبوس تحيط ذلك الحب ببرود قاتل ..

تلفت حولك فى الطبيعة .. تأمل الفراش بالوانه البهيجة ، والبلابل ، والنجوم اللامعة .. ان الكون طافح بالبشر والفرح والموسيقى .. ولقد أبصر «كارليل» كل هذا ، ولكنه انتهج السبيل الخاطىء ، وترك عسر الهضم ينكد عليه عيشه .. فى حين أن « مارك توين » عانى من المتاعب ما لم تكن له نهاية ، فلم ينتقص ذلك من روحه المرحة الساخرة ، لانه عرف سر التخلص من الهموم ، واكتشف طريق الابتهاج ..

والواقع أن أسعد الناس هم اولئك الذين يستطيعون أن يتغلبوا على متاعبهم ، فلا يقضون الوقت يفكرون فيها وزفرات الحسرة تتصاعد من صدورهم .. وانما يغلبون مرحهم على اساهم ، فاذا لصحبتهم فعل السحر

فى اويقات الاكتئاب .. أولئك تتفتح الابواب جميعا فى وجوههم .. ولعل شكسبير كان من هؤلاء ، فلو أنه لم يروض خيـاله على أن يستوعب الشخصيات المرحة التى كان يلتقى بها ، والاحداث الفكهة التى كان يصادفها ، لما استطاع أن ينتج مسرحياته الضاحكة « الكوميدية » ..

وليس من شىء فى الحياة يستحق التنهدات الحرى .. وخليق بك أن تضن بتنهداتك ، ولو من أجل حب نبذ وقوبل بالاعراض .. فان الزفرات لم تذك وقدة الحب يوما فى قلب بارد .. كما أن أعمق العواطف هى تلك التى تخبأ فى القلب فلا تنم عنها حركة ولا تشى بها زفرة ..

لا بد لنجاح الزواج من انكار الذات !

◆ **فى** اواخر ابريل سنة ١٩٣٣ ، انتحر فى انجلترا قاض اشاع موته فى الشعب حزنا .. ذلك هو القاضى «مكاردى» ، الذى اشتهر بانه لم يكن يبارى فى سعة افقه ، وخفة روحه ، وبعد نظره ..

ولو ان الامر اقتصر على هذه المواهب ، ما كان الحزن عاما وعميقا .. ولكن الذى زاد اللوعة ما نشره احد اصدقاء صباه فى صحيفة «الديلى هيرالد» من سر لم يكن احد قد درى به .. اذ احب «سير هنرى مكاردى» حوالى سنة ١٨٩٠ فتاة ، ولكن القدر أبى عليه أن يتزوج منها ، فهجر «برمنجهام» ، وغير الطريق الذى كان يعتزم أن يسلكه فى الحياة ..

ولم يدر أحد بسره .. ولكن حياته اقترنت بحساسية مرهفة كانت تطغى على افكاره .. ولقد ظهر بعد انتحاره انه ظل طوال حياته يعـانى العذاب من جراء غرامه الفاشل .. ولعل اظهر دليل على ذلك ما كان يصدره من احكام فى القضايا الزوجية وهو الذى قضى العمر اعزب .. فان الذى يراجع تعليقاته يشعر بانه كان يحاول ـ بطريقة لاشعورية ، اى بدون ان يفطن ـ ان يهون على نفسه الصدمة التى تلقاها فى صدر شبابه ..

قال فى احدى القضايا التى فصل فيها فى محكمة «ليدز» للاستئناف :

«الزواج مجرد عقد يتعهد طرفاه بان يعيشا معا لانجاب الاطفال وتاسيس أسرة لصالح الوطن .. ومن ثم فالزواج لا يجعل من الزوجين شخصا واحدا ، لا من الناحية الجسدية ، ولا من الناحية العقلية .. بل انه ـ على ضوء ما رأيت فى مشاهداتى ـ لا يؤدى الى وحدة روحية .. وانما يعتمد الزواج فى نجاحه على تبادل انكار الذات ، والتضحية .. وعلى الاحترام المتبادل ..

«وبايجاز ، ارى من واجبى ان اذكر لكم فى كلمات ارجو ان تكـون واضحة ، ان الرجل لا يستطيع اليوم ان يزعم ـ تحت ستار الزواج ـ انه «يملك» زوجته !.. فالمرأة المتزوجة فى هذه البلاد قد اكتسبت حريتها ، فهى مواطنة وليست جارية من الرقيق .. اى ان لها ان تحكم على الامور وفق

ما ترى ، وان تختار الرأى الذى يروق لها ، وان تقرر مستقبلها ومصيرها .. ومن ثم فسعادة الزواج فى هذه البلاد لا تقوم على القانون ، وانما تقوم على اشياء اخرى .. على الرفق المتبادل ، وعلى المجاملة المتبادلة ، وعلى الصفح المتبادل ، وعلى الانكار المتبادل للذات .. وفوق كل هذا ، على الاحترام المشترك للالتزام الادبى الذى يفرضه الزواج على كل من الزوجين ..

« وانى لارى ان الزيجات الشقية انما تتأتى اولا : عن انعدام هذه الامور ، وثانيا : عن اعتلال المزاج ، وثالثا : عن الاخطاء التى تترتب على الطباع ، ثم .. عن عدم التوافق الجنسى ، رابعا »

ومن الصحيح ان «الحب» لم يذكر فى نصوص القوانين التى تحكم الزواج .. ومع ذلك ، فاننا نلاحظ ان آراء القاضى «مكاردى» تغاير تلك التى تشيع فى كثير من بلاد العالم فى عهدنا هذا .. وان كان ثمة كتاب لا يفتأون يخرجون على الناس بآراء متطرفة ، فيزعمون ان «الزنا» لا يجب ان يعتبر ابشع جريمة من جرائم الخيانة الزوجية ، ويدعون الى اطلاق الحرية لكل من الزوجين فى حياته الخاصة ، ويقولون ان الزواج رابطة تحد من الحرية الشخصية وتقيدها ..

ولقد تعرض الزواج فى جميع العصور للحملات والانتقادات ، حتى اصبح من المألوف ان نسمع انه «شر لابد منه» وان «اوله حلو واخره علقم» .. بيد ان هذه الآراء لم تجد رواجا اجماعيا لدى الجنس البشرى ، فان الانسان فِطرا على السعى الى الصنو الاليف ، وعلى الرغبة فى التزاوج ، شأنه شأن بقية المخلوقات .. فهذه سنة الطبيعة ، لا للتكاثر وحفظ النسل فحسب ، بل ارضاء لغريزة كل جنس فى رفقة الجنس الآخر والائتناس به ..

انما المهم فى الزواج ، ان يقوم على الحب المتبادل .. فهو الذى يوفق بين كل اثنين مهما تعددت بينهما نواحى الاختلاف والتباين .. فكم من طويل تزوج من قصيرة ، وكم من بدينة هفت اليها روح رجل نحيل ، فكانت السعادة هى الجزاء الذى نعم به الاثنان ..

ومن ثم فالزواج ــ اذا ما قام على حسن الاختيار بين الاليفين ــ محالفة سعيدة .. بل هو اسعد تحالف فى الدنيا .. وعلى هذا تستند الاسس الخلقية للزواج ايضا ، بمعنى ان «الطيور على اشكالها تقع» ، فانت لن تجد امرأة سليمة الخلق ترتاح الى معاشرة رجل واهى الخلق .. بل انها اذا استبانت فساد اخلاقه بعد الزواج ، لا تتوانى فى السعى الى الطلاق ، ولو اضطرت الى ان تعمل وتشقى فى سبيل ان تعول اولادها .. وهى مع ذلك تظل وفية لمبادئها الخلقية ، وكأنها لا تزال فى عصمة زوج ..

افلا نلمس هنا حكم الطبيعة ، والضمير ، والشرف ؟٠٠ انه حكم لا يحتاج لقانون ٠٠ وعندما يتكشف الزواج عن مأساة وتعاسة ، فجدير بالقوانين ان تعمل ، لا على التمكين من فصمه فحسب ، بل على تسهيل ذلك ، اذ ان جميع الروابط لا تلبث فى مثل هذه الحال ان تنهار وتتداعى ، ولا تبقى سوى الرابطة القانونية القائمة على «العقد» ٠٠ عقد الزواج !٠٠ وهى اذ ذاك لا تصبح رابطة شرعية ، بل تغدو مهزلة انسانية واجتماعية

ولقد خرجت من دراساتى للزيجات والحياة الزوجية بهذه النصيحة : «صن حبك الاول ، والكرامة الادبية للزوجية ، تعش سعيدا موفقا ٠٠ أما اذا تخليت عنهما ، فلن تلبث الابواب ان تغلق دونك ٠٠ وتبقى فى وحدة قاسية موحشة ! »

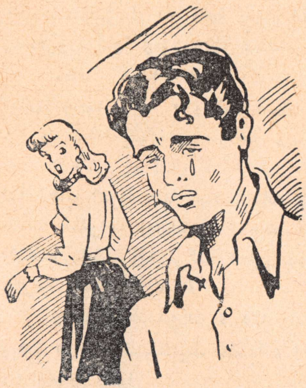
◆ والاوضاع الاجتماعية كثيرا ما تنطوى على حواجز شائكة تفصل بين الرجل والمرأة ٠٠ فكم من نكبات ومآس ترتبت على ما يسمونه «المركز الاجتماعى» ، لاسيما اذا كانت الفتاة من طبقة اقل شأنا من تلك التى ينتمى اليها الفتى ٠٠ فاذ ذاك ينسى الاب ان ابنه هو الذى سيتزوج الفتاة ويربط حياته بحياتها ، وان من حق الابن - وهذه حاله - ان يختار الشريكة التى تحلو له ٠٠

ينسى الاب ذلك ، فيعترض على اختيار ابنه ، ويأخذ فى محاولة ان يثنيه عن عزمه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويروح يغلى ويفور ٠٠ وتنضم اليه الاسرة فى موقفه ٠٠ ويتحمس لغضبه الاهل الاقربون والابعدون ٠٠ على ان الحب لا يلبث ان يحسم النزاع والمعارضة ٠٠ وقد تصفح الفتاة عمن اساء اليها ، لكنها لاتنسى اساءته قط ٠٠ فان انعدام الذوق والادراك السليم عند اهل زوجها ، يترك اثرا فى نفسها !

الحب وفوارق الطبقات !

◆ وعلى العكس من ذلك ما حدث فى ٢ يونيو سنة ١٩٣٣ ، حين زفت «دوروثى نورث» الى «روبن ديكنز بورتشيير هوكسلى» ٠٠ كانت الفتاة فى الرابعة والعشرين من عمرها ، قضت ثمانى سنوات تعمل خادما ٠٠ وكان الفتى فى الثانية والعشرين من عمره ، حفيد السير هنرى ديكنز ، وحفيد ابن تشارلس ديكنز الاديب والروائى الخالد الذكر ٠٠

ولقد قالت الفتاة لصحيفة «الديلى ميل» فى يوم الزفاف : «ذهبت بالامس لمقابلة ليدى ديكنز ، فكانت غاية فى اللطف ، وقد سألتنى عن المدة التى قضيتها لدى الاسرة التى اخدمها الان ، فلما ذكرت لها انها ست سنوات ،



قالت ان هذه خير تزكية لى كربة بيت .. ولقد اهدتنى ام روبن نسخا من الطبعات الاولى لكتب ديكنز وقالت انها ستحضر الزفاف»

وهكذا اظهرت ليدى ديكنز حكمة ضافية .. ولكن ، كم من آباء تعمدوا التخلف عن حفلات زواج ابناء لهم او بنات ، ثم انتهوا بعد سنوات الى الاعتراف بخطئهم ؟

ذلك لان الفوارق فى الاوضاع الاجتماعية تعمى الانسان عن ان الحب اعظم ما فى الحياة .. وليس ادل على ذلك من القصة التى نرويها فيما يلى،

بعد تغيير اسمى بطليها لانهما لا يزالان على قيد الحياة :

خطبت فتاة ذات نسب وثراء ، الى شاب غنى كان كل همه ان يضم ثروتها الى ثروته .. وكان يسرف فى احترامها ومجاملتها ، ولكن الفتاة لم تستطع ان تقنع نفسها بانه يحبها ..

وذات يوم ، اكتشفت الفتاة ان بستانى دارها يحبها .. وجرؤ الشاب على ان يصارحها بالحب ، فى لهجة صادقة اذهلتها .. وفى سورة الغضب لجرأته ، انذرته بالفصل من خدمتها ، وامهلته اسبوعا ليبحث عن عمل اخر .. فكان جوابه فى اخلاص وصدق : «اننى فقير ، ولكننى افخر باننى لم أكن طامعا فى مالك .. وانما منذ سنوات ابغى ان انالك انت»

ولمحت الفتاة وهى تنصرف ، دموعا تترقرق فى عينيه !

ولم تنم ليلتها .. فقد فطنت لاول مرة الى أن خطيبها الثرى ، لم يعرب لها يوما عن الحب .. بل انها لم تسمع حديث الحب من رجل قبل ذاك اليوم .. ومن ثم فان البستانى ايقظ فى نفسها شيئا لم تدر كنهه ولا كان لها عهد به من قبل !

وراحت تتمثله والدمع فى عينيه .. وترددت فى اذنيها اصداء لهجته الجريئة ، الصادقة ، الحارة .. ومضت تتذكر وجهه وملامحه .. كان وسيما، حاضر اللون ، فارع الطول ، متين البنيان .. وقارنته بخطيبها ، وكلما امعنت فى تذكر اوصافه ، ازدادت ميلا اليه .. ولكن ، أيعقل ان تتزوج من بستانى؟

.. مستحيل ! .. ماذا يقول اهلها ومعارفها وابناء طبقتها ؟.. لسوف يسخرون منها ويزدرونها فتفقد مكانتها واحترامها !

وظلت هكذا حتى الصباح .. فهبطت الى الحديقة ، واذا البستانى امامها وجها لوجه . وكانت اساريره تنطق بانه هو الاخر قضى الليل مسهدا .. وسمعته يقول فى صراحة وبساطة :

« اننى لم اذق للنوم طعما ، لا لاننى سافقد عملى ، وانما لان الرجل اذا احب امرأة حبا صادقا فانه لا يقوى ما عاش على حب سواها .. ولقد ظللت سنوات احبك فى صمت .. فكان تصرفك بالامس صفعة قاسية .. افتظنين اننى اذا تركت عملى ساقوى على ان أسلوك ؟.. اننى احبك .. اتعرفين معنى ذلك ؟»

ووقفت مشدوهة ، فقد اشعرتها لهجته بانه اسمى منها وارفع .. وبدلا من ان تستشيط غضبا ، احست بان كلماته نفذت الى اعماق فؤادها .. ومضى يقول :

ـ لقد جعلنى حبك سارقا ، فقد تسللت الى قاعة الجلوس وسرقت صورتك وقضيت الليل اتأملها .. واقبلها .. ولن اطلب منك سوى ان تدعينى احتفظ بها .. فهل تسمحين ؟

فى ذلك المساء ، وفد الخطيب الغنى الراقى متأخرا عن موعده ، فقال مبتسما : «آسف لتأخرى .. كنت فى النادى ، وعندما هممت بالحضور تشبث رفاقى بى والحوا فى ان العب دور «بلياردو» .. ياللعنة !.. لقد اوسعونى سخرية لحرصى على موعدك .. وراحوا يتندرون بى وبك !.. »

وأحست باشمئزاز .. وآذت سمعها تلك «اللعنة» التى لفظها فى بساطة كالسوقة .. والفت نفسها على الرغم منها تقارن بين لهجته ولهجة البستانى .. وتقارن بين هذا الذى فضل اصدقاءه عليها وسمح لهم بان يسخروا ويتندروا بها .. وبين ذاك البستانى الذى صارحها بحبه فى شبه تقديس .. وبدون ان تدرى ، سمعت نفسها تقول :

ـ آسفة اذ حرمت اصدقاءك منك .. ولكن ، فيم هذا التكلف ؟.. يحسن بك ان تعود اليهم فقد سئمت نفسى التصنع الذى تضطر اليه معى ..

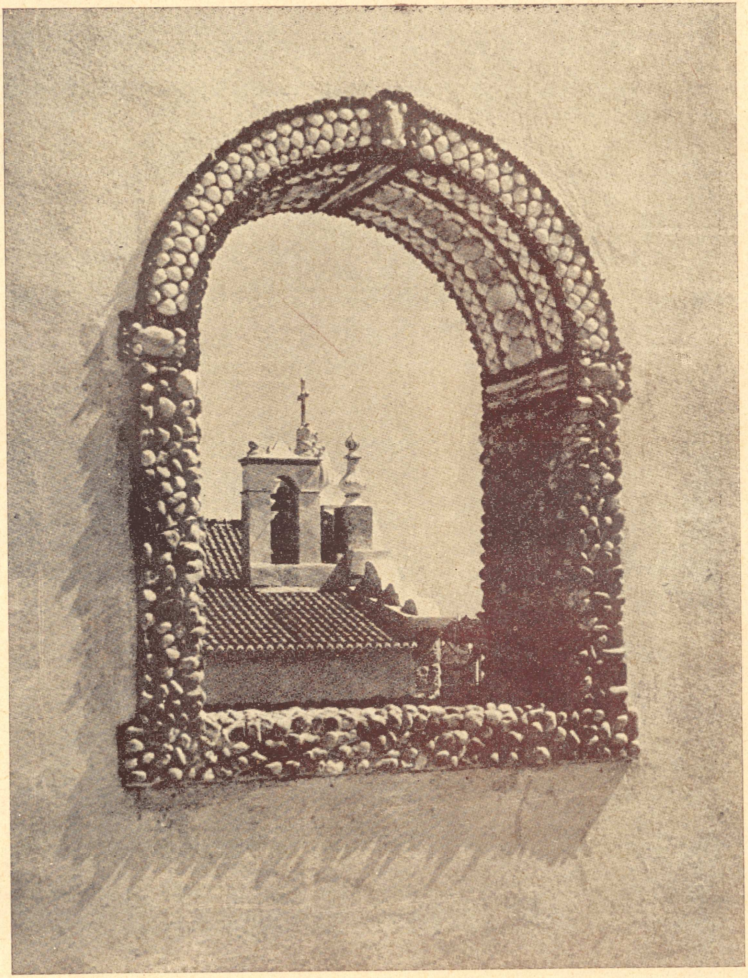
وقفز عن مقعده هاتفا فى لهجة خيل اليها انها تفيض قحة : «ماذا ؟»

فوقفت متعالية وقالت فى أنفة : «لا شىء سوى انه لا داعى للمضى فى التمثيل .. فلن اتزوج منك»

ـ يا الهى !.. لن تتزوجى منى ؟.. فليكن يا انسة .. اننى لن اموت كمدا .. وكم فى البحر من صيد .. اجمل واغنى !



للرجال : أزهار الربيع !
للنساء : أحدث (تسريحة شعر) من باريس !



نافذة من أصداف البحر ! للفنان البرتغالى توماس برايس

واكدت لها عباراته الوقحة انه ما احبها يوما ، وانما كان يطمع فى مالها ٠٠ وهـــو الغنى !

ولن اطيل عليكم ٠٠ فقد انتهى الامر بالفتاة الى الزواج من البستانى ٠٠ وتعرضت لعاصفة هوجاء من الانتقاد ٠٠ حتى الصحف روت نبأ الزواج كأنه فضيحة !٠٠ لكنها لم تعبأ ، بل بادرت الى تصفية ثروتها ، ونزحت مع حبيبها الى كندا ، حيث يعيشان الان فى سعادة مثالية ٠٠

المرأة تشد من أزر الرجل

◆ **ولا نرانا** بحاجة الى ان نبين اهمية معرفة كنه الحب وطبيعته ٠٠ ولكنا نحب هنا ان نؤكد ان الرجل اذا اعجب بفتاة واطمأن الى انها تستطيع ان تكون زوجة صالحة ، صار خليقا به ان يتزوج منها ، ولو لم يكن الحب قد استكمل نضوجه فى قلبه لسبب من الاسباب ٠٠ ولعل مأساة القــاضى «مكاردى» خير عظة وعبرة ٠٠ اذ من افظع الامور ان يعيش المرء وحيدا فى الحياة لا تؤنسه سوى ذكريات فتاة خيل اليه انه قادر على ان يسلوهــا فهجرها ، ثم استبان انه انما كان يحبها حقا !

ذلك لان الانسان فى رحلته عبر بحر الزمن ، معرض للزوابع والانواء ٠٠ ومن الخطر ان يكون وحيدا على ظهر مركب الحياة ، ولكن وجود امرأة الى جانبه يشد من أزره ويحفز كل القوى الكامنة فى كيانه ٠٠ فيحس ان لابد له من ان يعيش لينقذها ، كما تحس هى بان لابد لها من ان تعيش لتشجعه٠٠

ولعل القاضى «مكاردى» لو وجد امرأة الى جواره ما انتحر ٠٠ فان مجرد شعور المرء بانه مسئول عن زوجة واسرة ، ومجرد اشفاقه من ان يدخل الاسى على قلوبهم ، كفيل بان يصده فى كثير من الاحوال عن الانتحار ٠٠

ومصائب الحياة ومتاعبها تتطلب ان يكون الرجل قويا ذا جلد ٠٠ ولكن التجارب اثبتت ان الرجل ــ فى تسعين فى المائة من الحالات ــ يكون اسبق من المرأة الى القنوط ٠٠ وكثيرا ما يرجع ذلك الى انه لا يتبع ما تكشف عنه بصيرة زوجته !٠٠ والبصيرة موهبة الهية لا يستطيع الانسان ان يعرف حقيقة كنهها ــ رغم كثرة ما وضعه علماء النفس من تعريف بها ــ وهــذه الموهبة اقوى ، او أوفر ، عند المرأة منها عند الرجل ٠٠ وكم اغلقت من أبواب فى القلوب ، لان المرأة تؤمن بايحاءات بصيرتها ، ولكنها تعجز عن ان تجد ما تبررها به ، مما يثير الرجل ، اذ ان الرجال يزدهون دائما بما أوتوه من تعقل وتفكــير ٠٠

غير أن من الحكمة حقا أن نحاول أن ندرس تلك القوة الخفية التــى توحى للمرأة بالرأى الصائب وان لم تدر له تعليلا ٠٠ فبصيرة المرأة عبارة عن معرفة او شعور غريزى يمكنها من الحكم على الاحداث والتنبؤ بمــا قد تنجلي عنه ٠٠ ولسنا ندرى اهي غريزة فطرية أم الهام مبــاشر ٠٠ فاذا

تزوجت امرأة أوتيت هذه الموهبة برجل لم يؤتها ، كان لابد من التصادم والخلاف ٠٠ اذ ان الرجل فى هذه الحال يضيق ذرعا بنصيحة المرأة لانها لا تملك لها تبريرا او تعليلا ٠٠

وعجز الرجل عن ان يفهم طبيعة المرأة هو الذى يحيل كثيرا من الازواج الطيبين الى شياطين فى بيوتهم !٠٠ وما اصدق المثل الايطالى القائل : ((اذا زلت المرأة ، فلابد ان الزوج غير برىء)) ٠٠ فلقد تتوارى شخصية العاشق فى الزوج ، بعد الزواج ، فلا يبقى منه غير ((الرئيس)) الشرس القاسى ٠٠ ولكن اذا كانت الزوجة طيبة محبة ، كانت اثمن ما يملك هذا الزوج فى الحياة ، لانها بما وهبت من عقل وفضيلة ، وبصيرة ، تستطيع ان تتغلب حتى على الشـــيطان !

من هذا نرى ان ليس فى الحياة ما يغنى عن الزواج ، فهو منحة الخالق، وهو اساس الحضارة النقية ، ومبعث ارقى السعادات البشرية ٠٠ فان العلاقات غير المشروعة ، والزيجات غير الشرعية ، لا تلبث ان تذهب ادراج رياح الاحداث والشقاق ، اما الزواج الصحيح فيبقى ويصمد ٠٠

أبواب « نصف » مغلقة !

◆ **على ان** ثمة اسبابا خارجة عن طوق الانسان ، قد تضطره الى عدم الــــزواج :

واول هذه الاسباب هى البطالة ٠٠ فهى تغلق ابواب الزواج ، ومن ثم تخلق نتائج خطيرة ، لاسيما فى الناحية الخلقية ٠٠ ولا يعنينا هنا بحث المشكلة ، بقدر ما يعنينا ان نلقى نظرة على الجانب الاخر منها ٠٠ حين يعانى الزوج المتاعب المالية ولديه فى البيت زوجة محبة ٠٠ فان هذه الزوجة سرعان ما تنقلب الى وزير مالية ابرع من انبغ وزراء المالية فى الحكومات ، فتستغنى عن حاجات ، وتستبدل ببعض السلع سلعا ارخص ، وتستعين بالرتق والترقيع عن شراء الجديد ٠٠ وكل عدتها فى هذا ، الحب !٠٠ اذ ان حب المرأة للرجل الذى يحبها ويحب اولادها ، كفيل بان يفعل المعجزات !

وسبب ثان يغلق باب الزواج ـ نصف اغلاق ـ يتمثل فى ((العجز البدنى)) ٠٠ وهو يتخذ اشكالا عدة ، ولكنهـا قلما تظهر او تـذاع ٠٠ ومع ذلـك ، فقل ان سمعنـا ان هذه العقبة تغلبـت يوما على الحب الصادق الخالص ٠٠ ولقـد روى لى قس من اصدقائى يومـا قصة شاب اصيب بسرطان فى الدم ، فلم يتوان عن ان يصارح الفتاة التى كان يحبها وكانت تحبه ، بان لا سبيل لهما الى الزواج ٠٠ واستبد بهما حزن طاغ ٠٠ وفى غمرة هذا الحزن خطر لهما ان يتجها الى هذا القس ، فحاول ان يسرى عنهما وان ينصحهما بقبول ما اشار به الاطباء من عدول عن الزواج ، ولكن الحب اشرق فى دياجير الاسى ، فاذا بالفتاة تهب واقفة لتقول لفتاها :

« هارى ٠٠ اننى امام الله وامام خادمه هذا اقسم ان ابقى على حبك وعرضك وطاعتك ما بقيت على قيد الحياة»

ونكس الفتى رأسه وقد فاض الدمع من عينيه ٠٠ فلم يتمالك القس ان قال : «وانا ابارك زواجكما بكل القوانين الروحية التى خلقها الله ٠٠ فلقد تمت الغلبة للحب !»

وخرجا من حضرة القس زوجين ، فانكبت الفتاة على فتاها تمرضه ، وتعنى به ، حتى مات بعد وقت قصير ٠٠ مات سعيدا ٠٠ افبعد هذا مراء فى أن الحب اقوى من المرض ؟ ٠٠ انه القوة الوحيدة التى تفتح الابواب نصف المغلقة ٠٠ والامثلة التى سردتها عليك عن الحب ليست من وحى العواطف او الخيال الشاعرى ، وانما هى من نتاج احداث الحياة العملية الواقعيـــة !

الحب من النظرة الاولى ٠٠

◆ **يرى** بعض الناس ان الحب يحدث من النظرة الاولى ، فاذا لم يحدث اذ ذاك فلن يحدث على الاطلاق ٠٠ وهذا رأى بعيد عن الصواب ، ينساق اليه أصحابه لعجزهم عن التفريق بين الحب والوهم ٠٠ فان معظم الخطوبات ــ لاسيما بين ابناء الطبقات الراقية ــ انما تنشأ عن «وهم» لا عن عاطفة حقيقيـــة !

وشتان بين الوهم والحب ٠٠ فكثيرا ما يلتقى شاب بفتاة جميلة ، فاتنة ، مرحة ، لعوب ، فسرعان ما يميل اليها ، وينشط خياله فيبرز له معالم حسنها ويضخمها ويضفى عليها ما يزيدها رواء وبريقا ٠٠ ومن ثم يجد الشاب نفسه مجذوبا اليها ، فيروح يلاحقها ، ويبادر الى «خطوبتها» لكى يضمن الا يحرم من رؤية وجهها الجميل ، ومن سماع صوتها العذب ٠٠

ولكم تستغل العاطفة الواهمة اشنع استغلال ٠٠ فهناك نساء يعشن على اصطياد الرجال عن طريق العبث بالعواطف الواهمة لديهم ٠٠ وهناك رجال مولعون باستثارة اوهام النساء ، ولكن مكر النساء اشد واقوى من مكر الرجال ٠٠ ومن ثم فخير نصيحة فى هذا الصدد ان يراقب الانسان نفسه ليحول دون ان يستخفه اى وهم ٠٠ ان الحب الحقيقى لا يخدع ولا يغر ٠٠ ولكن الوهم والخبث والضلال تستطيع ان تحيل الحياة الى جحيم !

وان مشاهداتنا فى الحياة لتوحى بان الدولة التى تفقد احساسهـا بقداسة الزواج ، وتغفل عن حقيقة الحب ، انما تقطع شرايين حياتها الادبية والخلقية ، وتنتهى الى الفساد والانهيار ٠٠ ولقد كان من امجاد الحياة البريطانية فى القرن العشرين ، ذلك الحب الذى ضربت الاسرة المالكة هناك اروع امثاله ٠٠ فقد كانت أية صورة للملك جورج الخامس والملكة مارى

وحولهما اولادهما ، كفيلة بان تثير عواطف المرء وتجعله يحس بالجو العائلى الذى يسوده الحب ٠٠ ومن ثم كانت الاسرة المالكة العقدة التى تربط اجزاء الامبراطورية بعضها الى بعض ٠٠ ولعل اغرب الحقائق التى لمستها هى ان حياة الاسرة المالكة كانت تؤثر على حياة اسرات الشعب ٠٠ حتى تلك التى تسكن احقر الاكواخ ٠٠ ذلك لان للحب اشعاعا ٠٠ او عدوى !

ولقد يجوز ان يحدث الحب من النظرة الاولى ، ولكنك قد لا تدركه او تعرفه او تحس به ٠٠ فاذا ما حدثت المعجزة ، فانها لا تلبث مع الزمن ان تحدث معجزة اخرى ٠٠

هل الحب اعمى ؟

◆ **وانه** لمن الجرأة أن نطعن صحة حكمة قديمة كتلك التى تزعم أن « الحب أعمى » ٠٠ ولكنا فى سبيل اثبات خطئها ، لن نجد دليلا أقوى من أن العواطف التى على النقيض من الحب ، هى العمياء ٠٠

فالكراهية عمياء ، لا تنظر قط الى الشخص الذى تشهر ضده أسلحتها ، وتعجز عن أن تتبين كيف أن البغضاء والانتقاد لا يلبثان أن يرتدا على صاحبهما مضاعفين ٠٠ أجل ، الكراهية عمياء ، لانها تأوى اليها الخداع والخيانة دون أن تفطن ٠٠ ولانها لا ترى يد الغباء وهى تذكى نارها ، ولا هذه النار وهى تشتد حتى تأكلها عن آخرها ، كما تأكل أى نار وقودها !

وتصل الكراهية الى أوجها حين تدب بين شخصين من خدام الله ٠٠ أجل ، فان التنافس بين رجال الدين ينقلب أحيانا الى بغضاء !٠٠ والامناء ، الاشراف ، المخلصون ، هم أكثر الناس عرضة للحسد والحقد ٠٠ ولقد كانت أقسى التهم التى رمى بها المسيح أولئك الذين صلبوه ، هى تلك التى قال فيها : « لقد كرهونى دون سبب ! » ٠٠ ومع ذلك فانه لم يكرههم كما كرهوه ٠٠

وهل أدل على عمى الكراهية من عجزها عن مواجهة النور

وعاطفة عمياء أخرى من أعداء الحب هى : القسوة !٠٠

فلقد اعتبرت في بعض الاجيال كتصرف من تصرفات الذهن

الطبيعية التى تتسم بالقداسة ، والخير ، والكرم ٠٠ ولكنها فى الواقع من بنات الجبن والخسة ٠٠ ومن أعجب الامور أن هذه العاطفة العمياء تعمى الشخص القاسى حتى ليرى فى قسوته عدالة ٠٠ ولقد كان « نيرون » أبعد الناس عن أن يرى نفسه قاسيا ، وهو يتخذ من جثث المسيحيين وقودا للنار ٠٠ أو يدفع بهم الى الاسود فى ملعب روما ليتفرج عليهم الناس ٠٠ وما أبشع القسوة حين ترتدى مسوح الدين ، وتمارس باسم الدين !

وكم من عواطف منكرة أخـرى تعيش فى العمى الى جانب الكراهية والقسوة ٠٠ فلننظر الى الحب بعد ذلك ٠٠ اننا لن نجد له وصفا خيرا من ذاك الذى أورده القديس بولس :

« الحب يحتمل العذاب طويلا ، ويظل رحيما ٠٠

« الحب لا يحسد قط ٠٠ ولا يتصرف فى الخفاء ٠٠ ولا يعمل لنفسه ٠٠ ولا يسعى الى شر »

ولن نجد خيرا من الصورة التى يرسمه عليها الفنانون : جمال ، وفتنة ، ونور ، واشراق ٠٠

بل لن نجد خيرا من الصورة التى تصوره بهـا الحياة : فهو مبعث الهناء فى مرحلة الخطوبة ٠٠ وهو ضوء النفوس فى الزواج ٠٠ وهو البلسم الشافى من جراح الحياة ٠٠ وهـو الملهم الاكبر الذى يفتح العيون على أسمى الحقائق والمعـانى ٠٠

أفبعد ذلك يعقل أن يكون الحب ٠٠ أعمى ؟

الحب يؤثر على كيان الدول والحكومات

◆ **من** القراء من قد يخال أن موضوع هـــذا الكتاب مجرد انشاء فى أسلوب شاعرى عاطفى لا علاقة له بألوان الصراع فى الحياة ٠٠ والذين يفهمونه على هذا المعنى ، لم يستوعبوا حقيقة معانيه ٠٠ فهو قد تناول الحب والخطوبة والزواج ، وهى لحمة تاريخ المرء وسدته ٠٠ بل هى — اذا تأملناها من جميع النواحى — العوامل التى تقرر مصائر الامم ، والحكومات ، والمجتمعات ، والهيئات ٠٠ بله الاسرات !٠٠ **وكم من دولة رأينـاها تتمزق**

لان امرأة استولت على قلب ملكها .. وما عهدنا بكارول ومدام لوبيسكو ببعيد !.. فقد أدى غرامهما الى تحطم قلب الملكة ، والى تحول قلب ابنها عن أبيه ، ثم الى استخفافه بكل شيء .. والى نفور الشعب من ملك استهتر بعرشه من أجل امرأة !

أجل ، فان العبث بالروابط المقدسة لعب بالنار ..

وللرابطة الزوجية قداسة ذات طابع رسمى فى جميع الشرائع .. ولكن الخطوبة رابطة لا تقل عنها قداسة .. ولا تقل عنها فى الوقت ذاته خطورة .. فكم من خطوبة كانت غير موفقة ، من حيث عدم انسجام قلبى صاحبيها ، فخلفت آثارا أتلفت حياتيهما .. فما لم يستوثق الخطيبان من أن الحب الصادق متبادل بينهما ، ينبغى ألا يتسرعا فى اتمام الزواج .. وليحذرا العاطفة الواهمة التى تتمثل لهما على أنها حب ، وما هى سوى افتتان عابر ..

أما اذا كانت الخطوبة موفقة ، فليكن رائد كل من الخطيبين بذل اللطف والحفاوة والمجاملة ما استطاع .. انها لن تكلفه شيئا ، ولكنها قد تنشط الحب الخامل ، أو تجلو العاطفة التى ران عليها الصدأ .. وليوطن الخطيبان نفسيهما على أن يكون الحب حلال كل ما قد يدب بينهما من خلاف ، أو ينشأ من مشكلات .. فكم من خلاف أدى الى فصم خطوبة .. ولكن الخطيبين لا يلبثان أن يعودا الى تلاق اذا كان الحب الصادق قائما ..

العودة بعد الطلاق !

◆ **وان** تشعب البحث واتساع آفاقه ليجعلانا نشط أحيانا عن الموضوع الرئيسى الذى نعالجه .. على أننا حاولنا ما استطعنا فى الفصول السابقة أن ندلل على صحة الرسالة التى بشرنا بها من البداية ، وهى أن « الحب شيء حقيقى خالد »

ولقد أصبحت قضايا الطلاق مادة مألوفة فى الصحف ، فاذا تأملنا التفصيلات التي تنشر عنها ، فاننا لا بد واجدون أن معظم

هذه القضايا يؤدى الى اغلاق أبواب الحب فى قلبى الزوجين ، اذ يروح كل منهما يصور الاخر أمام المحكمة والناس فى أسوأ الصور ٠٠ فاذا نصحهما القاضى فى النهاية بأن يحاولا أن يصلا الى تفاهم وصلح يعيدان المياه الى مجاريها ، عز عليهما ذلك ، وازدادا بالطلاق تشبثا !

وكم من زوجين مطلقين عادا الى الزواج من جديد ، طال وقت الفراق أو قصر !٠٠ ولقد طلعت علينا الصحف من عهد غير بعيد بنبأ زوجين عقدا قرانهما للمرة الثانية بعد طلاق دام خمسا وثلاثين سنة !٠٠ وكان عمر « العريس » فى هذه المرة تسعا وستين سنة ٠٠ والعروس خمسا وستين !٠٠ وقد نشرت الصحف صورهما فاذا هما فى سعادة غامرة ٠٠ فما الذى جرى ؟٠٠ لقد استطاع الحب أن يشق طريقه وأن يتغلب !٠٠ فان الحب الصادق اذا وجد ، قد يتوارى لحظات أمام هجمات الغضب ، ولكنه لا يلبث أن ينشط ويعمل لينتهى ـ مهما طال الزمن ـ الى تحطيم « حيثيات » حكم الطلاق ٠٠ والى محو كل الادلة والقرائن وشهادات الشهود ٠٠ فهو صانع المعجزات ٠٠ ولو انه وجد ما يمكن له من أسباب النمو والترعرع من البداية ، لما وجدت المحاكم عملاء أو روادا !

افتحوا الابواب للحب !

ولن نجد عبارة نختتم بها هذا الكتاب خيرا من أن نقول :

« افتحوا الابواب على مصاريعها للحب ! »

فانه العاطفة التى لا تعرف الفشل والاخفاق ، والتى تقاوم عاديات الزمن وتصمد لعواصف الحياة ٠٠ انه النور الذى يشق الظلمات ، والرفيق الذى يؤنس فى الوحشة ٠٠

افتحوا الابواب على مصاريعها للحب ٠٠ دعوا الحب يدخل ، واذ ذاك ، ستجدون فى كل بيت ـ بل فى كل نفس ـ ملاكا يقدم لكم فى كل يوم وساعة أغصان الزيتون ، بما تحمل من بوادر السلام !

« تم الكتاب »

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة

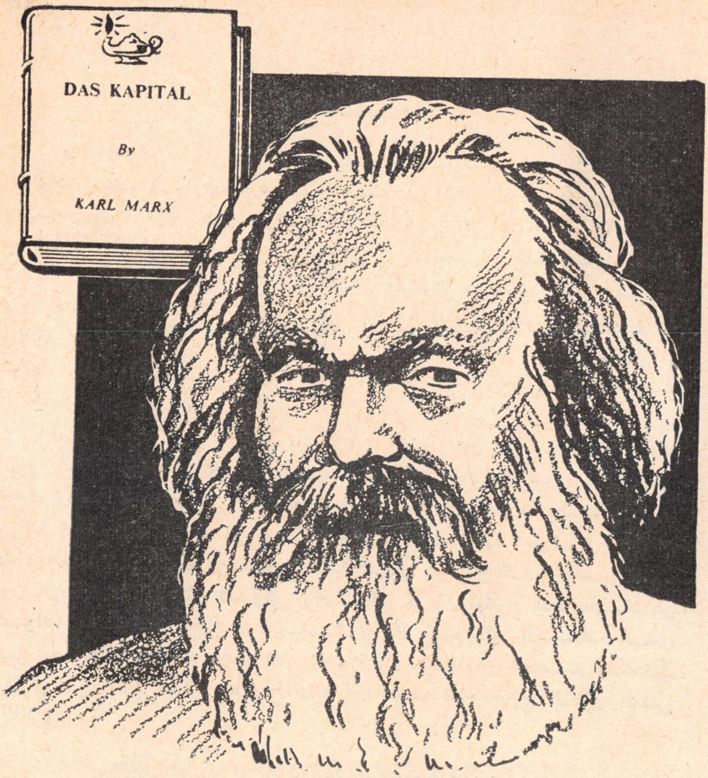
عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية من كتابى ، من روائع الكتب القديمة ،هذه الكتب على التوالى :

« ديكاميرون » : بوكاشيو
« دون كيشوت » : سرفانتس
« الالياذة » : هوميروس
« اميل » : جان جاك روسو
« حى بن يقظان » : ابن طفيل
« روبنسن كروزو » : دانييل ديفو
« غرام الاخوين » : (كاتب فرعونى مجهول)
« يوتوبيا » : توماس مور
« الجمهورية » : أفلاطون
« الكوميديا الالهية » : دانتى
« الاوديسة » : هوميروس
« العالم كما يسير » : فولتير
« غرام مشبوب » : لين يوتانج
« رباعيات عمر الخيام »
عفاف (كوزى سانكتا) : فولتير
رسالة الغفران : المعرى
« نظرية التطور » : داروين

وفيما يلى أقدم لك الكتاب الذى لعلك طالما تساءلت عن محتوياته ، وقد تكون شهرته هيأت لك من أمره اضعاف أضعاف حقيقته .. انه «رأس المال» لكارل ماركس

وفى الاعداد القادمة تقرأ معى فى هذا الباب مزيدا من الكتب العالمية القديمة



كارل ماركس

رأس المال!

الكتاب الذى أحدث أكبر انقلاب فى تاريخ البشرية

هذا الكتاب ..

◆ **اذا** كان « داروين » قد خلد اسمه بالكشف عن نظـرية تطور الكائنات العضوية وارتقائها ، التى لخصنا فى العدد الماضى الكتاب الذى وضعه عنها .. فان «كارل ماركس» قد خلد هو الاخر اسمه بمحاولة الكشف عن نظرية «التطور» فى التاريخ البشرى .. **فأثبت ان هذا التطور يخضع لحقيقة بسيطة واضحة ، هى ان الجنس البشرى يجب ان يأكل ويشرب ، وأن يجد المأوى والكساء ، قبل أى شىء آخر .. قبل ان يهتم بالسياسة والعلم والدين والفن** .. ولقد استطاع بنظرية « فائض القيمة » ـ التى عرضها فى كتاب «رأس المال» ـ ان يبين قانون الحركة الذى يحكم نظام الانتـــاج الرأسمالى والمجتمع الذى نشأ عنه ..

ولقد ارتبط اسم ماركس بالشيوعية ، اذ اعتبر نبيها الاول .. ومع أن رسالة الشيوعية ـ على العكس من الاشتراكية العادلة المنشودة ـ تقوم على العداء والصراع والحرب بين الطبقات ، وهى مبادىء ننكرها بطبعنا وتنكرها أدياننا ، ومع انها لم تسفر عن النتائج التى توقعها لها «ماركس» ، **الا ان هذا يجب ان لا يثنينا عن التعرف اليه كمفكر درس وفكـر واستخلص ، دون ان نابه لما اذا كان قد وفق واصـاب او ان تفكيره قد حـاد عن الصواب .. كما لا يجب ان يثنينـا عن ان نطلع على الكتـاب الـذى هـز به العالم وهو ((رأس المال)) ، كلون من الوان البحـث والتحليل الفكرى .. بغض النظر عما بنى عليه وما هدف اليه خارج النطاق العلمى والفكرى ..**

خلق من « برنارد شو » مفكرا اشتراكيا

◆ **ولعلك** قرأت معى فى كتاب كارنيجى «الخالدون» الذى قدمته لـك فى سلسلة مطبوعات كتابى فى منتصـف مارس الماضى ، قـول كل من « برنارد شو » و « ستالين » ان الكتاب الذى غير مجرى حياة كل منهمـا واتجه بها نحو الايمان بالعدالة الاجتماعية ، هو كتاب (رأس المال) للعالم المفكر «كارل ماركس» .. بل لقد جزم «شو» صراحة بان هذا الكتاب هو الذى خلق منه مفكرا عاش اكثر من خمسين عاما ينادى بالاشتراكية !

فما هو هذا الكتاب .. وماذا يتضمن ؟

الشيوعية ليست « عدوى » !

من حقك كقارىء مثقف ان تتزود بفكرة مبسطة ، قدر الامكان ، عن السفر الضخم الذى احدث كل ذلك التأثير فى تفكير ذينك الرجلين – وان انحرف هذا التفكير عند « ستالين » عن الاتجاه السليم الذى سلكه المفكر الاشتراكى «برنارد شو» .. **الامر الذى يؤيد القول بان الشيوعية ليست « عدوى » سريعة الانتقال – كما جرى بذلك الوهم فى عهود الظلم والظلام البائدة ، وكما أدخل الاستعمار فى روعنا يوم سلط أعوانه من الحكام الرجعيين لقمع خطر الشيوعية فى بلادنا بالحديد والنار ! – وانما هى انفجار « منطقى » ونتيجة طبيعية للظلم الاجتماعى الذى يحيق بالطبقة الكادحة كلما أمعن سادة الاقطاع فى استنزاف دم ابنائها وحرمانهم من لقمة العيش التى تسد الرمق ، كما كانت الحال فى روسيا قبيل نشوب الثورة الشيوعية ، يوم كان الفلاحون لا يجدون ثمن «الملح» الذى يملحون به لقمة الخبز القفار !**

ولعله ليس أبلغ فى تبديد فكرة ان الشيوعية « عدوى » أو وباء سريع الانتقال ، من ان ألمانيا التى ينتمى اليها « كارل ماركس » ما زالت بمنأى عن الشيوعية ، ومثلها فى ذلك انجلترا التى عاش فيها ماركس أكثر حياته ووضع فيها كتابه وتأثر به مفكرها برنارد شو .. فى حين ان روسيا التى لا تربطها بماركس صلة رحم ، وجدت فيها الشيوعية مرتعها الخصب، من فرط المظالم الفاجرة التى عاناها شعبها تحت حكم القياصرة الباغين ..

الاشتراكية صمام الامان للشرق

وانه لمن يمن الطالع حقا أن قيض الله لمصرنا أبطالها البواسل قادة الثورة، الذين قامروا بحياتهم كي يخلصوا شعبها من قياصرتها الباغين ، قبل فوات الاوان !.. **اما «قصيرو النظر» من سادة الاقطاع الذين اشفقوا من ترديد وترحيب الرئيس جمال عبد الناصر فى خطبه الاخيرة بمولد « وعى العمال والفلاحين » ، فقد كان خليقا بهم ان يشكروا له ولزملائه الابرار هذا الاتجاه الاشتراكى الحميد الذى هو بمثابة صمام الامان الوحيد لمصر – ولهم – من المصير الذى انتهى اليه بغى قياصرة روسيا واقطاعييها فى سنة ١٩١٧**

قصة المؤلف



◆ فى صيف سنة ١٨٥١ اعتادت قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى أن تستقبل زائرا غريبا .. كانت لندن ـ بل انجلترا بأسرها ـ منصرفة فى ذلك الصيف الى الحديث الجديد الاول من نوعه ، وهو المعرض الاكبر الذى كان مهرجانا اجتذب الزوار من كافة أرجاء العالم .. ولكن صاحبنا هذا لم يكن يحفل بشىء من ذلك ، بل كان يتردد على قاعة المطالعة يوميا ، وبانتظام ، ليعكف على القراءة وتدوين المذكرات فى استغراق تام ..

كان الزائر غريبا ، من ذلك الصنف من الناس الذين تنطبع صورهم على الذاكرة فى تشبث والحاح .. كان وجهه المستدير محوطا بلحية كثة سوداء ، وجبينه الواسع متوجا بشعر مهوش غير منسق .. وكان يعكف على العمل فى انصراف واستمتاع تنعكس مظاهرهما على ملامحه .. حتى اذا انتهى النهار ، جمع أوراقه وسار الى حى «سوهو» ـ محط الاجانب فى لندن ـ ثم دلف الى شارع «دين ستريت» ، فصعد درجات المنزل رقم ٢٨ ، الى المسكن المتواضع الذى كان يشغله .. والذى كان يتألف من حجرتين .. اثنتين !

وما ان يلج المسكن ، حتى ينجاب العبوس عن وجهه ، وتتلاشى امارات التفكير والانشغال ، وتشرق اساريره ، اذ يرى زوجته وأولاده الستة يستقبلونه فى حفاوة تنم عن حب فياض ..

وكثيرا ما كان هذا الرجل ذو اللحية الكثة السوداء ، يضطر الى ان يغادر بيته ثانية ، ليتسلل الى أقرب مراب ، فيرهن لديه قطعة مما تبقى لدى زوجته من مصوغات ، أو ليجوب أطراف المدينة باحثا عمن يقرضه مبلغا يخفف به عن اولاده غائلة الجوع ..

أما فى الامسيات التى كانت الاسرة لا تشكو فيها جوعا ولا مسبغة ، فقد كان الرجل ينصرف الى مسامرة اسرته ، او لعب الشطرنج مع مربية اولاده ، وهو فى خلال ذلك لا ينسى الاوراق التى سجل فيها خلاصة قراءاته فى قاعة

المطالعة بالمتحف البريطانى .. فقد كانت هذه القراءات أسسا اقام عليها دراسته التى احدثت انقلابا فى ميدان السياسة والاقتصاد ، فى عالمنا الحديث ذلك هو «كارل ماركس» .. اب الشيوعية او نبيها !

ولد فى ٥ مايو سنة ١٨١٨ ، لاب يهودى كان يعمل فى المحاماة فى بلدة «تريف» باقليم «الراين» الالمانى الذى كان اذ ذاك من مقاطعات بروسيا .. ونشأ يهوديا ، حتى اذا بلغ السادسة من عمره ، تحولت اسرته عن دينها واعتنقت المسيحية.. وان لم يبد للدين او للعنصر اثر فى تربية «كارل» ونشأته ، أو هكذا رأى بعض المؤرخين .. وان رأى بعض اخر ان هذا التحول الدينى كان دليلا على استخفاف اسرة «ماركس» بالعقيدة ، وانها ما تحولت عن الدين الا لمصلحة مادية كانت تترتب على وضعها فى المجتمع ، ومن ثم فقد نشأ الفتى فى جو من الاستخفاف بالدين جعله يتجه الى النزعة المادية التى بنى عليها بعد ذلك مبادئه ، منكرا وجود الله !

اتجاهه الى « اللادينية » !

◆ **والتحق** «كارل» فى السابعة عشرة من عمره بجامعة «بون» ، ثم انتقل فى العام التالى الى جامعة «برلين» .. **وكان فى بداية الامر قد اتجه الى دراسة القانون ، غير انه لم يلبث ان تحول الى دراسة الفلسفة والتاريخ .. حتى اذا كانت سنة ١٨٤١ نال الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة «يينا» وعاد الى «بون» ، حيث تأثر بتعاليم «برونو بارو» ومن ذهبوا مذهبه فى انتقاد التوراة .. وكانت هذه الفترة كافية لكشف الاتجاه اللادينى لكارل ماركس جليا ، واضح المعالم ..**

وعقب عودة «ماركس» الى (بون) أنشأ فريق من انصار فلسفة «هيجل» – التى تقوم على التنكر للاديان – صحيفة يومية ذات برنامج سياسى متطرف اسموها «راينيخ تسايتونج» ، فاشترك ماركس فى تحريرها بمقالات لاذعة، لقيت اعجابا دفع بالشاب الى مقعد رئاسة التحرير بعد شهور قلائل !.. واذ ذاك اندفع يهاجم الحكومة البروسية والفلاسفة من زملائه السابقين – امثال «باور» – متهما اياهم بانهم يقتصرون فى نشاطهم الثورى على الابحاث العلمية والسفسطة الكلامية فحسب .. وهكذا ازداد «ماركس» تألقا وشهرة بسبب حملاته الشعواء ، ولكن الظروف لم تمكنه من المضى فيها ، اذ لم يلبث «الرقيب» ان اوقف اصدار الصحيفة !

وبينما كانت الاستعدادات تبذل لاصدار صحيفة ثورية أخرى فى باريس، بعيدا عن سطوة الرقابة البروسية ، انتهز ماركس الفرصة ليحقق حلما قديما كان من أعز أحلامه .. فلقد تبين وهو فى السابعة عشرة من عمره أنه قد شغف حبا بفتاة من زميلات صباه ، هى «جينى فون وستفالين» .. ومع أن

اباها كان يحمل لقب «بارون» ، وكانت اسرتها من اعرق الاسرات البروسية ذات النفوذ ـ حتى لقد غدا اخوها وزيرا للمالية ـ الا ان «كارل» لم يتردد فى ان يكتب لابيها اثناء صيف العام الذى انتقل فيه من جامعة «بون» الى جامعة «برلين» يخطبها .. وراح يكافح فى شدة واستماتة ضد المعارضة القوية التى انبعثت من الاسرة المفرقة فى ارستوقراطيتها . حتى فاز اخيرا بالموافقة على الخطبة ..

ولكن الزواج لم يتم الا بعد تسع سنوات ، و «ماركس» يتهيأ للرحيل الى باريس كى يتولى الصحيفة الجديدة .. ولم ينتقص من سـعادة الزوجين أن انهمك الشاب فى العمـل خلال شهر العسـل ، حتى لقـد كتب « ماركس » الى « أرنولد روج » ـ الذى كان يدير أمر الصحيفة فى باريس ـ قائلا : « أؤكد لك ، دون ماخيال ، اننى مغرق فى الحب من قمة رأسى الى أخمص قدمى بكل اخلاص وصدق .. لقد ظللت وزوجتى نخوض غمرات معارك مرهقة لم يكن لها من داع ، ولم يخض مثلها أناس يبلغون ثلاثة أمثال أعمارنا ، ممن لا ينفكون يتحدثون عن تجاربهم فى الحياة ! »

وفشلت الصحيفة التى كانوا يعدون لها فى باريس ، فتحول «ماركس» بقلمه النارى الى صحيفة ألمانية ثورية كانت تصدر فى العاصمة الفرنسـية تحت اسم « ورفارتس » .. ومرة أخرى ، كانت حمـلاته أعنف من أن تحتملها السلطات البروسية ، فسعت لدى الحكومة الفرنسية حتى قررت هذه ابعاده عن البلاد .. فغادر « ماركس » باريس فى ينـاير ١٨٤٥ الى بروكسـل ..

تلميذه .. وزميله .. ومموله !

◆ غير أنه قبل مبارحة فرنسا ، كان قد وثق عرى الود مع « فريدريك انجيلز » ـ الذى كان يصغره بعامين ـ ووضع بذلك أسس علاقة كان لها أثر باق فى حياته .. فمع ان « انجيلز »كان ابن أحد أصحاب مصـانع القطن الالمانية ، الا أنه كان يعتنق المبادىء المتطرفة.. واشترك « انجيلز » مع « ماركس » فى ذلك العام ـ ١٨٤٤ ـ فى تأليف رسالة حملا فيهـا على « برونو باور » وفلسفته ، ووضعا بها أساس علاقة استمرت الى نهـاية العمر ، اذ غدا « انجيلز » أقرب تلاميذ « ماركس » اليه ، وأكثرهم عونا له ، ودعاية لمبادئه .. وصار فوق كل هذا مصدرا يمده بالمـال ..

وما لبث « انجيلز » أن لحق بماركس فى بروكسـل فى الربيع ، وبقى معه حتى الصيف ، حين اصطحبه الى انجلترا . فكانت هذه أولى زيارات ماركس للبلاد التى اخرج فيها أهم انتاجه ، والتى لفظ فيها آخر أنفاسه.. وهناك قدم انجيلز استاذه الى مؤسسى أول هيئة شيوعية عرفها الرجل

الذى اعتبره الشيوعيون فيما بعد نبيا لهم .. تلك هى : « الاتحاد التعليمى للعمال الالمان » .. فسرعان ما نشط ماركس لانشاء لجنة للمراسلات ، عهد اليها بالاتصال بالهيئات الشيوعية فى مختلف البلدان للتقريب بينها ، كما أوفد انجيلز الى باريس لانشاء لجنة أخرى .. ولم تحن سنة ١٨٤٧ حتى تسنى عقد مؤتمر فى لندن ، حضره مندوبون عن المؤسسات الشيوعية فى بروكسل وباريس ولندن .

وتمخض المؤتمر عن تأليف «الرابطة الشيوعية الدولية» ، وعن اصدار «البيان الشيوعى » الذى كان أول نفثة من سموم ماركس لاشاعة البغضاء بين الطبقات، اذ بدأه بنظريته التى عزا فيها تطورات تاريخ المجتمع البشرى الى الصراع بين الطبقات ، فقال : «ان الطبقات هى النتائج الاجتماعية لاساليب الانتاج الاقتصادى، وان الحرب بين الطبقات فى أوج احتدامها ليست سوى انعكاس اجتماعى لتغيرات ضرورية فى أساليب الانتاج .. فنمو الطبقة الرأسمالية أدى الى ضرورة قيام عكسها ، أى طبقة العمال الكادحين .. وكلما ازدادت القوة الاقتصادية للطبقة الرأسمالية ، اخذ عدد افرادها فى الانخفاض ، وازداد ضغطها على طبقة العمال وغبنها لها باطراد ، ولكنها فى سياق ذلك تتيح لهذه الطبقة حياة ونظاما اجتماعيين مشتركين ، مما يمكن افرادها من أن يحددوا لانفسهم هدفا مشتركا ،حتى يبلغ بهم الامر الى أن يضيقوا باحتمال الظروف التى تفرضها حاجات الرأسمالية ، فيعملوا على قلب نظام الدولة الرأسمالية ، وينشئوا دولة جديدة تعنى بحاجات القوى الجديدة فى الانتاج .. »

وذكر ماركس وانجيلز ـ وقد اشتركا فى صوغ « البيان » ـ ان الشيوعيين هم القسم الواعى من الطبقة العاملة ،وان أهدافهم لا يمكن أن تتحقق الا بقلب النظام الاجتماعى السائد بالعنف !

ونشط الشيوعيون للعمل ، فاذا بالثورات تتوالى فى سنة ١٨٤٨ ، وكان ماركس قد عاد الى بروكسل فطرد منها .. ومن ثم ذهب الى باريس ، ثم غادرها الى وطنه ، فلم يحن شهر ابريل من ذلك العام حتى كان قد استقر فى « كولونى » رئيسا لتحرير « راينيخ تسايتونج » الجديدة .. غير أن الثورات لم تلبث أن خمدت .. ولم ينقض عام حتى اضطر ماركس الى الفرار من ألمانيا ، فلما لاذ بباريس طرد منها ، وانتهى به المطاف الى الاستقرار مع أسرته في لندن ، حيث عاشوا سنين عدة فى شظف وفقر مدقع ، لا يخفف من وطأة بؤسهم سوى الحب المتبادل بينهم .. ولكن الحب لم يكفل لصاحب الدار التى كانوا يسكنونها فى « كامبرويل » أجره ، فطردهم منها ، واذ ذاك استأجروا ذلك المسكن المتواضع ذي الغرفتين في شارع « دين ستريت » بحى « سوهو » ..

كبرياء ٠٠ أم نكران جميل ؟

◆ **واخذت** الامراض تتحــالف على الاسرة ، فانتزعت منها ثلاثة من الاولاد ٠٠ وهاجمت الجمرات جسم ماركس ٠٠ وحطم الفقر جلد زوجته ، وملا نفسها سخيمة ، حتى لقد أوشكت أن تتنكر له ٠٠

ولم يكن له من معين فى تلك الفترة ســوى كرم ((انجيلز)) ، الـذى كان قد عاد للعمل فى ((مانشستر)) ، فراح يرســل اليه النقود تباعا ، ويسدد عنه ديونه ٠٠ وكان ((ماركس)) يتلقى هــذا العون فى برود وكأنه يبرم صفقة تجارية ، فقد كان كبرياؤه أطغى من أن يمكنه من أبداء عرفانه للجميــل !

ولم تقتصر مساعدات ((انجيلز)) لاستاذه عند هذا الحد ، بل انه كان يكتب المقالات لصحيفة ((نيويورك تريبيون)) حين تعاقدت مع ماركس على أن يكتب لها ٠٠ وكان يترجم مقالات ماركس من الالمانية الى الانجليزية قبل أن يتقن الرجل هذه اللغة ٠٠

وتفرغ ماركس خلال هذه الفترة لابحاثه وكتاباته السياسية والاقتصــادية والصحفية وللمشاجرات مع المهاجرين من مواطنيه ، فقد كان يكره كل من لا يتقبل مبادئه ويؤمن بها ، حتى لقد أقدم على نقل مركز الرابطــة الشيوعية الى كولونى — ليتفادى أن يطغى عليها نفوذ منــافس له — فكان فى ذلك انهيارها ٠٠

ولكن تفرغه لهذه الشئون لم يمنعه من أن يعد كتابا عن ((رأس المال عامة)) ، نشر الجزء الاول منه فى سنة ١٨٥٩ بعنوان ((بحث تحليلى فى الاقتصــاد السياسى)) ، تحدث فيه عن ((القيمة)) وطبيعتها ، ولكن هذا المؤلف كان غير ذلك الذى خلد اسمه ٠٠ ونعنى به كتاب ((رأس المال)) الذى أصدر الجزء الاول منه فى سنة ١٨٥٩ ، وتولى انجيلز كتابة واصدار الجزءين الاخرين بعد وفاة ماركس ٠٠ وقد أفرد ماركس هذا الكتاب لوصف رأس المال وتحليله واستنباط القوانين التى تنتجه وتسيطر على نموه ثم تنتهى به الى ما تنبأ به ماركس من انهيــار ٠٠ ولقد نادى ماركس فى ((البحث التحليلى)) بأن قيمة أية سلعة تقاس بكميــة ما أنفق فى انتاجها من عمل ، متجــاهلا بذلك فضل عنــاصر الانتاج كوحدة يكمل بعضها بعضا ٠٠ ثم كشف فى ((رأس المال)) عن نظرية ((فائض القيمة)) ، أى الفرق فى القيمة الزمنية بين كمية العمل اللازمة لتمكين العمل من أن يستمر فى العيش والعمل والانتــاج ، وكمية العمل الذى يبذله فعلا ٠٠ **أى اننا اذا افترضنا أن عاملا يعمل ثمانى ساعات في اليوم ، مقابل خمسة شلنات ، في حين أنه ينتج فى أربع ســاعات**

ما يساوى خمسة شلنات ، فان قيمة العمل الذى يبذله فى الساعات الاربع الباقية تعطينا « فائض القيمة »

وبينما اعترف ماركس بأن ليس للعامل حق فيما أنتج ، نراه يقـول ان العمال ككتلة ، لهم حق اشتراكى فى جميع انتاجهم التعاونى ٠٠ ويبشر بوجوب أقدام الطبقة العاملة على تحطيم صرح الرأسمالية بالعنف والقوة ٠٠ ليخلف ذلك ديكتاتورية يقيمها العمال فترة من الزمن ، ريثما يستكمل التطـور حلقاته ، فتتحول الديكتاتورية الى حكومة لاطبقية ، أى لا تنتمى الى طبقـة ما ، اذ لا تعود فى المجتمع طبقات ٠٠ ثم لا تلبث الحكومة ـ بالمعنى المعروف ـ أن تتلاشى ، اذ أن المجتمع لا يعـود بحاجة اليها بعد أن أصبح طبقة واحدة ، فلا مجال فيه للتنازع على السيطرة والسيادة ٠٠ ومن ثم تذوى الحكومات والجيوش والسجون فى العالم !

هذه هى « الماركسية » التى اتخذها لينين وثوار روسيا دستورا ـ بل انجيـلا لهم ـ فأقاموا على أساسها النظام الشيوعى الذى تحكم به روسيا ٠٠ واذا التجربة تأتى على عكس ما تنبأ ماركس ، فان « الديكتاتورية » لم تتحول الا الى طغيان ، اذ أخذ زعماء الحزب الشيوعى يتنافسـون ويقضى بعضهم على بعض ٠٠ وكانت أبرز مظاهر هـذا الصراع ، اقدام ستالين على التخلص من تروتسكى ، كما كان أحدثها تخلص مالينكوف من بريا ٠٠

« ماركس » الداعية المتطرف ٠٠ و « ماركس » الانسان !

◆ على اننا ندع ماركس ، الفيلسوف والسياسى المتطرف المؤمن بالعنف والثورة ، لنكشف بعض الحجب عن ماركس الانسان ٠٠

لعل من أعجب متناقضات الحيـاة ، ان الرجل الذى بث بذور الكراهية ـ بدلا من التعاون ـ بين الطبقات ، كان يضم بين جنبيه قلبـا كبيرا ٠٠ فكان اذا ما انتزع نفسه من بين كتبه ومذكراته ، وخلص الى أسرته ، أو جلس ـ فى أمسيات الاحاد ـ الى أصدقائه ، انقلب الى رفيق لطيف ، حاضر الفكاهة مرح ، تنبعث ضحكاته من اعماق صدره ٠٠

وكان زوجا مثاليا ٠٠ كانت زوجته شريكة حيـاته ، وزميلته ، بكل ما فى هذا من معان ٠٠ فلقد تعارفا منذ الطفولة ، وكبرا معا ، وخاضا سويا المعـارك ضد « ارستقراطية » آل « فون ويستفالين » ، حتى تسنى لهما أن يتزوجا !

وكانت « جينى » ذكية ، مرهفة الشعور ٠٠ وقد عرف عن ماركس أنه كان أكثر الناس تقديرا لذكائها ، حتى لقد كان يعـرض عليها كل ما يكتب ، ويستجيب لما تبدى من نقد ، ويعتبر بكل ما تبدى من ارشاد ، ثم يدفـع اليها بما كتب بعد كل تنقيح ، فتنسخه بنفسها قبل ارساله الى المطبعـة ٠٠٠

وكان جمال « جينى » مبعث بهجة وزهو لدى « ماركس » .. كما كان لطفها ووفاؤها خير ما شجعه على احتمال محن الفقر والعوز .. وكان يحبها حبا مفرطا ، حتى انها حين اصيبت بالمرض الذى أودى بها ، هلع قلبه ، واضطربت اعصابه ، وأخذ يقضى الليل مسهدا مهموما ، وكف عن النزهة فى الهواء الطلق ـ وكان الاطباء قد فرضوها عليه ـ فتداعت قواه ، رغم أنه كان متين الجسم ، قوى البنيان .. مما ساعد بعد وفاة زوجته على اصابته بالالتهاب الرئوى الذى قضى عليه !

زوج مثالى .. ووالد مثالى !

◆ **وكما** كان ماركس زوجا مثاليا ، كان أبا مثاليا .. رقيقا ، مسرف الحنان .. وكانت البنات الثلاث اللاتى بقين على قيد الحياة من أولاده ، يحببنه حبا فياضا .. وكان فى علاقته بهن بعيدا عن سلطان الابوة ، حتى ليؤثر عنه أنه لم يوجه لاحداهن أمرا ، بل كان يكتفى بالسؤال والرجاء !.. وكن يغتبطن بالاستجابة لاية رغبة يبديها .. كن ينظرن اليه كصديق وزميل ، حتى انهن لم يعتدن أن ينادينه بلقب الابوة ، وانما كن يسمينه «مور» ، وهو اقتضاب «مراكشى» ، لسمرة بشرته وسواد لحيته الكثة !.. ولعل من المتناقضات الطريفة ، أن أعضاء « الرابطة الشيوعية » كانوا يلقبونه وهو فى الثلاثين من عمره بـ « الاب ماركس » ..

وكان يقضى الساعات فى اللعب مع بناته ، فكان يقفز ويحبو وكأنه من مستواهن فى العمر .. وفى أيام الاحاد كان يصحبهن الى الريف ، فتقضى الاسرة نهارها فى أحد المشارب الريفية ، مكتفية بالجبن والخبز والبيرة غداء .. وكان يخفف عن بناته عناء المشى الى الريف ، بقصص وحكايات كثيرا ما كان يختلقها من وحى الخيال .. فقد كان شاعريا بفطرته ، حتى لقد كانت أولى محاولاته الفكرية أشعارا !.. ولقد وعد بناته مرة أن يكتب لهن مسرحية ، ولكنه لم يبر بوعده .. ولو أنه فعل لكانت من أطرف المسرحيات اذا قيست بانتاجه الاقتصادى والسياسى الجاف ..

وكان اذا تعب من العمل ، استلقى على اريكة جلدية الى جوار المكتب، فى حوالى الساعة التاسعة صباحا ، فيتناول قدحا من القهوة ويطلع على الصحف ، ثم يعكف على الكتابة حتى الثانية صباحا ، لا يبرح مكتبه طيلة هذه المدة الا سويعات قلائل يتناول فيها الطعام مع أسرته ، ويداعب خلالها بنـاته ..

وكان اذا تعب من العمل ، استلقى على أريكة جلدية الى جوار المكتب ، وتحول يقرأ احدى الروايات أو بعض الاشعار .. ومن الغريب أنه كان يقرأ ثلاث روايات فى الفترة الواحدة بالتناوب .. وكان أحب الروائيين

والقصصيين لديه : دوماس الاب ، وسير وولتر سكوت ، وسرفانتس ، وبلزاك .. كما كان أحب الشعراء اليه : شكسبير ودانتى وبيرنز .. وهاينى وجوته ..

وكان يقرأ بأهم اللغات الاوربية بطلاقة .. فقد كان مشغوفا بدراسة اللغات الاجنبية ، ويرى فى كل منها « سلاحا فى معركة الحياة » .. حتى لقد أقبل وهو فى الخمسين من عمره على تعلم اللغة الروسية ، فأحب من كتاب الروس : بوشكين وجوجول ..

كذلك كان يلجأ الى المسائل الرياضية - لاسيما الجبرية منها - كوسيلة من وسائل الترويح عن فكره كلما ارهقه العمل ..

وكان ماركس - الى ذلك - دقيقا فى بحث وتمحيص كل ما يكتب ، حريصا على أن يتم عمله .. فكان يقول أثناء كتابة أصول مؤلفه « رأس المال » انه يؤثر ان تحرق هذه الاصول عن ان يترك الكتاب ولما يكتمل !

وكان دائم القراءة والاطلاع ، يرى فى الكتب أدوات للفكر .. وكان يقول : « انها عبيدى ، ويجب أن تؤدى ما أريد ! » .. وكان لا يفتأ يرجع الى الكتب التى قرأها ، والى الفقرات التى وضع تحتها خطوطا ، ليجدد معالمها فى ذاكرته ..

وفى الساعة الثالثة الا الربع من بعد ظهر ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ ، كف العقل الجبار عن العمل .. كان أهله واعوانه قد تركوه فى مقعد مريح .. ومع أنهم لم يغيبوا عنه أكثر من دقيقتين ، الا انهم وجدوه حين عادوا اليه مستغرقا فى نوم عميق .. نوم أبدى !

والآن ، تعال معى نستعرض كتابه الضخم «رأس المال» :

١ - منشأ الانتاج الرأسمالى

◆ **اذا** تعمقنا فى النظر الى الامور ، وجب ألا نعتبر النقود والسلع فى حد ذاتها من رؤوس الاموال ، لا هى ولا غيرها من وسائل الانتاج واشباع الحاجات .. غير ان من الممكن تحويلها كلها الى رؤوس أموال ، اذا فصلنا بين العمال وملكية وسائل الانتاج ، ثم بينهم وبين الحصول على فوائد وأرباح من العمل الذى يبذلونه .. بمعنى ألا يمتلك العمال وسائل الانتاج .. مما يفسح المجال لقيام النظام الرأسمالى

ولقد جاء البنيان الاقتصادى للمجتمع الرأسـمالى نتيجة تطور البنيان الاقتصادى للمجتمع الاقطاعى ٠٠ فان انحلال هذا الاخير أطلق عناصر الاول ٠٠ فالمنتج الاول ـ أو المباشر ـ وهو العامل ، لم يجد أمامه بعد أن تحرر من العبودية التى كانت تربطه الى الارض ، سوى أن يتصرف فى شـخصه فحسب ٠٠ كما كان لا بد له ـ لكى يستطيع أن يبيع عمله أينما وجد سوقا ـ من أن يتهرب من النقابات الطائفية التى كانت تقوم فى العصور الوسطى ، ومن قواعدها ولوائحها ، ومن كثير من القيود المشابهة التى كانت تكبل العمل ٠٠

بيد أن هؤلاء المتحررين لم يكونوا ـ من ناحية أخرى ـ سوى تجار جعلوا من عملهم سلعة ، بعد أن حرموا مما كانوا يملكون من وسائل الانتاج ، ومن الضمانات التى كان النظام الاقطاعى القديم يوفرها لوجودهم ومعاشهم ٠٠ وقد سجل تاريخ هـذا التطور الذى جردهم من الملكية ، بحروف من الدم والنار ٠٠

وكان أن حل الرأسماليون الصناعيون ـ وهم السـادة الجدد ـ محل سادة النقابات الطائفية التى كانت تسيطر على الحرف ٠٠ ليس هذا فحسب ، بل انهم خلفوا السادة الاقطاعيين الذين كانوا يمتلكون موارد الثروة ٠٠ ومع أن هؤلاء الرأسماليين قد سجلوا بتطورهم انتصارا كبيرا ، الا أنهم لم يبلغوا مكانتهم الا بوسائل مشينة ٠٠ اذ أن استعباد العمال ، كان بداية للتطور الذى أدى الى قيام طبقة العمال ونشوء طبقة الرأسماليين ٠٠ وبقى الاستعباد وان تغير شكله ، اذ تحول الاسـتغلال الاقطاعى الى استغلال رأسمالى ٠٠

وقد كان مولد العهد الرأسمالى فى القرن السـادس عشر ٠٠ وتمثلت عملية التحول في انتزاع جمـوع من البشر من وسائل معاشهم ، ليزج بهم فى سوق العمل بوصفهم كادحين

أحرارا .. وكانت العملية كلها تقوم على تجريد الفلاحين من الارض .. وقد تباين تاريخ حدوثها بتباين الدول ، ولكنه لم يتخذ شكلا علميا منظما الا فى انجلترا ..

انتزاع الاراضى من الفلاحين

◆ **ولقد** جرى التمهيد للانقلاب الذى أفضى الى النظام الرأسمالى للانتاج، فى القرن السادس عشر، بتحطيم عصابات الاقطاعيين الذين أجاد السير جيمس ستيوارت وصفهم حين قال انهم « كانوا يملأون البيوت والقلاع فى كل مكان دون ما جدوى أو نفع » .. فلقد قضت الحروب الشعواء التى دارت بين الاقطاعيين على طبقة النبلاء القديمة ، وانجلت عن طبقة جديدة كان المال لديها هو مصدر كل قوة وسلطان ، فعملت على تحويل الاراضى الزراعية الى مزارع لتربية الاغنام ، مما دعا الى تجريد صغار المزارعين من الاراضى التى كانوا يعيشون عليها ويزرعونها وان لم يكونوا يمتلكونها .. الامر الذى هدد البلاد بالخراب .. وهكذا دفعت الطبقة العاملة فى انجلترا دفعا من عصرها الذهبى الى عصرها الحديدى ، فى غير ماتدرج أو مرحلة انتقال ..

ولقد زاد من الاقبال على انتزاع الاراضى من الفلاحين ، ازدياد مصانع الصوف بسرعة مطردة ، وارتفاع أسعار الصوف فى انجلترا تبعا لذلك . وأدى هذا التطور فى أواخر عهد الملكة اليزابيث الى ازدياد المعدمين والمتسولين ، وظهور طبقة من الفقراء لا يكادون يعيشون عيش الكفاف .. كما ظهرت طبقة الاعيان الريفيين ، وهم ملاك الاراضى الزراعية ، حتى فاق عددهم عدد المزارعين ، وكانوا العضد الاكبر لجيش كرومويل فى أواخر القرن السابع عشر .. على أن هؤلاء لم يلبثوا أن تلاشوا فى منتصف القرن الثامن عشر ، ولم يلبث أن اختفى بعدهم بوقت غير طويل ، نظام الاراضى المشاعة التى كان يعمل عليها العمال الزراعيون ..

ولقد كان نظام الارض المشاعة قائما فى عهد الاقطاع ، وكان ينتفع منها صغار الملاك والمستأجرون ٠٠ ولكن كبار الاقطاعيين والرأسماليين ـ الذين كانوا يستغلون العمال الزراعيين ـ انتهزوا فرصة تنصيب « وليم اورانج » عـلى عرش انجلترا فنهبوا الاراضى المشاعة وكونوا التفاتيش والضياع الكبيرة٠٠ ولم يكن هذا النهب يستند الى قانون ، أما فى القرن الثامن عشر فقد استخدم القانون أداة للاستيلاء على ما بقى من الاراضى المشاعة وتحويلها الى ملكيات خاصة ٠٠ وقد أدى هـذا الى تحويل عدد كبير من السكان الذين كانوا يعيشون على الزراعة، الى كادحين أو عمال يشتغلون فى الصناعة ٠٠

٢ ـ نشــأة الرأسمـالى الصناعى

◆ **ولكن** : من أين جاء الرأسماليون فى الاصل ؟٠٠ لقد تكون الرأسمالى الزراعى تدريجيا وببطء ، أولا كعـامل ، ثم كمؤاجر يقتسم الانتاج مع مالك الارض ، ثم كمزارع حقيقى يعمل على ازدياد رأس ماله باستخدام عمال بالاجر ليزيد من زراعته وانتاجها ، ويدفع جزءا من الربح الى صاحب الارض كايجار ٠٠ **ولقد أدى الانقلاب الزراعى الذى حدث فى القرن السادس عشر الى اغتناء المالك الصغير نسبيا ، والى افقارالعامة من أهالى الريف ٠٠ اذ أدى الارتفاع المستمر فى أسعار السلع الى تضخم رأس مال المالك الصغير فاغتنى على حساب كل من المالك الكبير ـ السيد الاقطاعى ـ والعامل الزراعى على السواء** ٠٠ لذلك لم يكن من عجب فى أن تقوم فى انجلترا فى نهاية القرن السادس عشر طبقة من الرأسماليين الزراعيين الذين اقتنوا الثروات وكانوا أغنياء بالنسبة لظروف ذلك العهد

مما ســـبق ، نرى أن السكان الذين كانوا يعيشون على الزراعة ، تحولوا الى عناصر مادية لرأس مال متغير ٠٠ فقـد

اضطر الفلاحون - بعد أن حرموا من الارض ومن العمل فى الزراعة - الى أن يبيعوا قيمتهم - أى قيمة جهودهم - مقابل أجور يتقاضونها من سادتهم الجدد ، وهم الرأسماليون الصناعيون ٠٠ ومن ثم تحولوا الى عنصر من عناصر رأس المال الثابت ٠٠

ومن الامثلة على ذلك ما جرى لفلاحى « ويستفاليا » فى عهد فردريك الثانى ٠٠ فقد كانوا كلهم يجيدون غزل الكتان ٠٠ وعندما أقصوا عن الارض التى كانوا عليها بوضع اليد أيام الاقطاع ، تحول بعضهم الى عمال فى المزارع الكبرى ٠٠ وفى الوقت ذاته ، قامت مصانع كبيرة للغزل والنسيج ، فعمل فيها أولئك الذين « تحرروا » من الارض ٠٠ ومع ان الكتان الذى كانوا يغزلونه فى هذه المصانع هو عين الكتان الذى كانوا يغزلونه فى حياتهم الريفية ، الا أنه أصبح يؤلف جزءا من رأس المال الثابت للسيد صاحب المصنع ٠٠

وبعد أن كان الكتان يغزل - بكميات كبيرة - بأيدى الاسرات التى كانت تعنى بتنميته ، غدا مركزا فى منشأة يملكها رأسمالى واحد ، يستخدم سواه ليغزلوا وينسجوا لحسابه٠ **ولقد كانت المغازل والمناسج - أو الانوال - مبعثرة من قبل فى كافة أرجاء الريف ، فغدت - فى الوضع الجديد - محشودة فى مبان للعمل ٠٠ وهكذا تحولت الآلات والمواد الاولية من وسائل للكسب المستقل للنساجين الفلاحين ، الى وسائل للسيطرة عليهم وابتزاز عملهم مقابل أجور بخسة لا تتناسب وما يدره هذا العمل ٠٠**

ولم تسر نشأة الرأسمالى الصناعى بالتدرج الذى تمت به نشأة الرأسمالى الزراعى ، اذ ضاعف من سرعتها اشتداد الطلب التجارى من الاسواق العالمية التى تفتحت أمام السلع ،

وأمكن الوصول اليها بسبب الاكتشافات التى كانت قد جرت فى أواخر القرن الخامس عشر ٠٠ وقد ظهر منـــذ العصور الوسطى نوعان جليان من رأس المال ٠٠ أحدهما رأس مال المرابى ، والآخر رأس مال التاجر ٠٠

ولقد ظلت النقود التى تؤلف رأس مال المشتغلين بالاقراض (المرابين) وتلك التى تكون رأس مال المشتغلين بالتجارة ، محجوزة عن التحول الى الصناعة زمنا بسبب النفوذ الاقطاعى فى الريف ، ونفوذ النقابات الطائفية فى المدن ٠٠ ولكن هـذه الحوائل زالت باختفاء المجتمع الاقطاعى ، وبتجريد الفلاحين من الاراضى وحرمان جـزء من سكان الريف من التملك ٠٠ وكذلك قامت المصانع الجديدة فى بقاع بعيدة عن نفوذ المجالس البلدية القديمة والنقابات الطائفية ٠ ومن ثم قام فى انجلترا صراع مرير اضطلعت به المدن متضامنة معا ، ضـد المراكز الصناعية الجديدة ٠٠

وقد عملت الدولة بنفوذها وسلطانها على التعجيل بهـذا الانتقال ، وهى تعمل على تركيز وتنظيم قوى المجتمع ٠٠

نشأة المصارف الكبرى

◆ **وكانت** الخطوة الثانية من خطوات تطورالعهد الرأسمالى، هى ظهور بورصة الاوراق المالية وقيام المصارف الكبيرة التى كانت فى البداية مجرد جماعات تضم بعض المجازفين الذين اعتادوا أن يقرضوا الحكومات لمساعدتها فى مقابل الحصول على بعض امتيـازات ٠٠ **ولقد بدأ بنك انجلترا أعماله ـ حين أنشىء فى سنة ١٦٨٤ ـ باقراض الحكومة بفائدة قدرها ثمانية فى المائة ٠٠ وفى الوقت ذاته ، خول البرلمان له حق سك نقود من نفس رأس المال ـ الذىأقرضه للحكومة ـ وذلك باقراضه للناس ثانية فى صورة أوراق نقدية ٠٠**

وبمضى الزمن ، أصبح بنك انجلترا الدائن الدائم للأمة ٠ ومن هنا نشأ القرض الاهلى ، كما نشأ نظام للائتمان الدولى ،

الذى نرى من أهم معالمه اقراض احدى الدول مبالغ ضخمة من المال لدولة أخرى ٠٠ ومن ثم فان معظم رأس المال الذى نراه فى أمريكا اليوم دون أن يعرف أصله ، انما كان من أموال انجلترا التى وفرتها من عرق أبنائها ودمائهم ٠

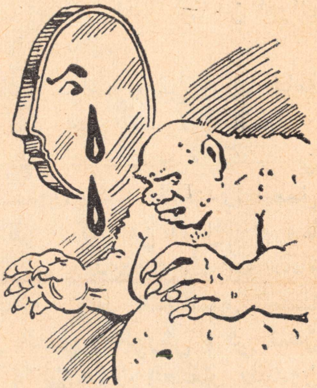
ولقد تميزت الرأسمالية الصناعية ـ سواء فى أوربا عامة أو فى انجلترا خاصة ـ بقسط كبير من القسوة الفظيعة ٠ فان مولد الصناعة الحديثة استوجب التضحية بكثير من الابرياء ، وكان الصبية الفقراء يحشدون حشدا ليجندوا للعمل فى المصانع فى نوبات تشغل الشطر الاكبر من الليل ٠٠ ولما كان عدد سكان « لانكشير » صغيرا ، فقد دعت الحاجة فجأة الى أفواج ضخمة من الايدى العاملة ٠٠ **وعلى هذا سيق اليها آلاف من الصغار اليافعين من دور العمل (الورش) فى لندن وبرمنجهام وغيرهما من المدن ٠٠ وكان هؤلاء الصغار يجلدون بالسياط ، ويعذبون ، ويكبلون بالاغلال ٠٠ وأدى هذا الاستغلال الى تدفق الارباح على رجال الصناعة ، الى أن تقدم سير روبرت بيل فى النهاية بالقانون الخاص بحماية الاطفال والاحداث ٠٠**

وبنمو الانتاج الرأسمالى ـ خلال فترة التصنيع ـ فقد الضمير العام الاوربى كل حياء وحرج ، وأخذت الامم تتباهى بالمخازى التى كانت تعزز نموها الرأسمالى ٠٠ واستحلت ليفربول تجارة الرقيق ٠٠ ولم يكن استعباد الاطفال فى المصانع الاوربية ليختلف عن نظام الرق الخالص الذى قضى على الزنوج بأن يحملوا الى أمريكا ٠٠

واذا كان المال ـ كما قال (مارى أوجييه) ـ « يأتى الى الدنيا وعلى أحد خديه بقعة من الدم » ، فان رأس المال يأتى والدم والاقذار تنزف من مسامه وخلاياه !

٣ — السلع والتبادل ورأس المال

◆ **السلعة** هى شىء — خارج نطاق كياننا وأنفسنا — له من الخواص ما يمكنه من اشباع الرغبات البشرية ·· ولما كانت منفعة السلعة هى قدرتها على اشباع رغبة من الرغبات، لذلك فانها تقدر فى الواقع بقيمة المنفعة المستمدة ·· وقيم منفعة السلع هى أساس جميع الثروات ، اذ تتمثل فيها القيم الاستبدالية للسلع ·· أى قيمة كل سلعة بالنسبة للسلع الاخرى ·· والعامل الاساسى فى تحديد قيمة أية سلعة انما يتحدد بالعمل — أو الجهد — والوقت الاجتماعيين اللذين يستلزمهما انتاجها ··



المال ·· ورأس المال !

وقد تكون لسلعة ما قيمة منفعة ، ومع ذلك لا تكون لها قيمة استبدالية ، لان منفعتها لا تترتب على عمل بذل فيها ، كالهواء ·· كذلك اذا لم يكن للشىء نفع ، كان العمل الذى بذل فيه غير ذى جدوى ، لان العمل لا يكون مجديا الا اذا خلق للشىء قيمة ·· فالمعطف مثلا قد يساوى ضعف ثمن عشر ياردات من قماش التيل ، لان الجهد — أى العمل — الذى بذل فيه يعادل ضعف ذاك الذى بذل فى القماش ·· وهكذا ، لما كان كل عمل عبارة عن بذل جهد بشرى بشكل معين ، ولغرض محدد ، فان العمل النافع هو الذى ينتج قيمة منفعة ·· أى اشباع رغبة ··

اصل استعمال النقود

◆ **وكل** امرىء يعرف أن للسلع قيما تقاس بمقياس عام مشترك بينها جميعا ، ويختلف اختلافا ملحوظا عن قيم منفعتها بالنسبة لاشكال الاشباع المتباينة ٠٠ وأقصد بهذا القياس المشترك : النقود

ذلك أن كل صاحب سلعة يود أن يستبدل بها من السلع الاخرى ما يكون ذا منفعة تشبع بعض رغباته ٠٠ ومن ثم فلكل سلعة أخرى - فى نظره - درجة بالنسبة لسلعته ٠ فكان لا بد لتحديد القيمة من رمز يعترف به المجتمع كله ، فلا تقاس قيمة السلعة الى سلعة أخرى ، بنسبة قيمة منفعتها الى قيمة منفعة الاخرى ، اذ أن تقدير قيمة المنفعة يختلف من شخص الى آخر ٠٠ ومن ثم اتخذت النقود رمزا اجتماعيا لتقدير القيمة ٠ فهى بهذا مقياس عام للقيمة ، وعلى هذا الاساس يكتسب الذهب - وهو سلعة - قيمته كنقود ٠٠ ولكن النقود فى حد ذاتها ليست سعرا ، وانما هى - كمقياس للقيمة ومعدل للسعر - ذات وظيفتين واضحتين : فهى مقياس للقيمة من حيث انها القياس الذى يعترف به المجتمع للعمل البشرى ٠٠ وهى معدل للسعر من حيث انها تمثل وزنا معينا من المعدن الذى تسك منه ٠٠

وبعبارة أخرى ان النقود كمقياس للقيمة تستخدم فى تحويل قيم جميع السلع المتباينة الى أسعار أو كميات وهمية من الذهب ٠٠ وكمعدل للسعر ، تستخدم فى قياس هذه الكميات من الذهب ٠

ولقد كانت قيمة القطعة النقدية فيما مضى تمثل قيمة وزنها من المعدن الذى سكت منه ، ذهبا كان أو فضة ٠٠ ثم اصطلح على أن تمثل سعرا معينا بصرف النظر عن الوزن ٠٠ وبعد أن كان الانجليزي يقول ان « ربع الطن من القمح يساوي أوقية

من الذهب » أصبح يقول انه يساوى « ثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلنا وعشرة بنسات ونصف البنس » !

وعلى هذا ، أصبحت السلع تقدر بأسعارها ، وأصبحت النقود تمثل القيمة الحسابية ٠٠ أى تمثل رمزا هو السعر الذى حددته لها سلطات الاصدار بصرف النظر عن وزن المعدن وقيمته ٠٠

أجر العامل يختلف باختلاف حرفته

◆ **كذلك** أصبح كل عامل يحدد ما يدره عليه عمله بالنقود التى يتقاضاها من صاحب العمل ٠٠ وتبعا لاختلاف الحرف ، تختلف المبالغ التى يتقاضونها أجورا عن مدة معينة من العمل أو عن اتمام قطعة معينة من العمل ٠٠ على أنهم جميعا يتفقون رغم هذا التباين ، على أن الاجر هو المبلغ النقدى الذى يدفعه الرأسمالى فى مقابل فترة معينة من العمل ، أو فى مقابل بذل جهد لانتاج شىء معين ٠٠

فالرأسمالى ـ كما نرى ـ يبتاع عمل العمال ـ أى جهدهم ـ بالنقود ٠٠ ولكن هذا من حيث المظهر فحسب ، فاذا تأملنا الواقع رأينا الامر يختلف ٠٠ ذلك لان المبلغ الذى ابتاع به الرأسمالى جهد العامل ـ ولنقل انه اثنان من الماركات ـ كان يمكنه أن يبتاع به رطلين من السكر ، أو كمية معينة من سلعة أخرى ٠٠ فالماركان اللذان يبتاعان رطلين من السكر هما سعر الرطلين ٠٠ أما الماركان اللذان يدفعهما صاحب رأس المـــال للعامل فيبتاع بهما اثنتى عشرة ساعة من استعمال قوة العامل، فهما ثمن اثنتى عشرة ساعة من الجهد ٠٠ ومن هـذا نرى أن العمل سلعة كالسكر أو كأية سلعة أخرى٠٠ واذاكان السكر يوزن بالميزان ، فان العمل يحسب بالساعة !

ومن ناحية أخرى، نجد أن الماركين اللذين يتقاضاهما العامل في مقابل العمل اثنتي عشرة ساعة ، يمثلان السلع الاخرى التي

يمكن شراؤها بهما ·· فكأن الماركين يمثلان معدل استبدال جهد العامل بالسلع الاخرى ·· أى القيمة الاستبدالية للعمل ·· وكأن الاجر هو سعر العمل ··

وبالتالى ، فان صاحب رأس المال يبتاع العمل كما يبتاع المواد الاولية والادوات ·· ولكن هذه السلعة التى نطلق عليها العمل ، هى جهد العامل ونشاطه الحيوى ·· فالعامل يبيع نشاطه الحيوى لشخص آخر كى يوفر لنفسه الوسائل اللازمة لاشباع حاجاته ·· أى أنه يشتغل ليعيش ·· ويبذل الجهد – أى العمل – لينتج لنفسه الاجر ·· والاجر – كما رأينا – هو سعر سلعة معينة هى : العمل ·· وهى – كالسلع الاخرى – تخضع لنفس القوانين التى تحدد سعر كل سلعة ··

نفقات انتاج السلعة تحدد سعرها

◆ **وسعر** السلعة يتحدد بالمنافسة بين المشترين والبائعين ·· وهذه تنطوى على منافسة بين البائعين بعضهم وبعض تتجه بالسعر الى الانخفاض ·· ومنافسة بين المشترين بعضهم وبعض تتجه بالسعر الى الارتفاع ·· **والمنافسة بين المشترين والبائعين تتوقف على مدى المنافسة بين أفراد كل فريق ·· فاذا كانت شديدة بين البائعين ، أقبل كل منهم على عرض أكبر قدر لديه من السلع ، فيزيد العرض ، ويفوز الجانب الذى يتجه بالسعر الى الانخفاض ·· واذا كانت شديدة بين المشترين ، زاد الطلب ، وفاز الجانب الذى يتجه بالسعر الى الارتفاع ·· والذى يحدد العلاقة بين العرض والطلب هو نفقات الانتاج ، فهى المقياس الذى يقيس به البائع ربحه ·· أى أن سعر السلعة يتحدد بنفقات انتاجها ··**

والعمل – كغيره من السلع – يتحدد سعره بالعلاقة بين العرض والطلب ·· وبالتالى ، بنفقات انتاجه ، أى بساعات العمل أو مدته التى يدفع فى مقابلها الاجر لانتاج الجهد ··

فما هى نفقات الانتاج فى هذه الحالة ؟٠٠ انها النفقات اللازمة لاعداد العامل كعامل ، والاحتفاظ به عاملا ٠٠ فكلما قلت مدة التدريب التي يحتاج اليها أى عمل ، قلت نفقات انتاج العامل، وبالتالى قل أجره ٠٠ وفى فروع الصناعة التى لا تكاد تستلزم مدة تعليم وتدريب ، والتى يكفى فيها توفر وجود العامل ، فان نفقات انتاج العامل تقتصر على نفقات السلع اللازمة لاستبقائه حيا ، قادرا على العمل ٠٠ أى أن سعر عمله — فى هذه الحالة — يتحدد بسعر الوسائل اللازمة لاشباع حاجاته !

وهناك اعتبار آخر ٠٠ ذلك أن صاحب المصنع يحسب استهلاك آلاته وأدوات الانتاج عنده ، ويضيف معدل الاستهلاك السنوى الى سعر سلعه ليستطيع أن يستبدل بالآلات عند استهلاكها نهائيا آلات جديدة ٠٠ وكذلك الحال بالنسبة للعمل ، فلا بد له من أن يحسب — حين يحسب نفقات انتاج جهد العمل — نفقات تجديد عنصر العمال ، أى تزايد الطبقة العاملة ، ليمكن استبدال العمال الذين يقعدون عن العمل ٠٠ فكأن سعر نفقات بقاء العامل على قيد الحياة وتكاثره هى التى تؤلف الاجر ٠ وهذا ما يسمى بالحد الادنى للاجور ٠٠

العامل والرأسمالى : ماذا يجنى كلاهما من الآخر ؟

◆ **وهكذا** نجد أن رأس المال يتألف من المواد الخام ، والادوات ، والعمل ، وجميع الوسائل التى تتخذ لانتاج خامات جديدة وأدوات جديدة وأيد عاملة جديدة ووسائل جديدة لتعويضها ٠٠ وكل هذه الاجزاء المكمل بعضها بعضا من انتاج العمل ٠٠ انها عمل متراكم — أو مركب — يستخدم وسيلة لانتاج جديد هو بدوره رأس مال ٠٠

ومن ثم ، فان العامل يتلقى فى مقابل جهده وسائل لاشباع حاجاته ، غير أن صاحب رأس المال يتلقى فى مقابل اشباع حاجة العامل ، نشاطا انتاجيا من العامل٠٠ يتلقى قوة لا يعوض

بها العامل ـ لصاحب العمل ـ ما يستهلكه فحسب ، وانما يضفى على العمل المتراكم ـ أو المجمع ـ قيمة اعظم مما كان له من قبل .. وهذه القوة ذاتها تصبح ـ بالنسبة للعامل ـ طاقة مفقودة .. طاقة ضائعة !

وأول شرط لارباء رأس المال وزيادته ، هو أنه لا بد لصاحب رأس المال من أن يبيع سلعه ويحول الجزء الاكبر من النقود التى يحصل عليها من وراء البيع الى رأس مال .. أى الى مواد خام ، وأدوات وعمل ..

وهكذا فان عملية الانتاج تعمل دون انقطاع على تحويل الثروة المادية الى رأس مال ، فالى وسائل لخلق مزيد من الثروة ومن رأس المال .. أى مزيد من المصلحة لصاحب رأس المال .. أما بالنسبة للعامل ، فالامر على العكس كما ذكرنا ، فهو حين يهجر العملية لا يكون أكثر منه حين بدأها .. أى أنه لا يكون قد زاد شيئا .. فهو مورد الثروة ، ولكنه لا يملك أضأل وسيلة لاعداد الثروة لنفسه .. وبمعنى آخر ، فان انتاج العامل يتحول بلا انقطاع لا الى سلع فقط ، وانما الى رأس مال أيضا .. الى وسائل للاشباع يمكن بها شراء العامل ، والى وسائل للانتاج تتحكم فى المنتج الاصلى .. الذى هو العامل !

مصلحة صاحب رأس المال ومصلحة العامل .. واحدة !

◆ **وبالمثل** نرى أن صاحب رأس المال ينتج باستمرار القوة العاملة ، اذ أن الاجر الذى يدفعه للعامل يستبدله بقوة عاملة تنتج من ناحيتها أكثر من الاجر الذى دفع .. فالطبقة العاملة ـ من وجهة نظر المجتمع ـ تتبع رأس المال كما تتبعه أدوات العمل العادية .. وليس استقلالها سوى مظهر تحتفظ به بالتقلب بين أصحاب الاعمال ، وبالصيغة القانونية للعقد بين العامل وصاحب العمل .. وقد كان رأس المال من قبل يبسط حقوق ملكيته على العامل الحر بموجب القانون ..

ومن ثم نرى أن ازدياد رأس المال يتبعه ويقترن به ازدياد الطبقة العاملة ..

ويستخلص « البورجوازيون » من ذلك أن مصلحة صاحب رأس المال ومصلحة العامل واحدة .. وهذا صحيح! .. فالعامل يهلك اذا لم يستخدمه رأس المال .. ورأس المال يهلك اذا لم يستغل القوة العاملة ، ولكى يستغلها لا بد له من شرائها .. وكلما أعد رأس المـــال للانتاج بسرعة أكبـــر ، ازداد رأس المال المنتج ، فيزداد بذلك انتعاش الصناعة ، ويزداد تبعـــا لذلك ثراء أصحاب الاموال ، فتزداد – أيضا – حاجتهم للعمال، ومن ثم يرتفع السعر الذى يبيع به العامل نفسه !

ولكن ، ما هو نمو رأس المال المنتج ؟.. انه نمو العمـــل المتراكم – الممثل فى شكل سلع – على العمل الحى .. نمو تسلط أصحاب الاموال على الطبقة العاملة .. اذ أن العمـــل المستأجر اذا ما أنتج الثروة للآخرين الذين يسيطرون عليه ، فان المال يتدفق عليه من الرأسماليين ، على شريطة أن يجعل – أى العمل – نفسه من جديد جزءا من رأس المال .. فيزيد من سرعة نموه ..

ونخلص من هذا الى أن الانتاج الرأسمالى ينتج ويستبقى ، باستمرار الحال التى تمكنه من استغلال العامل .. والعبودية الاقتصادية التى يدين بها العامل تستتر وراء تقلبه فى الخدمة بين أصحاب الاعمال ، وهى فى الوقت ذاته تنشأ عنها .. أى أن الانتاج الرأسمالى – فى سيره المستمر المتصل – لا ينتج سلعا فحسب ، ولا فائض قيمة فحسب ، وانما ينتج أيضـــا ويجدد العلاقة الرأسمالية التى تقوم بين صاحب رأس المـــال والعامل الاجير .. **فرأس المال لازم للعامل الاجير ، والعامل لازم لرأس المال ، كل منهما شرط لازم لوجود الآخر ، وكل منهما يعمل على وجود الآخر بالتبادل ..**

غير أن العلاقة بين نصيب كل منهما ونصيب الآخر علاقة تقوم على التناسب العكسى ·· فكلما زاد نصيب رأس المال - أى الربح - قل نصيب العمل ، أى الاجر ·· اذ أن الازدياد السريع لرأس المال معناه الازدياد السريع للربح ، وهذا ما لا يتأتى الا اذا انخفض سعر العمل ، اى الاجر ··

ولقد يرتفع الاجر ، فى حالة النمو السريع لرأس المال ، ولكن ربح رأس المال يرتفع بسرعة أكبر بكثير ·· ومع أن المركز المادى للعامل يتحسن نتيجة ارتفاع الاجر ، الا أن نفقة مركزه الاجتماعى تقضى على هذا التحسن ·· فتزداد الهوة الاجتماعية التى تفصل العامل عن صاحب رأس المال ··

ولبيان ذلك نقول انه اذا ازداد رأس المال المنتج فى المجتمع « البورجوازى » عموما ، فان العمل المتراكم - أى المدخر فى شكل سلع - يزداد ويتنوع ، ومن ثم تزداد رؤوس الاموال عددا وحجما ·· أى تزداد رؤوس الاموال ويزداد عدد أصحاب رؤوس الاموال ·· وهذا يؤدى الى زيادة المنافسة بينهم ·· وفى الوقت ذاته ، فان ازدياد حجم رؤوس الاموال يوفرالاسباب لاستخدام مزيد من الايدى العاملة لتعزيز التنافس الصناعى··

التنافس بين أصحاب رؤوس الاموال ··

◆ **ولا يستطيع** صاحب رأس المال أن يزيح غريمه من ميدان المنافسة الا اذا باع سلعه بثمن أرخص ، ولكى يفعل ذلك دون أن يوقع بنفسه خسارة ، لا بد له من أن ينتج بنفقات أقل من ذى قبل ، أى برفع القوة الانتاجية للعامل·· ولكن هذه القوة ازدادت فعلا بالتوسع فى تقسيم العمل ، أى بالتوسع فى ادخال الآلات وادخال التحسينات عليها باستمرار ·· **وكلما ازدادت الايدى العاملة التى يقسم بينها العمل ، ازداد التوسع فى ادخال الآلات ، وانخفضت نفقات الانتاج تبعا لذلك ·· أى ازدادت ثمرة العمل !·· ومن ثم ، ازداد استغلال أصحاب رؤوس الاموال للعمال ··**

والتنافس فى هذا المضمار لا يلبث أن يعود بأصحاب رؤوس الاموال المتنافسين الى أوضاعهم السابقة بعضهم بالنسبة لبعض ‥ ولكنهم يمضون فى المنافسة ، فيضطرون الى بيع سلعهم بسعر يقل عن سعرها القديم – قبل زيادة الايدى العاملة والآلات – ومن ثم تبدأ العملية من جديد ‥ من توسع فى تقسيم العمل ، وادخال الآلات ، واستغلال الآلات والعمل ‥ وهكذا دواليك ‥ فلا يكسب صاحب رأس المال بالتمادى سوى الاضطرار الى زيادة الانتاج فى فترة العمل الواحدة ، وزيادة الايدى العاملة والآلات ، ثم بالتالى زيادة العرض ، وتخفيض السعر‥ وبمعنى آخر، لا يؤدى بتماديه الا الى زيادة تعذر استعمال رأس ماله استعمالا مربحا ‥

‥ والتنافس بين العمـال !

◆ **ومن** الناحية الاخرى – ناحية العمل – يؤدى تقسيم العمل الى أن يقوم العامل الواحد بعمل خمسة أو عشرة أو عشرين ، فتتضاعف المنافسة لذلك بين العمال بنفس النسبة‥ **والعمال لا يتنافسون بتخفيض أسعار عملهم فحسب ، وانما بأن يعمل الواحد منهم عمل أكبر عدد ممكن من العمال ‥ وهكذا ‥ وفى الوقت ذاته يلاحظ انه كلما ازداد تقسيم العمل، ازدادت بساطته، فتقل قيمة العامل المدرب، المتخصص، ويسهل عمله ، ويزداد بذلك عدد منافسيه ‥ وهكذا ، أيضا ‥ والنتيجة فى الحالين انخفاض الاجر !**

والآلات بدورها تساهم فى الميدان ، فانها تساعد على الاستغناء عن كثير من العمال المهرة المدربين ، والقائهم فى الطرقات ‥ وباشتداد المعركة ، يتنافس أصحاب الاموال فى فصل العمال ‥

من هـذا كله نرى أن نمو رأس مال المجتمع يتأثر بنمو رؤوس الاموال الفردية ، اذ أن تضخم رأس المال يصحبه نمو

عدد أصحاب رؤوس الاموال الفردية بدرجة قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ٠٠ وتمتاز هذه الظاهرة بأمرين :

أولا : ان التركز المطرد لوسائل الانتاج فى المجتمع فى أيدى أصحاب رؤوس الاموال الفردية ، مقيد بدرجـة ازدياد ثروة المجتمع ، على افتراض بقاء العوامل الاخرى على حالها ٠٠

وثانيا : ان الجزء من رأس مال المجتمع المستخدم فى ناحية معينة من نواحى الانتاج ، يكون مقسما بين كثير من أصحاب رؤوس الاموال فينافس كل منهم الآخر كمنتج مستقل للسلع ٠٠

ثم ان ازدياد كل رأس مال عامل ، لا يلبث أن يتعـرقل بسبب نشوء رؤوس أموال جديدة ، وانقسام رؤوس الاموال القديمة ٠٠

فازدياد رؤوس الاموال وتضخمها يتجلى - كما راينا - فى ازدياد تركز وسائل الانتاج والسيطرة على العمل - من ناحية - وتنافر كثير من الافراد - بسبب التنافس - من ناحية أخرى ٠

غرام الخليفة

◆ خرجت «حبابة» مع الخليفة «يزيد بن عبد الملك» الى ناحية الاردن يتنزهان ٠ ورماها «يزيد» بحبة عنب ، دخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت ٠٠ فتركها ثلاثة ايام لم يدفنها وهو ينظر اليها ويبكى !

ولما اذن بدفنها خرج يشيع جنازتها ومعه اخوه «مسلمـة» ليسليه ويعزيه ٠ ولم يطق يزيد الركوب من فرط جزعه ، كما عجز عن السير ، فأمر مسلمة فصلى عليها نيابة عنه - (وقيل بل منعه مسلمة عن السير لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه عليه)

وبقى يزيد بعد موت حبابة سبعة ايام لا يظهر للناس ، وقد أشار عليه مسلمة بذلك اذ خاف ان يبدو من الخليفة ما يسفهه ٠٠ لكن يزيدا لم يلبث ان مات بعد ايام ، ودفن الى جانب حبابة !

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قرات معى فى الاعداد السابقة ، القصص الآتية على التوالى :

لوكريشيا بورجيا
« تيبريوس » قيصر روما
عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)
فضيحة «كارولين» ملكة انجلترا
الحب أقوى من الموت !
امرأة وملك (مدام دى مانتنون)
نيرون : الطاغية السفاح
ليدى هاملتون
مارى انطوانيت
مصرع القيصرية فى روسيا
ملكة الغواية: بولين بونابرت
مأساة ملك بافاريا
الحب والجريمة تحت سماء فلورنسا
غرام الاميرة اليزابيث تيودور

واليوم أقدم اليك فيما يلى هـذه القصة الحديثة التى تجمع بين صدق الحقائق التاريخية فى حقبة هامة من عصر الثورة الفرنسية ونابليون ، وبين خيال مؤلفتها الروائية المعاصرة « آن مارى سولنكو » .

وفى الاعداد القادمة تقرا معى باذن الله المزيد من قصص التاريخ الشائقة ومآسيه الكبرى ..

الخطيبة التى هجرها نابليـون

◆ فى تاريخ البطل نابليون برنابرت صفحة مطوية لم يكد يرد ذكرها فى كتب التاريخ ـ على كثرة ما كتب عن هـذا القائد العظيم ـ برغم ما كان لها من بالغ الاثر فى حيـاته الخاصة ، بل والعـامة ، طيـلة مدة تألق نجمه وتوالى أمجاده الحربية والسياسية !٠٠ هذه الصفحة المطوية هى قصة « ديزيريه كلارى » ، المرأة التى أحبهـا نابليـون فى شبابه الباكر ، ثم خطبها ٠٠ لكنه لم يلبث أن هجرها فجأة حين لاحت فى أفق حيـاته غريمتها الارملة « جوزفين بوهارنيه» ، بكل ما انطوت عليه شخصيتها من خبرة وتجربة ونضوج ٠٠

على أن الظروف شاءت أن تربط مستقبل ديزيريه بعد ذلك بمستقبل نابليون بأكثر من رباط ، طوال حياته ٠ وفى هذا الكتاب الحـديث الذى صدر منذ اسابيع ، تروى مؤلفته صورا خاطفة من تاريخ المرأة التى نحاها القدر فى آخر لحظـة عن أن تشارك البطل الخالد أمجاده ، لكنه أتاح لها أن تتابع حياته عن كثب ٠٠ وقد صـاغت المؤلفة كتابها فى صورة «يوميات» على لسان بطلتها ٠

- ١ -

مرسيليا فى مطلع السنة الثانية من تقويم الثورة اى نهاية مارس سنة ١٧٩٤ ، بالتقويم الذى كانـت أمى تألفـه !

◆ **تستطيع** المرأة اذا أوتيت جسما متناسق النمو أن تحصل من الرجل على كل ما تشاء ٠ ولذلك قررت أن أدس فى صدر ثوبى غدا أربعة مناديل ، لأبدو كبيرة ـ فان أحدا سـواى لا يشعر بأننى كبرت فعلا !٠٠ لقد بلغت الرابعة عشرة من عمرى فى نوفمبر الماضى ، فأهدانى أبى هذه الكراسة الانيقة لأدون فيها يومياتى ٠٠ وكانت آخر هداياه لى ، اذ لم يلبث أن توفى بعد شهرين ، تاركا وراءه سمعة طيبة ٠٠ اذ كان من تجار الحرير فى مرسيليا ، وكان يدعى « فرانسوا كلارى »

ولقد تساءلت فى حيرة حين رأيت الكراسة على مكتبى بين الهدايا : « ماذا أكتب فيها ؟ » ٠٠ فابتسم أبى وطبع عـلى

جبينى قبلة وقال : « أكتبى سيرة المواطنة برناردين أوجينى ديزيريه كلارى » •• وغام وجهه فجأة بالاسى

ولسوف أبدأ الليلة فى كتابة سيرتى ، فان الانفعال يؤرقنى •• ومبعث هذا الانفعال اننى سأصحب « سوزان » ـ زوجة أخى ـ فى الغد لمقابلة النائب « آلبيت » لنرجوه أن يسعى لاطلاق سراح أخى « اتيين » الذى اعتقله البوليس فجأة منذ يومين •• وهو أمر كثير الحدوث فى هذه الايام ، اذ لم تنقض بعد خمس سنوات على قيام الثورة •• ومن حسن الحظ أن ليس بين أقاربنا مترفون من الارستقراطيين ، فلقد شق أبى طريقه فى الحياة بنفسه ، فعمل على تنمية التجارة الصغيرة التى تركها له جدى ، حتى أصبحت من أكبر شركات الحرير فى مرسيليا •• وتولى أخى « اتيين » ادارتها بعد موت أبى ، فلما اعتقل ، قالت لى « مارى » ـ الطاهية التى كانت مربية لى ـ « سمعت ان النائب « آلبيت » قادم للمدينة يا أوجينى ، فعلى زوجة أخيك أن تسعى لمقابلته كى يفرج عن زوجها »

وكان الوجوم يخيم علينا خلال العشاء ، اذ كان حول المائدة مقعدان شاغران : مقعد أبى ـ الى جوار أمى ـ ومقعد « اتيين » المجاور لسوزان •• واستغرقت أفكر فى « آلبيت » فلم أفطن الى أصابعى وهى تكور الخبز ، مما أغضب أختى « جولى » التى تكبرنى بأربع سنوات ، والتى تحب دائما أن تقوم بدور الام لى ، فتثيرنى •• وفجأة ، أمسكت عن تكوير الخبز وقلت : « ان آلبيت فى المدينة •• انه النائب اليعقوبى الذى يمثل مرسيليا، ولسوف يمكث هنا اسبوعا، يتردد خلاله على دار المحافظة يوميا •• لذلك يجب أن تذهب « سوزان » غدا لرؤيته فتسأله عن سبب اعتقال « اتيين » وتؤكد له أن فى الامر سوء فهم »

وتطلعت الى سوزان باكية وقالت انه قد يرفض مقابلتها •• واقترحت أمى أن يتولى محامى الاسرة لقاءه ، فغاظنى هذا التقاعس من أمى وقلت : « بل يجب أن نقابل آلبيت بأنفسنا

٠٠ وسوزان هي الجديرة بأن تذهب اليه بوصفها زوجة اتيين
٠٠ فاذاكنت خائفة يا سوزان، فسأذهب معك وسأسأل «آلبيت» أن يطلق سراح أخي »

وصعدت عقب العشاء لارى ما اذا كان « بيرسن » قد عاد لاعلمه اللغة الفرنسية ٠٠ يا له من شاب مفرط الطول ، ككل السويديين ٠٠ فهو سويدى ، يملك أبوه شركة فى ستوكهلم على علاقة ما بشركتنا ، ومن ثم جاء « بيرسن » الى مارسيليا ليقضى عاما فى الشركة ليلم بتجارة الحرير ٠٠

ووجدت « بيرسن » قد عاد ٠٠ وبادرنى قائلا : « أحب أن أقول يا آنسة اننى عائد لبلادى عما قريب ، فقد أتممت العام ٠٠ وهم بحاجة لى فى ستوكهلم » ٠٠ وأخذ يصف لى «ستوكهلم» وأنا فى شغل عن كلامه بالتفكير فى الغد ، وفى المناديل التى سأدسها فى صدر ثوبى !

وفجأة ، أقبلت أختى « جولى » تؤنبنى على أننى لم آو الى فراشى بعد ٠٠ وظلت فى تقريعها لى حتى بعد أن اندسست فى فراشى ، فراحت تقول ان ليس من اللائق بفتاة أن تجالس شابا الى مثل هذا الوقت ٠٠ ولم أجد مهربا سوى أن أطفىء الشمعة وأتظاهر بالنوم وأنا أفكر فى أن خير ما يخلصنى من عنت « جولى » ، هو أن يسوق لها القدر زوجا !

ولم يواتنى النوم ، اذ انتقل فكرى الى الغد ٠٠ وذكرت أن « مارى » الطاهية صحبتنى خلسة منذ عامين لارى دارالمحافظة، فلما عدت الى البيت ، رحت أبكى تأثرا للذين رأيتهم يعدمون ، حتى أحاطنى أبى بذراعيه وقال لى : « لقد عانى الشعب الفرنسى مئات السنين ، فانبثق من العذاب لهبان : لهب العدالة ، ولهب الحقد ٠٠ ولسوف يغرق لهب الحقد فى سيل الدماء ٠٠ أما اللهب الآخر يا ابنتى الصغيرة ٠٠ أما اللهب القدسى ، فلن يخمد البتة مرة أخرى »

الكورسيكى الشاب !

◆ **لست** أدرى كيف أسجل ما حدث لكثرته ٠٠ على أن أهم شىء ، أن اتيين قد استرد حريته ٠٠ وثانيا ، التقيت بشاب ذى وجه عجيب ، واسم من أكثر الاسماء استعصاء على النطق ٠٠ انه يدعى « بونوبا » ، أو لعله « بونابرت » ٠٠ وثالثا ان أهلى يحرقون الارم فى الطابق الارضى ويرموننى بأننى عار على الاسرة ، وقد زجوا بى فى فراشى قسرا ، وراحوا يحتفلون بعودة « اتيين » ، مع اننى صاحبة الفكرة التى أدت الى عودته !

كنت قد ذهبت مع « سوزان » الى دار المحافظة ، فاذا حشد من الناس عند المدخل ٠٠ واستطعنا أن ننفذ الى مكتب النائب « آلبيت » ، فاذا نحن فى غرفة زاخرة بالناس ٠٠ واذا فى الطرف الاقصى حارس فى زى شباب الحزب اليعقوبى ٠٠ وقصدنا الى ذلك الشاب ، فغمغمت له سوزان :

ـ اننا نرجو أن نرى المواطن النائب آلبيت ٠٠

فقال اليعقوبى وكأنه ملاك يقف بأبواب الجنة : « كل امرىء فى هذه الحجرة يبغى مقابلته ٠٠ أكتبى اسمك وسبب الزيارة على ورقة مخصصة تجدينها على حافة النافذة »

وشققنا طريقنا الى النافذة ، حيث كتبت سوزان ما طلب ، ثم شققنا طريقنا عائدتين بين القوم ، فأسلمت الورقة الى الشاب ، الذى سألنا أن ننتظر دورنا ٠٠

وطال انتظارنا ساعات ٠٠ وأخذت أغفو وأنتبه ٠٠ والوقت يمر ٠٠ ثم غشينى سبات عميق ، لم أستيقظ منه الا على ضوء سلط على عينى ٠٠ وصوت يقول : « استيقظى أيتها المواطنة ، فليس لك أن تنامى هنا »

وودت لو أمضى فى النوم ، لولا أن انتبهت فجأة الى اننى كنت فى غرفة مظلمة ، وان ثمة رجلا ينحنى نحوى حاملا مصباحا ٠٠ وكان شابا مليحا ، ذا عينين جميلتين وابتسامة ساحرة ٠٠ وقال :

– لا تخافى أيتها المواطنة ٠٠ اننى مضطر لان أغلق مكتب النائب آلبيت لانصرف الى دارى ٠٠ اننى المواطن جوزيف بونابارت ، سكرتير لجنة الامن العام بباريس ، ومنتدب لاعمل سكرتيرا للنائب آلبيت خلال مدة وجوده فى مرسيليا

وذهلت اذ تبينت اننى فى دار المحافظة ٠٠ وتساءلت عن « سوزان » ، فتحولت ابتسامة الشاب الى ضحكة وقال : « لم أحظ بمقابلة سوزان هذه ٠٠ ولقد غادر آخر زوار المواطن آلبيت المكان منذ ساعتين ٠٠ فما اسمها الكامل ؟ »

وغاب لحظة فى الغرفة الداخلية بعد اذ تلقى الجواب ، ثم عاد يقول : « آه ، وجدت اسمها فى القائمة ٠٠ لقد أطلق سراح « اتيين كلارى » بعد أن اتضح الامر ٠٠ ولعله عاد الى الدار منذ زمن ٠٠ ولكن ٠٠ ماذا جرى أيتها المواطنة ؟ »

وكنت قد أخذت أرتجف فى عنف ، ثم طفقت أبكى من فرط فرحى دون أن أقوى على تمالك نفسى ٠٠

لقاء ٠٠ رسمه القدر !

◆ **ورحت** أبحث عن منديل فى حقيبتى دون جدوى ، ثم تذكرت المناديل الاربعة ، فدسست يدى فى صدر ثوبى اخرجها ٠٠ ورآنى الشاب فوقف يحملق ، لا يكاد يصدق عينيه ٠٠ فقلت له :

– لقد وضعتها ليظن الناس اننى كبيرة ٠٠

– انك فعلا شابة ٠٠ والآن ، سأصحبك الى دارك ، فليس من المأمون لشابة ان تسير فى المدينة ليلا ٠٠

ولم أشأ أن أرفض ٠٠ وسرى عنى الخجل فى الطريق فسألته:

– ما أظنك فى الاصل من أهل مرسيليا ؟

– اجل ٠٠ وان كانت كل اسرتى – عدا اخ لى – يقيمون هنا ٠٠ اننا لاجئون أتينا الى فرنسا منذ عام وبعض العام ، وقد اضطررنا الى ان ننجو من كورسيكا بجلودنا دون ان نجد فرصة لكي نحمل معنا شيئا مما كنا نملك ٠٠ على ان اخي يساعدنا ،

وقد استطاع ان يحصل لأمى على معاش ضئيل من الحكومة لأنها غادرت كورسيكا فرارا من الانجليز ٠٠ ولقد تلقى أخى علومه فى الكلية العسكرية فى « برين » وهو الآن « جنرال »

وبدا لى فى قصته شىء من البطولة ، لا سيما وان اخاه « جنرال » ٠٠ وسادنا الصمت هنية ، ثم سألنى عما اذا كنت ابنة « كلارى » تاجر الحرير ، فأجفلت وسألته : « وكيف عرفت ؟ » ٠٠ فقال :

ـ ان عيون القانون ترى كل شىء ٠٠ ثم لا تنسى انك اخبرتنى بأنك اخت « اتيين كلارى » ٠٠ ولكن ، الا ترين من الغريب اننى لم أعرف بعد اسمك ٠٠ ؟

ـ اننى أدعى برناردين اوجينى ديزيريه ٠٠ وهم ينادوننى بأوجينى ، وان كنت اؤثر ان ادعى « ديزيريه »

ـ الا يسمح لك قط بالخروج للنزهة مع شاب ؟

فأجبته : « لست أدرى ، فما قدر لى أن أعرف شابا »

واذ ذاك ضغط على ذراعى فى رفق وضحك قائلا : « ولكنك الآن تعرفين واحدا ٠٠ فهل تسمحين لى بأن أزورك يا آنسة أوجينى ؟ »

ولم أجبه ، فقد شغلت بفكرة طرأت على ذهنى ٠٠ كانت « جولى » خيالية ، تحب القصص ، فلا شك أن مثل هذا الشاب يروق لها ٠٠ وتعمدت فعلا ان اذكرها فى سياق الحديث ، فاذا الاهتمام يتبدى على محياه ، فيتساءل عن عمرها ٠٠ وقلت انها فى الثامنة عشرة ، فسألنى : « وهل هى جميلة ؟ »

وبادرت أجيبه فى حماس ، وقد ازددت عزما على ان اتيح الفرصة لجولى ـ وان لاح فى خاطرى من وراء ذلك غرض آخر لى : « جميلة جدا ٠٠ ولكن ، هل تستطيع ان تحضر اخاك « الجنرال » معك ؟ »

ـ بلا شك ، يسره ذلك ، اذ ليس لنا معارف كثيرون فى مرسيليا ٠٠

ـ الواقع اننى لم أر قط عن قرب جنرالا ٠٠ لا بد أن بينك وبينه فارقا كبيرا فى العمر ؟

وشد ما ادهشنى ان اعلم ان « الجنرال » اصغر منه سنا٠٠ فى الرابعة والعشرين !

- ٢ -

◆ **لا أكاد** أصدق أن كل هذا حدث فى شهرين ٠٠ ومع ذلك فقد تمت بالامس خطوبة «جولى » الى «جوزيف» ٠٠ وقبلنى «نابليونى» للمرة الاولى !

لقد حرص الشقيقان منذ الزيارة الاولى على أن يترددا على دارنا يوميا ! ومن أغرب الامور أن «اتيين» هو الذى يدعوهما ، فقد استمرأ الحديث الى « الجنرال » ، مع أنه فى البداية رفض أن يقابلهما حين عرف أنهما من «كورسيكا» ، ووصفهما بأنهما «مغامران» !٠٠ **ولكنه سرعان ما فتن بشخصية «نابوليونى» الذى وفق الى طرد الانجليز من «طولون» حين تحالفوا مع الملكيين أثر اعدامنا الملك السابق ٠٠!**

ولقد سعى «نابليونى» بعد ظفره الى باريس كى يرى «روبسبير» ، أقوى أعضاء لجنة الامن العام سلطانا ٠٠ وقد أعجب «روبسبير» بالاقتراح الذىعرضه عليه «نابوليونى» لغزو ايطاليا ، وبحثه مع«كارنو» وزير الحربية ٠٠ ومع أن هذا كان يحنق على كل من يتدخل فى اختصاصاته ، الا أنه لم يقو على التعرض لنقمة «روبسبير» ، لذلك استقبل «نابوليونى» ، وتلطف اليه ، واقر الخطط التى وضعها ، ولكنه اوصاه بأن يتولى أولا تفقد حامياتنا فى الجنوب ٠٠ ويعتقد « نابوليونى » أن « كارنو » تعمد ذلك ليجد فرصة كى يلقى بالمشروع فى زوايا النسيان ٠٠!

ويقول «نابوليونى» لاخى كلما تحدثا عن المشروع : **« أنه لواجب مقدس علينا أن ننشر فى جميع الشعوب الاوربية فكرة الحرية والمساواة والاخاء ٠٠ ولو بقوة المدفع اذا استدعى الامر ! »**

ولقد اعتدت ان اصغى الى مناقشاتهما لاظلعلى مقربة منالجنرالالشاب٠٠ ولكنه حين يطمئن الى اننا بمنجى عن القوم يكف عن حديث القوة والمدفع !٠٠ واذ نفرغ من العشاء تبادر «جولى» قائلة : « ألا ترين يا أماه أنه يحسن بنا ان نصحب ضيفنا الى الحديقة ؟» ٠٠ وتسمح أمى عادة ، فننطلق اربعتنا الى «السلاملك» المقام فى الحديقة ٠٠ وقبل أن نبلغه ، يقول نابوليونى عادة : « ما رأيك يا أوجينى فى أن نتسابق لنرى من يبلغ حافة السياج ؟» ٠٠ وعندئذ اندفع اعدو بكل قواى ، فيتناثر شعرى فى الهواء ، وتسارع دقات قلبى ٠٠ بينما يتسلل جوزيف وجولى ويغيبان عن الانظار !



وكنت كلما سبقت نابوليونى أدركت أنه انما تعمد ذلك !.. فاذا انتهينا الى السور ، مال عليه ، بينما اتكىء انا بذراعى على حافته واتطلع الى النجوم .. وبالامس ، سألنى دون مقدمات :

ـ الست ترهبين قط ما يدخره لك القدر يا اوجينى ؟

ـ ارهب القدر ؟ .. تعنى المصير ؟ .. لا ، ليس من احد يدرى ما قدر له .. فكيف يرهب المرء ما لا يعرف ؟

وبدا وجهه تحت ضوء القمر شديد الشحوب .. وكانت عيناه تتألقان وهو يقول : «من الغريب ان يقول معظم الناس انهم يجهلون ما فى طيات الغيب .. ولكننى اعرف مصيرى .. انا حظ نفسى ، وقد عولت على ان اكون من اولئك الذين يصنعون التاريخ ! »

وحدقت فيه مبهوتة ، ثم ضحكت فجأة ، فتراجع متجهما وقال : «أتضحكين يا أوجينى ؟ .. اتضحكين ؟ »

ـ اغفر لى هذا الضحك ، فقد أخافنى وجهك ، اذ بدا شديد الشحوب .. غريبا .. فحاولت أن أغالب خوفى ..

ـ انما الذى أرهبك مستقبلى العظيم !

واقترب وجهه من وجهى .. وارتجفت .. وأغمضت عينى .. ثم أحسست بشفتيه على شفتى !.. واستمرأت القبلة المفاجئة ، وان أدركت أن جولى لن تقر ما حدث .. فهى لا تقر الفتاة على تلقى القبلات قبل «الخطوبة» !

- ٣ -

مارسيليا فى منتصف شهر « ترميدور »
(أول أغسطس كما تقول أمى)

◆ **اعتقل** نابليونى .. اننى أعيش فى حلم مزعج منذ ليلة أمس ، رغم ان المدينة كلها فى فرح صاخب .. ففى التاسع من «ترميدور» قرر النواب حرمان «روبسبير» واخيه من حقوقهما المدنية واعتقالهما ، ثم اعدموهما بالمقصلة فى اليوم التالى ..وأصبح كل من كان على علاقة بروبسبير يعيش فى ذعر..

ولقد كنت وجولى حتى العاشر من ترميدور أسعد الناس ، وكانت تعمل بهمة فى اعداد ثياب العرس الذى حدد موعده بعد ستة أسابيع .. وقد اعتاد جوزيف ان يزورنا كل مساء .. وعندما لايكون نابليونى مشغولا بتفقد بعض التعزيزات العسكرية ، كان يفد على دارنا فى مختلف ساعات النهار ..

وفى الليلة الماضية ، كان يتناول العشاء معنا حين سمعنا جلبة وصخبا تبعتهما طرقات شديدة ، فسمرنا فى أماكننا وعلقت أبصارنا بالباب ، فى حين عقد نابليونى ذراعيه على صدره وقد غاض الدم من وجهه .. وفتح الباب فجأة ، ودخل جندى دق كعبيه وأدى التحية ثم قال :

ـ انذار بالقبض على المواطن الجنرال بونابارت ..

ودفع الى نابليونى بوريقة اطلع عليها ثم أفلتها وتأمل الجندى فى امعان، ثم سار اليه ، فأشار الى الزر العلوى فى صدره وقال : « يجب أن تكون حلة الجاويش فى جيش الجمهورية محكمة الازرار .. حتى فى أشد ليالى الصيف حرا ، كما يقضى النظام » .. ثم التفت الى الخادم قائلا : « ان سيفى فى الردهة فأرجو أن تسلميه للجاويش يا مارى »

واستأذن من أمى وخرج والجاويش فى أثره ، قبل ان يتحرك احدنا .. وظللنا برهة جامدين .. وأخيرا قال أخى وهو يدعونا الى استئناف العشاء: « ألم أقل من البداية أنه مغامر يحاول أن يفيد من الجمهورية ؟ .. انني لاسف يا جولى اذ وافقت على خطبتك لجوزيف ! »

العشيق .. والشقيق !

لست أدرى كيف قضت جولى ليلة زفافها .. كل ما أدريه اننى واياها كنا مسهدتين فى الليلة السابقة ، وفجأة سمعت شخصا يصفر تحت نافذتى لحن « آن يوم النصر » ، وهو ثانى سطور « المارسلييز » .. فقفزت من فراشى وأزحت الستار عن النافذة ، اذ كانت هذه هى الاشارة التى اتفقت عليها مع نابليونى .. وكان الظلام حالكا ، والضباب عالقا فى الهواء .. وأخذت أصفر بدورى « آن يوم .. » فواتانى من أسفل النافذة صوته يكمل العبارة : « النصر » .. ولم أشعر بنفسى الا وقد اندفعت حافية القدمين ، عارية الا من قميص النوم ، أهبط السلم الى الحديقة ، فالى الباب ، فالى أحضان نابليونى !

وحملنى الى عتبة الباب وقد لفنى فى معطفه ، ثم ذكر لى أنه غادر السجن لتوه ، ولم ير أسرته بعد ! .. واسندت رأسى الى سترته الخشنة ، وانا ناعمة ، قريرة العين .. ورحنا نتحدث .. بينما أخذ جواده يصهل فى صبر نافد وقد اضجره الانتظار .. **وفجأة ، فتحت نافذة فوق رأسينا ، وانبعث صوت «اتيين» صائحا : «من هناك ؟»**

وأجاب نابليونى : « أنا .. الجنرال بونابارت »

ـ ولكنك فى السجن .. وعلى كل حال فماذا تفعل فى حديقتنا فى منتصف الليـل ، وفى مثل هذا الوقت يا جنرال ؟

وقفزت فالتصقت بنابليونى وصحت : « انه يتحدث الى يا اتيين .. أنا أوجينى »

لكن اتيين صاح به : «ارجو ان تعلل لى تصرفك يا جنرال»

فهتف نابليونى : «لى الشرف ان اسألك يد اختك الصغرى يا مسيو كـلارى ! »

وضمنى اليه وانا ارتجف .. بينما قال اتيين بخشونة : «ادخلى يا اوجينى فى الحال ! »

فقبلنى نابليونى ومضى ،ناسيا معطفه على كتفى ..

ـ ٤ ـ

(بعد اثنى عشر شهرا .. وفى شهر « فريكتيدور» من العـــام الثـــالث من تقويم الثـــورة)

◆ **لم اكتب شيئا فى مذكراتى هذه منذ عام .. وماذا اكتب وانا خطيبة** مهجورة ؟.. فقد لقى نابوليونى من عنت وزارة الحربية الشىء الكثير ، فارسل الى الحدود الايطالية ليتفقد الحاميات .. ولكن قادتها ابوا ان يستقبلوه ، ثم أصيب بالملاريا وعاد معلولا ، بالى الثياب ، ليتلقاه وزير الحربية فى عاصفة من الغضب انتهت بطرده .. **فصل من الجيش بدون معاش !.. وهو الان فى باريس .. ولسنا ندرى كيف يعيش !.. بيد انه يعمل من آن لاخر فى رسم الخرائط الحربية للوزارة لقاء اجر زهيد ، وقد اوشك ان يتلف بصره فى هذا العمل .. وكانت حلته الرسمية قد غدت مهلهلة ، فكتب يلتمس من الحكومة حلة اخرى ، ولكنهم قالوا له : « ان الدولة لا تكسو الضباط غير العامليـن ! »**

.. وفى غمرة اساه ، ذهب يسعى الى اصحاب (النفوذ) .. الى دار «مدام تاليان» الجميلة .. فلقد اصبحنا تحت حكم حكومة ادارية تتألف من خمسة مديرين ، طغى من بينهم نفوذ المدير «بارا» ، وكان بحكم مولده يحمل لقب «كونت» ولكنه انقلب فى الوقت المناسب الى ثورى متطرف من اشد اليعاقبة تهوسا ، واستطاع بمعونة «تاليان» ونائب يدعى «فوشيه» ان يقضى علـى «روبسبير» !.. ولما كان «بارا» أعزب ، فقد سأل «مدام تاليان» ان تقوم بالمهام الاجتماعية التى كان ينبغى ان تقوم بها زوجته ، فاصبحت دارهـا تزدحم بعد ظهر كل يوم بتجار الحرب الجشعين وبالسيدات الانيقات ..

ولكن اجملهن بلا نزاع كانت «مدام تاليان» نفسها و«جوزيفين دو بوهارنيه» عشيقة «بارا» وارملة الجنرال بوهارنيه الذى فقد رأسه تحت «الجيلوتين» ، فاصبحت ارملته تحيط عنقها بشريط احمر رفيع دلالة على انها قريبة احد ضحايا المقصلة !

وعرض «نابوليونى» عصر احد الايام امره على السيدتين ، فاستنكرتا تصرف وزير الحربية ، ووعدتاه بان تساعداه .. بيد انهما نصحتاه بان يغير اسمه ، فكتب الى «جوزيف» يخطره بانه سيتخذ الاجراءات لذلك وينصحه بان يحذو حذوه ، قائلا : **«ومن الان سأسمى «بونابرت» بدلا من «بونابارتى» .. و«نابليون» بدلا من «نابوليونى» .. فنحن مواطنون فرنسيون ، وانا احب لاسمى ان يكون فرنسيا حين يسجل فى كتاب التاريخ!»**

انه لا يزال يؤمل فى ان يصنع التاريخ .. حتى بعد ان رهن ساعة ابيه .. واصبح سرواله ممزقا !!

صالون مدام تاليان !

لم اتلق من نابليون خطابات تذكر خلال الشهور الاخيرة ، وان كان يكتب لجوزيف الصفحات الطوال عن السيدات الانيقات اللاتى يلتقى بهن فى «صالون» مدام تاليان ..

ولقد حدث منذ اسبوع ان رحلت جولى مع زوجها جوزيف فى رحلة تتعلق بعمله ، فبكت امى طويلا ، اذ انها المرة الاولى التى تفارق فيها احدا من ابنائها ، مما حدا بانيين الى ان يصحبها وزوجته الى احد مراكز المياه المعدنية .. وبقيت انا والطاهية «مارى» وحيدتين فى الدار ..

وفيما انا جالسة فى «السلاملك» عصر اليوم ارقب الزهور التى اذبلها الخريف ، قر عزمى على ان ارحل الى باريس !.. قلت لمارى : « اننى ادرك ما ستنزله الاسرة على رأسى من نقمة ، سيما وانا بعد لم ابلغ السادسة عشرة — اذ لا يزال يفصلنى عنها شهران — ولكن ، «اذا لم اذهب الى باريس الان ، فستفوت الفرصة .. ولن يقدر لزواجى ان يتم !»

واعددت فى تلك الليلة عدتى.. وفى حقيبة متواضعة، اودعت الثوب الحريرى الازرق الذى ارتديته فى عرس جولى ، لالبسه حين اسعى الى دار مدام تاليان كى اسأل عن «الجنرال بونابرت».. واخذت اتصورنى امامه وانا اقول له: «انما جئت يا نابوليون لاننى اعرف انك لا تملك نفقات الحضور الى ..!»

الوقت ليل ، وانا اجلس امام النار فى مطبخ مدام «كلابان» — شقيقة «مارى» الطاهية — ريثما تجف ثيابى التى اغرقها المطر وانا فى طريقى الى دار «مدام تاليان»

لكم بدا الثوب الذى كنت أتيه به مزريا الى جانب الثياب التى رأيتها فى شوارع باريس ! .. ولم يعترض احد طريقى وانا اتقدم الى باب دار «مدام تاليان» .. ثم استقبلنى خادم انيق قائلا : «ان تعليمات مدام تاليان ايتها المواطنة تقضى بعدم السماح للمواطنات بالدخول الا اذا كن فى رفقة رجال»

وكان المطر قد بدأ يتساقط .. وابتل ثوبى .. وفى تلك الاثناء وقفت امام الباب عربة فاندفعت اليها ، وتعلقت بالضابط الذى هبط منها .. وكان طويلا الى درجة عجيبة .. وقلت له :

ـ معذرة ايها المواطن .. اتسمح لى بان انتمى اليك ؟.. يجب ان الج الى دار «مدام تاليان» .. يجب !

واطل على الضابط من اعلى قامته الفارعة ، ثم تأبط ذراعى .. وعرفنى الخادم اذ دخلت ، فنظر الى فى استنكار .. وحانت منى نظرة الى مرآة طويلة ، فاذا شعرى مبتل ، وانفى يلمع .. وبادرت انثر بعض المساحيق على وجهى ، ثم تحولت الى الضابط الطويل فاذا هو فى بزة انيقة ، وعلى كتفيه شريطان ذهبيان مجدولان .. ولاحظت الفم الضيق الذى كان يختفى تحت انفه الضخم ويختلج فى شىء من الاستنكار .. ورافقنى الى باب ابيض افضى بنا الى قاعة واسعة تلقانا عندها خادم اخر . فالتفت رفيقى يسألنى فى عجلة عن اسمى .. واكتفيت بان همست «ديزيريه» .. فسألنى عما بعده ، ولكنى قلت : « فقط .. من فضلك »

وغمغم للخادم بالاسم ، فرفع هذا عقيرته قائلا : «المواطنة ديزيريه .. والجنرال جان باتبيست برنادوت »

واذهلنى ما كنت ارى فى الصالون ، فلم افطن الى رفيقى العملاق وهو يبتعد عنى .. ووجدتنى كالتائهة فى «الصالون» الواسع .. الحافل !.. ورحت أتأمل القوم فلم أر بينهم لنابليون اثرا .. واقبل الخدم يحملون الشراب والحلوى وبعض المأكولات .. ووجدتنى مرتبكة ، فتواريت خلف اطار احدى النوافذ .. وفجأة ، ارتفع صوت مدام تاليان : «هيا جميعا الى القاعة الخضراء ، فهناك انباء تسر اصدقاءنا»

القــــارعة !

وسعيت وراء الجمع .. واديرت كؤوس الشمبانيا ، فتناولت احداها .. وصاحت مدام تاليان تدعو القوم الى ان يلتفوا حول اريكة .. وعلى الاريكة رأيته .. والى جواره سيدة ذات رأس صغير ، وعينين طلى جفناهما بلون فضى ، وحول عنقها شريط رفيع من المخمل الاحمر ساعد على ابراز بياض نحرها .. وهتفت مدام تاليان :



«ايها المواطنون والمواطنات .. لى عظيم الشرف ان اعلن بين اصدقائنا ان حبيبتنا جوزيفين قد خطبت الى المواطن الجنرال نابليون بونابرت»

وانطلقت منى صرخة طفت على الضجيج ورنت فى ارجاء القاعة : «لا» ! .. واجفلت مدام تاليان مذعورة .. وتطلعت ذات الثوب الابيض الجالسة على الاريكة .. وتشبثت نظراتى بنابليون، فبدت عيناه خاليتين من اى تعبير .. وكان ثمة عصب يختلج فى اعلى صدغه .. ووقفنا متواجهين لحظات ، خلتها دهرا .. هو وانا .. ثم نظرت الى المرأة ففشيتنى موجة من البغضاء ، واذا بى ارميها بما كان فى كاسى من خمر .. فتصرخ مذعورة !

ولم أع وانا أجرى فى الطرقات المظلمة تحت المطر .. وحملتنى قدماى الى جسر على «السين» .. وانحنيت فرأيت الاضواء تتراقص على صفحته .. وفى اللحظة التى هممت بأن أقفز فيها الى احضانه ، امسكت بكتفى قبضتان حديديتان ، فصرخت : «دعنى !.. اتركنى» .. وانفجرت باكية والقبضتان تجراننى وتدفعان بى رغم مقاومتى الى داخل عربة ..

وسمعت صوت صاحب القبضتين يقول للحوذى : « انطلق دون توقف .. أينما شئت ! »

وأحسست بيده دافئة ، كبيرة ، وهى تحتوى يدى .. وعدت أكرر : « دعنى أهبط .. اتركنى ! » .. فقال : « لقد طلبت بنفسك أن أرافقك .. ألا تذكرين يا آنسة ديزيريه ؟ . لن أفارقك حتى اسلمك الى دارك ! »

وكان صوته ناعما رقيقا .. كان الجنرال برنادوت بعينه !

وصحت : « دعنى .. اننى أبغض الجنرالات .. فليست لهم قلوب »

فضحك وهو يطرح معطفه على كتفى قائلا : « شتان بين جنرالات .. وجنرالات ! .. والآن ، ابكى ما شاء لك البكاء »

وبكيت كما لم أبك من قبل .. وكنت أتشبث بسترته الخشنة وأنا أقول بين الشهقات : « صدقته كما لم أصدق مخلوقا سواه .. وكان المقدر أن نتزوج بعد أسابيع ! »

ـ ما كان ليتزوج منك ياصغيرتى ، فقد كان مخطوبا منذ أمد لابنة تاجر حرير واسع الثراء فى مرسيليا

وأجفلت ، فاستطرد : « ألم تكونى على علم بهذا أيضا ؟ ٠٠ لقد أخبرتنى به كاليان الليلة ٠٠ كان بونابرت خطيبا لأخت زوجة أخيه ٠٠ ولكن أقبح « كونتيسة » ممن ذهب مجدهن ، وخبا جمالهن ، خيـــر ألف مرة اليوم لبونابرت من أغنى فتيات مارسيليا ، طالما كانت لها علاقات بذوى النفوذ فى باريس ٠٠ ومن ثم ما كان من المعقول أن يتزوج منك وليست لك علاقات ولا ثروة ! »

ـ ومن أدراك ؟

ـ منظرك ٠٠ وجهلك بتصرفات السيدات الراقيات والحياة الاجتماعية ٠٠ انك ساذجة ، بسيطة ٠٠ « خام » ٠٠ ولكم أود ان أتزوج منك !

فرحت أدق على الزجاج الذي يفصل بيننا وبين الحوذى صائحة : « قف ! ٠٠ دعنى ! ٠٠ لا تسخر منى ! »

لكنه صاح يأمر الحوذى ليواصل السير ، ثم عاد يقول : « لعلنى لم أحسن التعبير ، فاغفرى لى ٠٠ اننى صادق الرغبة فى الزواج منك يا آنسة ديزيريه ٠٠ ما كنت لأصبح جنرالا لولا الثورة ، فقد كان أبى كاتبا لدى أحد المحامين ، وكان أفراد أسرتى من أصحاب الحرف ، فنحن قوم رقيقو الحال يا آنسة ٠٠ وقد شققت سبيلى الى الرقى بعد أن التحقت بالجيش وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ، وتضيت زمنا طويلا وأنا مجرد « نفر » ٠٠ أما اليوم فأنا قائد فرقة ٠٠ وعمرى واحد وثلاثون عاما ٠٠ فهل تريننى أكبرك كثيرا ؟ »

وتلت : « اننى متعبة ٠ » فأملى على الحوذى العنوان الذى ذكرته له ، وتحول قائلا : « هل تفكرين فيما أعرض ؟ ٠٠ لا بد لى من ان أعود الى اقليم الراين بعد عشرة أيام ، فهل تنبئيننى بردك قبل سفرى ؟ ٠٠ اننى أدعى جان باتبيست برنادوت ، وقد ادخرت من مرتبى ما يكفى لابتيـــاع بيت لنـــا »

فنفد صبرى وأجبته : « اسمع ٠٠ انك لا تعرفنى قط !؟ »

ـ بل اعرفك ٠٠ اعرفك أكثر مما عرفك أهلك ٠٠ ليس لدى من الوقت ما يتسع كى أفكر فى نفسى ، اذ لا بد لى من أن أقرر سريعـــا ٠٠ وقد انتهيت الى قرار حين رأيتك !

وكنا قد بلغنا بيت شقيقة « مارى » ، فتريث حتى ولجت وقال :

ـ متى ترانى أعود لأتلقى جوابك ٠٠ ؟

فهززت رأسى قائلة : « هذا لا يمكن ياجنرال ٠٠ صدقنى ٠٠ لا لأننى صغيرة ، ولكن لاننى ٠٠ قصيرة جدا بالنسبة لك ! »

*

وأسلمنى برد تلك الليلة الى حمى قاسية ، جزعت لها مارى فاستدعت الطبيب ليعودنى ، وأرسلت لأمى التى عادت لفورها – ولم يعرف أحد أننى ذهبت الى باريس وعدت منها فى نفس الليلة ؟

وبعد أيام عين الجنرال نابليون بونابرت حاكما عسكريا لباريس ، اذ تسنى له اخماد الاضطرابات التى قام بها الجائعون ، بعد ان اجتاحت جموعهم «التويلرى» وكادوا يفتكون بالنواب !

– ٥ –

باريس فى نهاية شهر جرمينال من السنة الخامسة للثورة (الذى يكتبــه العالم « ابريل ســنة ١٧٩٨ »)

◆ **الدنيا** بأسرها تتحدث عن نابليون بونابرت ! ٠٠ فقد تزوج من جوزيفين ، ثم رحل فى الحملة الى ايطاليا – بعد يومين من زفافه – كقائد أعلى لها ، وفاز فى ست معارك خلال اربعة عشر يوما !

أجل ، ست معارك ، جلا بعدها النمسويون عن شمال ايطاليا ! ٠٠ ما أكثر ما أذكر أحاديث نابليون الى جوار سياج حديقتنا : لقد انشأ دولتين ، أطلق على أولاهما (لومباردى) والاخرى جمهورية (سيسالبين) ٠ واختار (ميلان) عاصمة للاولى ، وأقام فيها حكومة ، ونقش كلمــات : « الحرية والمساواة والاخاء » على جميع المبانى العامة ٠٠ واضطر أهل ميلان الى أن ينزلوا لفرنسا عن أموال وعربات وتحف ثمينة !

ومع كل هذه الشواغل فانه كان يجد وقتا ليفكر فى أسرته ٠٠ وكان قد استدعى جوزيف الى باريس – عندما كان حاكمها العسكرى – وقدمه الى « بارا » وكبار الساسة والمقاولين الذين يتولون مهام الجيش والطبقة الجديدة من الاغنياء ، فابتدأ جوزيف يثرى ، وسرعان ما ابتاع له ولزوجته جولى دارا فى شارع « روشيه » ، لا تفتأ اختى تدعونى للاقامة فيها الى جوارها ٠٠ وما لبثت أمى ان سمحت لى بذلك !

وقد رأيت اليوم « نابليون » مرة أخرى ٠٠ كان قد دعانا الى حفلة وداع قبيل رحيله مع جيوشه الى مصر التى اعتزم أن يتخذها قاعدة يربط منها الشرق بالغرب ويجعل من جمهوريتنا امبراطورية تسود العالم !

وحضرت الحفلة فى ثوب جديد ، وقد أخذت أزهى زينتى ٠٠ لكننى مهما فعلت فلن أضارع « جوزيفين » ! ٠٠ وبقدر ما كنت أرهب هذا اللقاء ، بقدر ما سرى عنى حين تقدم منى نابليون فأمسك بيدى وهتف : « أوجينى ! ٠٠ كم أسعدنى حضورك ٠٠ لقد أصبحت جميــلة جدا ٠٠ كبرت ٠٠ ونضجت !»

فسحبت يدى قائلة : « لقد بلغت التاسعة عشرة ٠٠ »

لقد مضى وقت طويل مذ تقابلنا اخر مرة ٠٠ أين كان ذلك ؟
وتطلع الى ، ثم ضحك ، وقد أومضت عيناه ، ثم صاح :
- جوزيفين ٠٠ هذه هى أوجينى أخت جولى ٠٠ ما أكثر ما حدثتك عنها !
وأقبلت بقامتها الهيفاء ، وقالت : « ولكن جولى انبأتنى انها تفضل ان تدعى « ديزيريه » ٠٠ كرم منك ان حضرت »
وغمزت بعينها ٠٠ اذن فقد تذكرت !

رب صدفة ٠٠!

◆ **بدأ** أسعد يوم من أيام حياتى بكلمات تسقطت سمعها من جوزيف وجولى وهما يتهامسان وقد نشرا أمامهما خطابا : « لقد قبل دعوتى برغم انه لم يعد الى باريس الا منذ أيام ٠٠ ان توطد العلاقات مع وزير الحربية المنتظر يحقق رغبات نابليون »
وأقبلت جولى الى غرفتى وأنا أتأهب لمأدبة العشاء التى أقامها جوزيف ، فأخذت تصلح من زينتى ٠٠ لكنى لم أشعر برغبة فى الهبوط ، سيما حين تعالت الى سمعى أصوات المدعوين ٠٠ وبدأت أكره الرجل الذى أقيمت المأدبة لتكريمه !

وعندما ولجت قاعة الجلوس ، تمنيت لو اننى ادعيت المرض ولم أهبط ٠٠ كان ظهر الضيف نحو الباب ، ومع ذلك عرفته ! وكان يحيط به جوزيف وجولى وجوزيفين ولوسيان - الشقيق الآخر لنابليون - وزوجته كريستين ٠٠ واستدار العملاق ، ثم حملق فى مدهوشا ، فكاد قلبى يكف عن الوجيب !
وتقدم جوزيف فأمسك بذراعى وقدمنى الى الجنرال « برنادوت » ٠٠ ولم أستطع ان أحدق فى وجهه وهو ينحنى ليقبل يدى ٠٠ وحاول جوزيف أن يعود به الى الحديث الذى كان بينهما ، لكنه قال : « اننى ٠٠ لقد نسيت ما كنت أتحدث فيه ! »

◆

◆ **تزوجت** الجنرال جان بابتيست برنادوت فى الساعة السابعة من مساء الثالث عشر من شهر « ترميدور » من العام السادس للثورة ٠٠ وكان برنادوت قد حصل على عطلة لمدة شهرين يقضيهما معى فى منزلنا الصغير بشارع «دولالين» بضاحية «سو» الباريسية ٠٠ ولكنه ، عندما حطم نيلسون اسطولنا فى مياه « أبو قير » ، اضطر لان يذهب الى قصر « لوكسمبورج » كل صباح من أيام شهر العسل ، ولا يعود قبل العصر ٠٠

وكانت هزيمة « أبو قير » حافزة لاعداء جمهوريتنا ، فاذا النمسويون يزحفون ، وروسيا تبادر الى التسلح ، والولايات الايطالية التى أنشأها نابليون ترحب بجيوش النمسا !

وبالامس ، عاد برنادوت لينبئنى بأنه راحل فى صباح الغد ٠٠ وقضينا عصر اليوم معا فى الحديقة ٠٠ وكنت اصغى اليه والمساء يزحف ٠٠ وهو يقول :

– تصورى ياديزيريه٠٠ اننى مكلف بأن أطرد العدو بجيش واه ، قليل العدة ٠٠ تصورى !

فقلت له وقد جاش فى قلبى حب عارم نحوه ، دفع الدموع الى عينى : « ليس ثمة ما تعجز عن عمله ! »

– ٦ –

ســـو ، (على مقربة من باريس) ، فى ١٧ ميسدور ، من السنة السـابعة للثورة

◆ **أنجبت** ابنا منذ ثمانى ساعات ٠٠ لشد ما أنا ضعيفة ، وقد أخذت الدنيا تغيم أمام عينى وانا أحاول الكتابة ٠٠ ومن غرفة الجلوس ، ينبعث صوت حبيبى الغالى برنادوت ٠٠ وزير حربية فرنسا !

فلقد عاد منذ شهرين على غير توقع ٠٠ ولم يكن لباريس من حديث سوى وجود أزمة داخلية واضطرابات ، نظم بعضها أنصار الملكية وأعوان الارستقراطيين المهاجرين ٠٠ ونظم البعض الاخر اليعاقبة اليساريون المتطرفون ٠٠ وبدا أن « بارا » طمع فى أن يستغل هذه الاضطرابات ليتخلص من ثلاثة من أعضاء مجلس المديرين ، فلا يبقى معه فى الحكم سوى « سييه » اليعقوبى العجوز ٠٠ ولكنه خشى خطر وقوع انقلاب ، فدعا برنادوت ليكون مستشارا عسكريا له ، غير أن هذا أبى ، مصرا على ضرورة احترام « بارا » للدستور ، وعرض الامر على نواب الجمعية الوطنية ٠٠

وظن جوزيف ان زوجى معتوه ٠٠ وقال له : « فى وسعك أن تصبح فى الغد ديكتاتورا على فرنسا بمعونة جنودك ! »

فأجابه برنادوت بهدوء : « هو ذلك ٠٠ وهذا ما يجب تفاديه ٠٠ أنسيت يا مسيو بونابرت اننى جمهورى متعصب ؟ »

٠٠ لكن « بارا » أفلح برغم ذلك فى الانفراد مع « سييه » بالحكم ٠٠

وفى ساعة مبكرة من صباح ١٥ ميسيدور ، وصل رسول من قصر لوكسمبورج يدعو زوجى لمقابلة رئيس الحكومة فورا ٠٠ وجلست طيلة النهار أنتظره ٠٠ وفجأة ، أحسست بألم بالغ كأنه السكين فى آحشائى ٠٠ وكانت

كل ساعة من الساعات بعد ذلك كأنها جيل كامل٠٠ وانقضى الليل٠٠ وتبعه النهار التالى ٠٠ ثم الليل ٠٠ وكان الالم يمزق أحشائى ، فرحت أصرخ بأعلى صوتى ٠٠ ثم انقطع الالم ٠٠ ورحت فى بحران ٠٠ وعندما أفقت لم أستطع أن أفتح عينى ٠٠ وسمعت حولى تهتف :

ـ انه ولد يا برنادوت ٠٠ ولد جميل !

وعندما استطعت ان افتح عينى أخيرا ، ركع زوجى الى جوار فراشى ، وألصق خده براحتى ٠٠ واذ ذاك قال الطبيب :

ـ الآن أرجو ان تخلوا جميعا الحجرة ، فان حرم وزير الحربية فى حاجة الى الراحة ٠٠

وقلت فى دهشة : « هل ٠٠ هل يعنينى يا برنادوت ؟ »

فأجاب : « لقد صرت وزيرا للحربية منذ أول أمس ٠٠ »

نابليون يفكر فى العودة من مصر

◆ **لم** يعد برنادوت ينعم بالراحة ٠٠ حتى عندما يكون فى البيت ، فان الزوار لا ينقطعون عن المجىء ٠٠ وقد روى لى بالامس كيف يحاول كل حزب جاهدا أن يستميله الى صفه ٠٠ فقلت له :

ـ ان الجميع يقولون انك الحاكم الفعلى لفرنسا اليوم ٠٠ وانك لو شئت لاستطعت أن تمسك بأزمة الحكم ٠٠ ؟

ـ الواقع ان اليعاقبة اقترحوا هذا ٠٠ وشاركهم بعض قادة جيشنا٠٠ ولو شئت لكانت لى سلطات تفوق ما للمديرين اللذين يتبوءان الحكم اليوم٠٠ ولكننى أؤمن بمبادىء تخالف مبادئهم ٠٠

وأعلن الخادم اذ ذاك مقدم جوزيف بونابرت ، فبدا على برنادوت الامتعاض ٠٠ وتعمد أن يستقبله فى مخدعى ٠٠ وسمعت جوزيف يقول :

ـ لقد جئت من أجل نابليون ٠٠ ما رأيك لو أنه قرر العودة ؟

ـ رأيى أنه لا يملك العودة ما لم يستدعه من مصر وزير الحربية !

ـ دعنا من المواراة ياعديلى ٠٠ ان قائدا أعلى مثل نابليون لن يجد مجالا فى مصر ، لا سيما بعد تحطم أسطولنا ٠٠ ونابليون ليس عسكريا فحسب ، بل هو ـ كما تعلم ـ يهتم بالشئون الادارية ، ويستطيع ان ينفعك كل النفع فى اعادة تنظيم الجيش ٠٠ ثم ٠٠

وأمسك جوزيف لحظة ، ثم استأنف قائلا : « **لعلك تعترف بأن ثمة مؤامرات ضد الحكومة ٠٠ فالجمهورية فى حاجة الى الاقوياء من رجالها ، اذ أن فرنسا لا تحتمل الفتن الحزبية فى أوقات كهذه ٠٠ ولقد تحدثت الى ((تاليران)) فعرفت انه لا يعتقد أن ((سييه)) يمانع فى تغيير الدستور ٠٠))**

ـ اننى اعرف وجهة نظر تاليران ، وأهداف الشيع اليعقوبية المتباينة .. وأعرف ان الملكيين يترقبون فرصة قيام فرد واحد بالحكم الديكتاتورى .. أما فيما يتعلق بى ، فقد أقسمت يمين الولاء للجمهورية وسأحرص على الدستور فى جميع الظروف ..

ـ أتدرك ان الركود فى مصر قد يدفع رجلا فى طموح نابليون الى عمل جرىء .. هب انه فرر العودة ؟

ـ سأجدنى مضطرا ـ كوزير للحربية ـ الى تقديمه الى محكمة عسكرية .. وأعتقد انها لن تقضى بغير الاعدام رميا بالرصاص ، فمن واجب القائد الاعلى أن يبقى مع جنوده !

ومن وراء آفاق السنين الماضية ، تردد فى ذهنى كلام نابليون : « اننى أعرف مصيرى .. أنا حظ نفسى » !

انه لن يتردد فى العودة ، وفى عمل أى شىء لتحقيق أطماعه !

القنصل الاول !

◆ **ولقد** عاد .. ونجح فى الانقلاب الذى دبره ، وأصبح منذ ساعات رئيس الدولة .. ولقد ذكر لى برنادوت ان من المحتمل ان يأتى البوليس لتفتيش دارنا ومراقبتنا ..

والواقع انه لو كان برنادوت فى وزارة الحربية عندما عاد نابليون ، ما حصل هذا الانقلاب .. ولكنه اختلف مرة أخرى مع « سييه » قبيل ذلك، فاستقال .. ويبدو أن « سييه » كان يناصر نابليون ، فدبر هذا الخلاف ليقصى زوجى الذى كان يعرف موقفه من عودة نابليون !

وفجأة وقفت عربة أمام باب البيت .. وقفزت من مكانى .. وجمد برنادوت فى وسط الغرفة .. ودوت طرقات .. ثم سمعنا صوت رجل ، وضحكة امرأة ، واذ ذاك سرى عنا .. اذ كانت القادمة جولى يصحبها جوزيف .. وبدا أنهما أسرفا فى الشراب ، وأنهما عائدان لتوهما من «التويليرى» حيث أقام جوزيف احتفالا باحتلال القصر الملكى .. وقالت جولى : « لقد أفرطنا فى الشراب ، فان اليوم من أعظم الايام .. سيحكم نابليون فرنسا ، وسيكون جوزيف وزيرا للخارجية .. وسيؤلف مجلس من ثلاثة قناصل ، يستعين بمجلس آخر من أهل الرأى والخبرة ، وقد ترشح انت لعضويته يا برنادوت .. »

وفى الصباح دعى برنادوت فعلا الى « التويليرى » حيث انبأه القنصل الاول «نابليون» بأنه أصبح مسئولا عن الجمهورية ، وقد اختاره ليمثل وزير الحربية فى مجلس الدولة .

ونهضت أعلن انتهاء الزيارة ، ولكنه استمهلنى ليحملنى رسالة الى زوجى : فان الدولة فى حاجة الى جهود كل مواطن »

وفى الصباح التالى ، أفرج نابليون عن المعتقلين ٠٠ ولما كان قد شرع بعد حملة ضد ايطاليا ، فقد عهد الى برنادوت بالقيادة العليا فى الجبهة الغربية، فشرع يحصن ساحل المانش ٠٠ وأصبح يقضى معظم أيامه فى مركز قيادته ٠

— ٧ —

(باريس فى ٢٠ مايو سنة ١٨٠٤)

◆ **اقبل** الخادم يعلن مقدم «صاحبة السمو الامبراطورى الاميرة جوزيف» ٠٠ وفى اثره جاءت جولى فى مهابة تحيينى قائلة : «ارجو ان تكونى بخير يا (مدام لاماريشال) » — فقد اصبح زوجى «ماريشال فرنسا» !

واقترحت ان نخرج الى الحديقة ٠٠ وانبأتنى بانها وزوجها سينتقلان للاقامة فى قصر ((لوكسمبورج)) ٠٠ وبدت لى شقية بوضعها ، رغم أن زوجها غدا ولى عرش فرنسا الامبراطورى !

وكان القادة الكبار قد اعتقلوا من جديد بتهمة التآمر مع الملكيين ٠ وعدنا نتوقع ان يدهم البوليس دارنا ، ولكن برنادوت دعى مرة اخرى الى ((التويليرى)) حيث قال له نابليون :

— ((نحن)) اخترناك ماريشالا لفرنسا ٠٠

وهتف زوجى فى دهشة طاغية : ((نحن ؟))

— اجل ٠٠ نحن نابليون الاول امبراطور فرنسا !

وبهت زوجى من هذا النبأ المنطوى على اعلان ((الامبراطورية)) ، مما جعل نابليون يقهقه ويرقص فى الغرفة !

وكان نابليون حاذقا ، أعد كل شىء وفق هواه ٠٠ وفى المأدبة التى اقامها فى «التويليرى» لكبار قادة الجيش وزوجاتهم ، لم اتمالك — ازاء ما رأيت من بذخ ومظاهر «ملكية» — ان سألت جولى : « والى اين ينتهى كل هذا ٠٠ ؟ »

فهمست : «بل نحن ما زلنا فى البداية ٠٠ اننى لم اعد انعم بنوم ٠٠ هبى ان الامبراطور لايرزق بابن من جوزيفين ، فمعنى هذا ان جوزيف وانا نخلفه ٠٠ »

واخذت ترتجف ، ثم طوقتنى بذراعيها قائلة : «انك الوحيدة التى تفهمين ٠٠ اننى لا ازال ابنة تاجر الحرير كلارى ٠٠ »

— فاذكرى هذا دائما يا جولى كلارى ٠٠ ولا تخجلى من اصلك ٠٠

تتويج الامبراطـــور

◆ **استطعنا** ان نصل الى «دوم ديز انفاليد» فى آخر لحظة ، ولو اننا تأخرنا قليلا لتمخض الامر عن فضيحة مدوية .. فقد كانت البلاد تحتفل بتتويج نابليون امبراطورا !.. وكان زوجى فى انتظارى فى العربة حين انفض القوم .. وامضنى وجومه ، فسألته عما يشغله .. فقال بهدوء :

ـ ان ياقة بزة الماريشالية لا تريحنى .. فانها عالية ، وشديدة الالتفاف حول عنقى ..

وتلقتنا عند بيتنا شرذمة من الشباب فى ثياب مشعثة ، وراحوا يهتفون بحياة «برنادوت» .. وتردد زوجى ، ثم صاح هاتفا بحياة الامبراطور .. حتى اذا جلسنا الى العشاء ، قال لى : «قد يهمك ان تسمعى ان الامبراطور أصدر لوزير البوليس تعليمات سرية بان يراقب الحياة الخاصـــة لقادة جيوشه وخطاباتهم » .. ثم حدق فى الفضاء وقال :

ـ سأسأله ان يعيننى فى منصب ادارى مستقل بعيدا عن باريس .. كأن أكون مديرا لاحد الاقاليم .. مديرا اداريا لا عسكريا .. فقد اعددت اخيرا نظاما اقتصاديا واداريا ، اعتقد انه كفيل بتحقيق الرخاء لاى اقليم .. ان بزة الماريشالية ضيقة بالنسبة لى .. ولهذا فان «الجاويش برنادوت» لن يلبث ان يغادر باريس قريبا ..

⁂

◆ **جاء** الربيع ولم يعد بعد برنادوت ، فهو الان حاكم اقليم «انسباخ» ، وقد انصرف الى ادخال النظم الاصلاحية التى سبق ان طبقها فى هانوفر ..

وتمضى الايام مملة ، وليس بوسعى ان ألحق به لان ابننا اوسكار كان مريضا .. وفى غمرة مرضه ، **اقبلت جولى يوما شاحبة الوجه ، يتفصد العرق من جبينها .. جاءت تنبئنى بانها وزوجها عينا ملكين على «نابولى» ! .. واخذت تبكى وهى تقول : «أواه يا ديزيريه .. سيكون علينا ان نعيش فى احد القصور الهائلة فى ايطاليا .. اننى خائفة .. يخيل الى اننى لست أهـلا لهذا الدور !»**

وتوالت حفلات وداع ملك نابولى وملكتها ..

وفى هذا الصباح كنت اجلس فى حديقة الدار مع «اوسكار» ـ الذى تحسنت صحته ـ ننعم بجو شهر مايو ، حين اقبلت جولى متهللة وبادرتنى قائلة : «اردت قبل ان تقرئى فى «المونيتير» ان اخبرك بان برنادوت قد عين اميرا لبونت كورفو .. فتهانئى يا أميرة .. وتهانئى للامير ولى عهد بونت كورفو» .. وطفقت تقبل أوسكار ..

ترى اين «بونت كورفو» هذه ؟ .. ومتى يعود زوجى ؟

انجلترا تهدد فرنسا بالغزو !

◆ **استيقظت** على رنين اجراس الكنائس ٠٠ لعل اليوم عيد ميلاد احد الملوك او الامراء الذين صنعهم نابليون من اسرته واقاربه ٠٠ او احد انتصاراتنا ٠٠ فان جوزيف يحارب الاسبان ليصل الى عرشهم الذى وهبه له أخوه ، دون ان يقوى على التقدم ٠٠ والنمسويون يحشدون قواتهم ولا يكفون عن القتال ٠٠ وبرنادوت هناك ، اذ عينه نابوليون قائدا لجميع الفرق السكسونية ٠٠

وفجأة ، اقبلت الخادم تعلن مقدم «فوشيه» وزير البوليس ٠٠ ولم تكن لفوشيه سابقة تردد على دارنا ٠٠ كان رمزا للارهاب ، وكان يبث جواسيسه فى كل مكان يتربصون بكل فرد ٠٠ حتى بالوزراء ، مما حدا ببعضهم الى ان يسميه «الضمير السىء» للامة !

وبادرنى فوشيه حين هبطت لاستقباله : «**جئت أهنىء الاميرة اذ انتصرنا فى معركة كبيرة ٠٠ وقد قرأت ان امير بونت كورفو وقواته كانوا فى المقدمة ٠٠ وهذه انباء لم تنشرها الصحف ، وانما اعلنها زوجك فى النشرة العسكرية التى اصدرها لجنوده السكسونيين ٠٠ ومن المصادفة اننى قرأت اليوم ايضا خطابا من جلالة الامبراطور الى امير بونت كورفو ، يعلن استياءه من النشرة العسكرية لانها تتضمن ما يجافى الواقع ، ومن ثم امر الامبراطور بابلاغ الامير بأنه لم يقم فى هذه الحملة بخدمة ممتازة ٠٠ وتلقيت ايضا امرا بان اراقب حركات امير بونت كورفو ورسائله** »

٠٠ وقلت اخيرا : «ولكن زوجى متغيب مع جنوده»

ـ بل هو سيصل فى اية لحظة الى باريس ، فقد استقال عقب تلقيه خطاب الامبراطور ٠٠ «لاسباب صحية»

ونهضت اعلن انتهاء الزيارة ، ولكنه استمهلنى ليحملنى رسالة الى زوجى : كان الانجليز قد حشدوا قواتهم للهبوط فى دنكرك وانتويرب ، والزحف على باريس ٠٠ ولما كان نابليون فى «فيينا» ، فقد اضطلع «فوشيه» بمهمة الدفاع عن الدولة ، ولذا فهو يدعو الماريشال برنادوت ليتولى قيادة الحرس الوطنى والدفاع عن البلاد !

وأحسست بقلبى يغوص الى كعبى قدمى ٠٠ كانت كل قوات فرنسا مبعثرة الجبهات الخارجية ، وليس فى البلاد من جنود ٠٠ وانجلترا تتهدد فرنسا بالغزو !

◆ **وما كان** برنادوت ليحجم عن قبول اى شىء فى سبيل الدفاع عن فرنسا ، رغم ما بينه وبين الامبراطور ٠٠ واستطاع ان يفعل المعجزات ، فلم يصد

الانجليز فحسب ، بل استولى على كثير من عتادهم ‥ وجنودهم !‥ وتوقع كل امرىء ان يكرم الامبراطور زوجى ، ولكنه لم يحفل ‥ ولا حفل برنادوت، فهو لم ينقذ فرنسا للامبراطور !

وكانت تواتينى من«جولى» انباء ما يجرى فى الخارج‥ لقد عادت وجوزيف أخيرا بعد ان اباد الوطنيون الاسبانيون ـ بمؤازرة الانجليز ـ القوات التى كان نابليون قد امد بها اخاه ، والتى اصر جوزيف على ان يتولى قيادتها رغم جهلـــه ‥

ولكن ‥ لشد ما يخيل لى ان جوزيف ـ وكل أهل نابليون واصفيائه ـ لن يترددوا فى أن يهجروه لو ان موقفه ساء ‥ عدا جوزيفين .. انها الوفية الوحيدة له ، ومع ذلك فقد سمعت انه يفكر فى طلاقها ليتزوج من ابنة امبراطور النمسا كى تنجب له ولى عهد .. مسكينة جوزيفين !

« فوشيه » و « تاليران » : أقوى معاونى نابليون

زارنا بالامس ضيف لم نكن نتوقعه ‥ الكونت تاليران ، اقوى من فى خدمة نابليون بعد فوشيه ‥ وسأل زوجى فى سياق الحديث عما اذا كان يتلقى انباء من الخارج ، فاجابه : «سل فوشيه فهو يقرأ كل بريدى !»

ـ أولم تتلق تحيات من اصدقائك فى السويد ؟‥ لقد اطلعنى عليها فوشيه ، ولكننى لا ارى التحيات مجرد امور طارئة عارضة ، وانما ‥

ـ لقد خلع السويديون ملكهم جوستاف فى مارس الماضى ونصبوا بدلا منه عمه شارل الثالث عشر ‥ وقد تبنى هذا شابا من اقربائه ليخلفه على العرش ، وهو الامير «كريستيان اوجستس فون هولستين سوندربيرج اوجستنبرج

ـ أذكر ان الامبراطور ترك امر غزو السويد لتقديرك حـــين كنت فى الدانيمرك مع قواتك فى العام الماضى ‥ ولكنك قنعت بمجرد المراقبة عبر الحدود ، فهل راق لك ما رأيت ؟

وهز زوجى كتفيه وقال : «معظم الليالى كانت مشوبة بالضباب ‥ لقد سئمت اسئلتك يا صاحب السعادة ، ومللت مراقبة وزير البوليس ، وضجرت من الشك »

ـ اسمع يا صديقى ‥ هناك رجاء واحد ‥ لقد علمت بالامس ان مجلس الدولة السويدى ارسل وفدا الى باريس للمفاوضة فى استئناف العلاقات الدبلوماسية ‥ ولقد سأل عنك ابرز عضوين فى هذا الوفد ، وهما مسيو فون اسن وكونت بيرون ، فارجو ان تستقبلهما ‥

ــ ولماذا ؟ .. ليس بوسعى ان اساعدهما لدى الامبراطور .. فاجهر بما تبغى يا صاحب السعادة !

ــ كل ما ارجوه ان تستقبلهما وتتلطف معهما ، فلست احب ان يشعرا بأن الامبراطور فى هذه الآونة لا يقدر خدمات قائد من قادته .. فهل أدركت ما ابغى ؟

- ٨ -

(باريس فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٠٩)

◆ **ما افظع** ما حدث !.. لقد جمع الامبراطور بالامس اسرته وحكومته وحاشيته وقادته ، واعلن امامهم تطليقه لجوزيفين !.. كان المنظر مؤلما .. وكانت جوزيفين تبدو كالفدائية المقدمة على الاستشهاد .. وقد قرأ الامبراطور بنفسه وثيقة الطلاق ، واعترف بان امرأته كانت بهجة حياته لثلاثة عشر عاما ، وانه لذلك قرر ان تظل محتفظة بلقب «امبراطورة فرنسا»

وبارحت جوزيفين قصر «التويليرى» لتقيم فى قصر «ماليزون» الذى وهبها اياه الامبراطور ، كما سدد جميع ديونها ورصد لها ثلاثة ملايين من الفرنكات معاشا سنويا ..

وتمت اجراءات الزواج الجديد سريعا .. ودعينا الى «التويليرى» بالامس لنقدم الى الامبراطورة الجديدة .. وبدت «مارى لويز» صغيرة السن، انيقة ، جميلة ، حتى لا تكاد تستعمل شيئا من مساحيق واصباغ الزينة !.. ولم تكف عن الابتسام .. ولكننى تبينت حين قدمت اليها ان عينيها كانتا خلوا من الابتسام !

واذ كنت أهم وزوجى بالانصراف ، اعترض تاليران طريقنا ليقدم لنا عددا من السويديين .. ونظر برنادوت الى واحد منهم يدعى « البارون كارل اوتومورنر» ــ كان قريبا لقائد قد اسره زوجى فى معركة «لوبيك» ــ وقال :

ــ اظنك من زعماء الحزب الاتحادى فى السويد ، الذى يدعو الى توحيد السويد والنرويج ..؟

وقال مورنر : «انما جئت لمهمة محزنة ايها الامير .. لقد قتل صاحب السمو الملكى ولى عهد السويد فى حادث مؤلم ..»

واشتدت قبضة زوجى على ذراعى حتى كدت اصرخ !.. بينما تساءل تاليران بعد صمت واجم : «هل اختير ولى للعهد يخلفه ؟»

ولاحظت ان نظرات «مورنر» لا تكاد تحيد عن زوجى .. وقال اخيرا : «سيجتمع البرلمان السويدى فى ٢٥ اغسطس ليختار وريثا للعرش»

وجذبت زوجى ، فانحنى قائلا : «ارجو ان تقدموا تعازى لملك السويد وشعبه »

وهنا لم يتمالك «مورنر» نفسه فهتف : «اهذا كل ما لديك ؟»

فظل زوجى صامتا برهة ، ثم التفت الى الكونت «براهه» الذى كان من رجال السفارة السويدية ـ وهو شاب فى التاسعة عشرة ـ وقال : **«ارجو ان تذكر اصدقاءك وزملاءك باننى لم اكن طيلة عمرى أميرا لبونت كورفو ، ولا ماريشالا لجيوش فرنسا ٠٠ بل اننى ادعى فى اوساطكم الارستقراطية جنرالا يعقوبيا سابقا .. وقد بدأت الخدمة كجاويش بسيط .. ارجو ان تذكروا هذا ، فلا تتصلوا بى ثانية !»**

وقبل ان تتحرك عربتنا فى ذلك المساء ، اقترب تاليران من زوجى وقال: «لقد اوتى المرء نعمة الكلام ليتستر على افكاره يا عزيزى الامير»

فأجاب برنادوت : «ايليق بى ان اذكر رجلا مثلك ، كان اسقفا ، بما جاء فى التوراة : «لتكن اجاباتك : نعم ، نعم ٠٠ او لا ، لا ، وما زاد على ذلك فهو من الشرير ! »

- ٩ -

(باريس فى سبتمبر سنة ١٨١٠)

◆ **كنا** فى جوف الليل حين ايقظنى زوجى وامرنى بأن ارتدى ثيابى ٠٠ وكان منهمكا فى ارتداء ثوبه العسكرى ٠٠ وعلمت انه امر بابننا اوسكار ان يوقظ ٠٠ وأبى ان يوضح شيئا اكثر من اننى يجب ان ارتدى اجمل ثيابى واثمنها ٠٠ وان اتعجل ، لكى لا اطيل «انتظارهم» !٠٠ وسألته عن هؤلاء المنتظرين فقال :

ـ تجلدى يا صغيرتى ٠٠ هذه اعظم لحظات حياتى !

وتأبط ذراعى ثم سار بى الى القاعة الكبرى بدارنا، وقد انضم الينا اوسكار ٠٠ وكان النور ساطعا فى القاعة التى رأيت فيها عدة افراد فى ثياب عسكرية اجنبية ، وصك شاب منهم كعبى حذاءيه ، وقد بدا مغبرا متعبا ـ مما دل على انه وصل لتوه من رحلة طويلة ـ ثم تقدم الى زوجى وقدم له وثيقة مختومة وهو يقول :

ـ تفضل يا صاحب السمو الملكى ٠٠

وحبست انفاسى ٠٠ واضطربت دقات قلبى .. وتناول برنادوت الوثيقة، بينما قال الشاب : «يا صاحب السمو الملكى ٠٠ اتشرف بوصفى رئيسا لديوان جلالة الملك شارل الثالث عشر ـ ملك السويد ـ بأن انبئكم بأن

البرلمان السويدى قد اختار بالاجماع امير بونت كورفو وريثا للعرش ٠٠ ويرغب جلالة الملك شارل الثالث عشر فى ان يتبنى امير بونت كورفو وان يستقبله فى السويد ابنا عزيزا»

وفى صوت مهيب اجاب زوجى : «أقبل قرار البرلمان السويدى ، وأشكر جلالة الملك شارل الثالث عشر والشعب السويدى لما اولونى من ثقة ، واقسم بأن ابذل كل قواى فى سبيل أن أكون وفيا لهذه الثقة »

وانحنى الجميع تباعا بين يدى زوجى ويدى ٠٠ دليل الولاء !

(باريس فى منتصف سبتمبر سنة ١٨١٢)

◆ **أكاد** أجن ، فليس معى من يشاطرنى افكارى ، سوى الامين السويدى الذى يقوم منى مقام السكرتير ٠٠ ولقد كان فى زيارتى منذ برهة الكونت تاليران ، وامير بنيفان ــ مستشار وزارة الخارجية الفرنسية ــ وفوشيه ، دوق اوترانتو ووزير البوليس السابق ٠٠ وكان كل من تاليران وفوشيه قد اقبل على حدة ، فساءه ان يلقى الاخر !

وعرفت أمينى «كونت روسن» بالضيوف ٠٠ ثم اشرت فى مجاملة الى الانتصارات التى اذيعت عن الحملة الفرنسية فى روسيا ٠٠ وقال تاليران : «هل تعتقدين ان الظفر سيظل مرافقا الامبراطور يا صاحبة السمو ؟»

وتذكرت اننى لم اعد فرنسية ، فان زوجى قد نزل عن التبعية الفرنسية حين غدا ولى عهد للسويد ، فقلت :

ــ ان الامبراطور لم ينهزم حتى اليوم فى حرب ٠٠

وتساءل فوشيه بعد فترة صمت ممض : «هل تلقيت يا صاحبة السمو الملكى انباء من صاحب السمو الملكى ولى العهد ؟ »

فضحكت قائلة : «انك لم تعد تقرأ رسائلى ٠٠»

ــ لقد سأل قيصر روسيا ولى عهد السويد ان يلقاه فى «آبو» ، وقد غادر ولى العهد بلاده ٠٠

وقال تاليران : «ان مشورة ماريشال فرنسى سابق ، خبير باساليب الامبراطور ، هى خير ما يرجو القيصر»

ــ وبناء على هذه المشورة لم يطلب القيصر صلحا ، بل ترك جيوشنا تتوغل فى بلاده ٠٠ ولن تلبث ان تصل الى موسكو بعد ايام قلائل ٠٠ ولقد وجد الجيش الفرنسى مخازن القمح فى القرى التى اجتاحها محروقة .. وهو فى نصره يتضور جوعا ، ولكن الامبراطور يطمع فى ان يجد غذاء لجنوده ومأوى من الشتاء فى موسكو ٠٠ اذا دخلها !

وقال تاليران : «ان عدم وجود مأوى فى شتاء روسيا كفيل بالقضاء على أقوى الجيوش عدة واكثرها عددا ! »

واذ ذاك .. بدأت أفهم الموقف ..

وتوالت انباء المأساة التى حاقت بالجيش الفرنسى فى روسيا .. وهكذا لن يلبث ان يعود نابليون الى باريس ، اذ ليس امامه سوى احد امرين : اما ان يسعى للصلح ويتخلى عن فكرة السيادة على اوربا .. او يواصل الحرب .. اما فرنسا ودماء ابنائها والالام التى تعانيها ، فلا حساب لها فى خططـــه !

(باريس فى الاسبوع الاخير من مارس سنة ١٨١٤)

◆ **اننى** اقضى ايامى فى هواجس وتكهنات .. لست ادرى اين زوجى .. ولكننى اعرف انه قادم عما قريب .. ان المانيا وفرنسا تفصلان بيننا ، وتؤلفان ميدانا للقتال مترامى الاطراف .. ومن وقت لاخر ، تصلنا خلسة احدى الرسائل المقتضبة .. ومنها علمنا ان برنادوت ابى ان يطارد القوات الفرنسية عبر نهر «الراين» .. ولكنه عمل على ضم النرويج الى السويد .. ونجـــح ..

ولكن ، اين هو الان ؟ .. لقد اختفى منذ ثلاثة اسابيع .. فبعد ان رفض اجتياز «الراين» ، والصدوع لالحاح الحلفاء ، استقل عربة مصطحبا «الكونت براهه» .. واختفى .. ويعتقد البعض ان نابليون فى يأسه طلب منه النجدة .. وانه اختلف مع القيصر بشأن الحدود ..

- ١٠ -

(باريس فى أوائل مايو سنة ١٨١٤)

◆ **أخيرا** ، رحل نابليون الى جزيرة «البا» فى ٢٠ ابريل ، وليس فى وداعه ماريشال واحد !

وفى صحيفة «جورنال ديه ديبا» وقعت عيناى على نبأ غريب، فحواه انولى عهد السويد قرر طلاق زوجته «ديزيريه كلارى» شقيقة زوجة شقيق نابليون، ليختار زوجة أخرى من أميرات روسيا أو بروسيا .. لتدعيم مستقبله !

ولقد اقمنا بعد ظهر اليوم حفلة لتكريم القيصر .. وشد ما اقلقنى ان احضر القيصر معه «كونت دارتوا» شقيق ملك فرنسا الجديد ، لويس الثامن عشر ..

ومنذ لحظات ، صعد زوجى الى مخدعى ، فتفرس فى وجهى ثم هتف : «ارجو ان لا تكونى مريضة يا ديزيريه ؟ .. فلقد جئت اودعك ، لاننى راحل فى الصباح الباكـــر »

ودق قلبى فى عنف ، بينما استطرد قائلا : «لقد اديت واجبى .. فدخلت باريس مظفرا ، ووقعت اتفاقيتين مع دانيمرك واعترفت الدول الكبرى بضم النرويج للسويد »

وفجأة ، وقع بصره على النبأ الذى كان فى «جورنال ديه ديبا» ، فقال : « لا وقت عندى للاشاعات السخيفة والفضائح .. انما جئت لكى اقترح ان تصحبينى فى نزهة بالعربة فى باريس ، كما اعتدنا»

وجاهدت كى اتمالك نفسى وقلت : «للمرة الاخيرة ؟» .. فتطلع الى فى حيرة .. ووجدتنى اسرع فارتدى ثيابى .. وتذكرت وانا الى جواره فى العربة ، المرة الاولى التى جلسنا فيها معا فى عربة .. يوم انقذنى من الانتحار.. ووجدتنى اقول :

ـ اذا كنت تعتقد انه من الخير لك ولاوسكار ان تطلقنى وتتزوج من اميرة ؟ فطلقنى ولكن على شرط .. ان اغدو خليلة لك !

ـ هذا امر غير مقبول .. لست استطيع ان احتفظ بعشيقة يا ديزيريه .. ومن ثم ، فسيتحتم عليك ان تظلى زوجتى .. مهما حدث ..

ـ ولو .. اصبحت ملكا ؟

ـ حتى لو اصبحت ملكا .. متى تلحقين بى فى ستوكهولم ؟ .. لا تطيلى الغيـــاب !

فرار الامبراطور من « البا » !

◆ ولم ينعم لويس الثامن عشر بالعرش طويلا .. بل اضطر فى الليلة السابقة ان يتسلل من الباب الخلفى للتويليرى .. وفر آل بوربون من البلاد .. فقد هرب الامبراطور من «البا» منذ ستة عشر يوما .. والاستعدادات تقوم الان على قدم وساق لاستقباله فى التويليرى .. ومن المتوقع ان يصل اليه فى الساعة التاسعة من هذا المساء .. فقد سارع قادة الجيش وفرقهم بالسجود امامه فى كل مرحلة من رحلته .. ولاء ووفاء !

وفى الساعة الثامنة من المساء ، اقبلت عربة ـ لا تزال تحمل شعار آل بوربون ـ لتقل جولى واولادها الى «التويليرى» .. مرة اخرى !

وسمعت الكونت روسن يتمنى لو شهد منظر وصول نابليون الـى التويليرى ، فطلبت اليه ان يرتدى ثيابا مدنية ، ورافقته مستخفية فى ثوب عادى .. ورحنا نشق طريقنا فى عناء وسط الجحافل العرمة التى فاضت على الشوارع تسعى الى «التويليرى» وهى تهتف بحياة الامبراطور ..

وعندما وصلت العربة التى أقلته ، أفلت العنان وهجم الشعب المتحمس فرفعه على الاكتاف .. وكان يبتسم .. وعلى ضوء المشاعل رأيت عينيه تومضان بالجشع .. والظمأ !

*

(باريس فى ٢٣ يونيه سنة ١٨١٥)

◆ **بادر** نابليون الى اجراء انتخابات ليثبت للدول الاجنبية مدى كراهية الشعب لآل بوربون .. واستلفت نظرى بين اسماء النواب الذين فازوا بعضوية الجمعية الوطنية ، اسما «لافاييت» و «كارنو» .. «لافاييت» اول من نادى بحقوق الانسان والذى كون كتيبة رحل بها الى امريكا ليحارب فى معركة الاستقلال ، وهو بعد فى التاسعة عشرة من عمره !

ويقيم زوجى برنادوت فى ستوكهولم ، وقد رحل سفيره مع الديبلوماسيين الاجانب ، اذ أبت الدول الاجنبية ان تتبادل علاقات ديبلوماسية مع نابليون .. بل انها تحشد قواتها استعدادا .. ومن ثم شرع نابليون بدوره يجند ويحشد .. ولكن القادة القدماء الذين ساروا يوما فى ركابه وهو مظفر ، يتهربون اليوم من الوقوف الى جواره !

وقد أصدر منذ ثلاثة ايام نداء يدعو فيه كل فرنسى شجاع الى الدفاع عن بلاده .. واقفرت الملاهى .. واقبل الناس يختزنون الاطعمة .. وعاشت باريس واجفة ترتقب ..

ولم يستطع نابليون ان يصمد .. ووقع الانقلاب .. فانطلقت الجماهير فى الشوارع تهتف : «يسقط آل بونابرت» .. وشرعت الحكومة الجديدة تفاوض الحلفاء ..

*

(باريس فى مساء ٢٩ - ٣٠ يونيو سنة ١٨١٥)

◆ **ان** سيف «الامبراطور» على منضدتى .. وكنت رسول القدر اليه .. ويقولون اننى أديت واجبا وطنيا ، ولكن قلبى مثقل بالهموم ..

فلقد اشترط الحلفاء الذين احدقوا بباريس وشددوا عليها الحصار ، ان تستسلم القوات الفرنسية بلا قيد ولا شرط .. وان يغادر نابليون فرنسا فورا !

وجاءنى اعضاء الحكومة يرجوننى ان اكون الرسول الذى يحمل شروط الحلفاء ، ورغبة الحكومة والشعب ، الى نابليون .. ومن عجب ان فوشيه وتاليران ولافاييت كانوا اكثرهم الحافا فى الرجاء .. وقال تاليران :

ـ انك يا صاحبة السمو ولية عهد السويد ، فلك من المكانة ما يؤهلك لان تتحدثى الى الجنرال بونابرت باسم الحلفاء ..

وتكلم لافاييت فى صوت مهيب ، عميق ، رفيق :

ـ انك لا تعرفين الحقيقة يا صغيرتى .. لقد جمع الجنرال بونابرت بضع كتائب من الشباب فى «مالميزون» ، ونخشى ان يركب رأسه ، فلا يجنى سوى اراقة دماء عدة مئات من الرجال .. لقد كبدت حروب الجنرال

بونابرت اوربا ملايين من الارواح ..

وقبلت المهمة .. وحاولت ان اتظاهر بانها زيارة عادية للميزون .. وكان فى حديقة القصر حين وصلت ، فسعيت اليه وحدى

ووجدته يجلس على مقعد صغير - لا يتسع لاكثر من شخصين - كان حبيبا مفضلا لدى جوزيفين .. وكان وجهه شاحبا .. وسألنى كيف تحمل سيدة عادية فى زيارة ودية ، رسالة الحكومة ، فقلت له :

- لست زائرة عادية .. انما انا .. ولية عهد السويد !.. لقد كلفتنى الحكومة الفرنسية بان انبئكم ان الحلفاء لن يقبلوا استسلام باريس مالم تبرح فرنسا .. ولابد لانقاذ باريس من الدمار ، ان ترحل اليوم ..

ولم يثر ، بل اجلسنى بجواره فى هدوء وقال :

- عندما رأيتك مقبلة يا سيدتى ، خلت ان شبابى قد ارتد لى ..

- ان العهد لم يبعد به .. ما زلت اذكر كيف كنا نتسابق .. انما يبدو انك نسيت تلك الليلة التى مضيت تحدثنى فيها عن قدرك وحظك ومستقبلك .. كانت المرة الوحيدة التى ارتعت فيها منك ..

- والمرة الاولى التى قبلتك فيها !

وسادنا الصمت .. ورحت ادعو الله كى لا تنهار ارادتى ..

وقال اخيرا : «**واذا تركتهم ياخذوننى اسير حرب .. ماذا ترينهم فاعلين ؟.. أياخذوننى الى جزيرة اخرى ؟.. لعلها سانت هيلانة .. الصخرة التى فى وسط المحيط**»

واومضت عيناه ذعرا .. ومال الى الامام يفكر .. ونهضت قائلة : «اننى عائدة الى باريس .. وانت لم تعط ردك بعد ، لا لولية عهد السويد ، ولا للحكومة الفرنسية»

وقهقه فجأة ، فذعرت .. وصاح وهو يتحسس سيفه :

- هل تريننى استطيع ان اصدهم عن ان ياخذونى اسيرا .. لا ، خذيه يا اوجينى .. خذى سيف ووترلو !.. اننى اسلم نفسى للحلفاء كأسير حرب .. ومن العادة ان يسلم المرء سيفه الى الضابط الذى يأسره .. اما انا ، فاسلمه لولية عهد السويد .. لاننا بلغنا سياج الحديقة يا اوجينى ، وقد سبقتنى اليه .. اتذكرين ؟ .. امسكى السيف من المقبض .. اينتظر تاليران وفوشيه فى دارك كى يسلما فرنسا الى آل بوربون ؟.. اريهما سيفى ، وقولى لهما اننى سلمت للحلفاء ، واننى سارحل الى روشفور، ثم اترك مصيرى بين أيدى الحلفاء !

وصمت نابليون برهة ، ثم اضاف : «لعلك لم تقضى يوما بين الحياة والموت يا سيدتى ؟»

- فى الليلة التى خطبت فيها فيكونتس دو بوهارنيه .. وقد حاولت ان القى بنفسى فى «السين» .. فجذبنى برنادوت ..



فهز رأسه وقال : «يا للعجب !٠٠ برنادوت انقذك ٠٠ وستصبحين ملكة السويد ٠٠ اننى اسلمك سيف ووترلو ٠٠ والان اذهبى يا اوجينى ٠٠ انصرفى سريعا ٠٠ قبل ان اندم» !

❇

وسرى النبأ فى باريس مسرى النار فى الهشيم ٠٠ واقبلت الجموع كالموج الدافق على دارى ٠٠ كان الكل يعيشون واجفين ٠٠ ويخشون ان تراق دماء جديدة ٠٠

واصر الشعب على ان يعتبرنى منقذة فرنسا ، وان يحيينى ٠٠ ودفعنى «لافاييت» الى الشرفة ، فتصاعد الهتاف: «تحيا ربة السلام!٠٠ تحيا ربة السلام ! » ٠٠ واحضر كونت روسن لى مقعدا لاقف عليه ، فقد كنت قصيرة لا أكاد أبدو للشعب ٠٠ وانهمرت الدموع من عينى !

❇

◆ **اخيرا** ، حانت اللحظة .. وكنت اعزف على «البيانو» ، والجو معتم ممطر ، حين وفد السفير السويدى ٠٠ واعتدل فى وقفته امامى وابتدرنى قائـــلا :

« يا صاحبة الجلالة ٠٠ اننى احمل انباء سيئة ، فقد توفى الملك شارل فى الخامس من فبراير »

ودفع لى برسالة مختومة ، فتناولتها بيد مرتجفة ٠٠ وفضضتها .. ثم تركتها تقع على ركبتى ، وتطلعت الى السفير الذى كان يراقبنى ٠٠ وحاولت ان اكبح الفرح مراعاة للحداد ، وقلت « لقد كتب لى زوجى يذكر لى اننى أصبحت ملكة السويد»

فابتسم قائلا : «فى السادس من فبراير ، نصب جلالته ملكا للسويد والنرويج تحت اسم الملك شارل الرابع عشر ٠٠ واعلنت زوجته ملكة باسم الملكة ديزيدريا »

*

من العجيب أن تكون هذه الصحيفة آخر صفحات دفتر المذكرات الذى أهدانيه أبى وأنا فى الرابعة عشرة ، والذى نصحنى بأن أكتب فيه : « سيرة المواطنة الفرنسية برناردين أوجينى ديزيريه كلارى »

لقد كتبت القصة بحذافيرها يا أبت ، دون ما زيادة ٠٠ وقد انتهت حياة المواطنة ٠٠

٠٠ لتبدأ حياة الملكة !

الخالدون



عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التـوالى قصص حياة : ((ديفاليرا)) .. و ((غاريبالدى)) .. و ((لويس باستير)) .. و((اميل زولا)) .. و((ماركونى)) .. و((تشايكوفسكى)) .. ((فمصطفى كمال)) .. ثم ((شوبان)) .. و((جى دى موباسان)) و((مختـار)) و ((تشارلس ديكنز)) و ((بيتهـوفن)) و ((موسولينى)) وأخيرا ((شيللى)) ثـم ((بلزاك)) وهم من أولئك العظماء فى السياسة، والطب، والادب، والاختراع والموسيقى .. والفنون .. الخ

واليوم اقدم لك فيما يلى كتابا عـن حياة الشاعر الفرنسى الخالد ((بودلير)) صاحب ديوان ((أزهار الشر))

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيـد : لورد بيـرون ، براوننج ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشة، أرسطو .. بوذا، كونفشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جـوته ، أديسـون ، فـورد .. والتر سكوت ، ديماس ، دستويفسكى .. كولمبوس ، الاسـكندر المقـدونى بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. مايكل انجلو ، رفاييل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم



بودلير

الشاعر الرجيم

للناقد الأديب "مارتن ترنيل"

أدب بودلير

◆ **كان** « بودلير » كاتبا مبدعا فى أكثر من ميدان : كان أعظم شعراء عصره ، وأعظم نقاد زمنه ٠٠ وكان مترجما بارعا ، ومن مبتكرى الشعر المنثور الحديث ٠٠ وكان عدا كل هـــذا مؤلف رسالة رائعة عن تأثير المخــدرات ، وحامل لواء بعض الآراء الرفيعة عن الحياة ، والحب ، والسياسة ٠٠!

ومع ذلك ، فقد كان من أكثر شخصيات جيله غموضا ٠٠ ظهر فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، وهو قرن كان من المستبعد أن ترى فيه فرنسا نهضة أدبية ، فاذا به يصبح من أزهى عصور الادب فيها ٠٠ فقد كانت فرنسا عندئذ حائرة ، تجتازمرحلة الانتقال من الاقطاع والسيطرة الدينية الى الصناعة والاساليب العلمية ٠٠وفى غمرة هــذا الانقلاب ، لم يتيسر للشاعر أن يجد المادة لاشعاره حاضرة، كماكان عهد أسلافه، بل كان عليه أولا أن يخلق الظروف التى توحى اليه بالشعر ٠٠ فاقتضاه ذلك أن يخلق « تيارا من الافكار » لتغذية فنه وانعاشه وأن يعمل من ناحية أخرى على القضاء على كل ما يناوىء هذا الفن من آراء وأفكار ٠٠

ومن هنا نرى قدرا كبيرا من انتاج « بودلير » ـ سواء فى الشعر أو فى النثر ـ يهدف الى كشف فساد المجتمع والحملة عليه ٠٠ ولعل من علامات نبوغ « بودلير » حقا ، أن شعره نبع من الصدام الذى حدث بين الفرد والمجتمع ، وانه وفق الى أن يحيل العقبات التى كانت تعترض الكاتب فى عصره ، الىموارد للقوة الادبية ٠٠ **ومن الطريف أن الكثير من شــعره لا يزال يحتفظ بما كان له من وقع ، لان الفساد الذى كان يصارعــه لا يزال قائما رغم مرور الزمن !**

يبتكر مقاييس جديدة للفن والجمال

وليس معنى هذا أن نجاح « بودلير » تأتى عن حملاته الاصلاحية ٠٠ وانما يعزى هذا النجاح الى أنه ـ ككاتب وشاعر وأديب ـ نجح فى التحرر من القيود القديمة التى كانت تجعل من الفن « حرفة » ، فخاض كفاحه الادبى والاجتماعى بآراء جديدة فى القيم والاوضاع ، تكشفت لبصيرته فآمن بها وقام يدعو اليها قبل أن تتكشف لسواه من معاصريه الذين لم يؤتوا قريحة وبصيرة ٠٠ ومن ثم كان مبتكرا ومجددا ومبدعا ٠٠ وقد حمل « بودلير » فى أشعاره مشعل الخيال الشاعرى ، **وآمن بأن على الشاعر أن يبحث عن مادته فى أعماق نفسه ، لا أن يتبع أسلافه فى التغنى بأوضاع ثابتة للجمال ، أى أن رسالته أن يترجم الجمال كما تراه مشاعره وأحاسيسه المرهفة ٠٠ ومن ثم نرى لبودلير تعبيرات تغاير ما اصطلح عليه شعراء الماضى** ٠٠ نراه في حديثه عن العطور يصفها بأنها : « لها امتداد الاشياء اللانهائية ! » ٠٠ وفى وصفه للافيون فى قصيدة (السم) يقول : « الافيون يكبر ما لا حجم له ٠٠ ويبسط ما لا حد له ٠٠ ويمد الوقت ٠٠ ويذكى الغواية ٠٠ »

فبودلير بهذا يؤثر الوصف الخيالى على الوصف المادى الملموس ٠٠ أى لا يصف الشىء كما يبدو حقا ، وانما يصفه كما يتراءى لعينيه على أضواء مشاعره واحساسه ٠٠ **وليس أدل على ذلك من أنه جعل من عشيقته الاولى « جان ديفال » ملاكا رائع الجمال ، فى حين انها كانت سوداء ، مكتنزة الجسم ! ولكنها عين المحب ، رأتها كما كان يحب أن يتصورها !**

وقد عبر بودلير عن مذهبه هذا مرة بقوله : « فيم يهمنى أن أعرف من أى عناصر صنعت الحقيقة القائمة خارج كيانى ، ما دامت هذه الحقيقة تساعدنى على أن أشعر بنفسى وكنهها » ٠٠ ثم بقوله : « ما هى النظرية الحديثة للفن الخالص ؟ ٠٠ ان الفن هو أن تخلق سحرا ايحائيا يشتمل فى آن واحد على الهدف

والموضوع .. وعلى الدنيا القائمة خارج كيان الفنان ، والفنان نفسه ! » .. وهكذا نرى بودلير حين يصور اللون ـ مثلا ـ يبديه كما لو كان ناطقا بصوت ذى جرس ونبرات .. وحين يصور العطر يوحى بالافكار والذكريات التى تتعلق به .. واذا هو، حين يرسم العاطفة، يكاد يجعلك تسمع لها همسا ونجوى! .. **وانه لينطلق فى شعره يبحث عن المثل الاعلى ، أو الكمال ، وهو موقن من أنه لن يجده .. ويرى أن « الشعراء والفنانين وكل أنواع البشر خليقون بأن يشقوا أتعس الشقوة لو ان المثل الاعلى ـ ذلك اللغو والهراء ، ذلك المستحيل ـ قد وجد ! »** .. ثم يقول : « مثل الجمال ـ فى جميع أشكاله ـ كمثل الظواهر الاخرى، ينطوى على شىء خالد أبدى، وشىء آخر عارض، زائل .. شىء مطلق ، وشىء معين .. والجمال المطلق الخالد لا وجود له ، أو لعله مجرد صورة وهمية انعكست عن السطح الخارجى العام لمختلف المرئيات .. والعنصر المميز فى شكل كل منها انما ينبعث عن المشاعر .. ولما كان لكل منا مشاعره الخاصة ، لذلك تباينت أشكال الجمال عند الافراد .. »

أزهار الشر

ترجمة الاستاذ عبد الرحمن صدقى

◆ **وبعد** هذه العجالة عن أدب بودلير، أقدم لك فيما يلى هذه المقتطفات من الديوان الذى خلده : «أزهار الشر» ، وقد ترجمها بأسلوبه الرقيق الشاعر الكبير الاستاذ عبد الرحمن صدقى :

◆ أيها لقارىء المطمئن الوادع .. يارجل الخير ، السليم الطوية ، القانع ..
اطرح من يدك هذا الكتاب .. هذا الكتاب المستهتر الفاجع

◆ اذا كنت لم تتلقن فنون البيان .. على النقيب الماكر الشيطان
فاطرح كتابى، فلست واعيا منه شيئا. أو أنت معتقد بى لوثة العقل والخبال

◆ أما اذا استطاع طرفك ـ غير مفتون .. ان يمعن فى الاغوار
ويغوص فى اللجة الى القرار .. اذا فاقرأنى تتعلم محبتى

◆ يا أيتها النفس المتطلعة .. أنت يامن تألمين فى الوجود
وتحومين باحثة عن فردوسك المفقود .. ارثى لى ! .. والا عليك لعنتى

فى الغـــزل

ومن غزل بودلير فى ديوانه المذكور :

◆ على جسدك يحوم العبير ، حومانه حول مجمرة البخور
شعرك الاثيث الكثيف الفور ، ذو العبير الفاغم الحاد
كبحر من العطر الرجراج لا يستقر .. أمواجه من زرقة وسواد

◆ ومن فرعها الى قدمها ، تتضوع حول سمرة جسمها ، نفحة فاغمة وشذا ذو خطر
يالشعرها ! ياللعطر المشبع بالفتور !
لئن هفت النفوس مع حلو النغمات ، فان روحى ـ ياحبيبتى ـ تسبح من عطرك فى غمرات

◆ حين أكون الى قربك فى ليلة دافئة من ليالى الخريف ، أستنشق مغمض العينين شذا صدرك الحار .. تتراءى لى شواطىء سعيدة ، تسطع عليهـا شمس متوهجة صالبة لا تتغير
هى جزيرة متفترة كسلى ، حبتها الطبيعة أشجارا فريدة وثمارا شهية.. ورجالا أجسامهم ممشوقة قوية ، ونساء يخلبن اللب بنظرتهن الفنجة الناطقة
ويحملنى شذاك الى آفاق ساحرة ، فكأنى بمرفأ يحفل بالقلوع والصوارى، وهى لما تزل منهوكة من عراك اللجج.. وهذا أريج شجر التمر هندى ، متضوعا فى الفضاء يفعم حسى ، ويمتزج بأغانى الملاحين فى نفسى

◆ من رآك تخطرين .. ياحلوة السجية
يحسبك أفعى ترقصين .. على طرف العصية

◆ فى غلائلها الهفهافة المتلألئة ، تمشى مشيتها فتحسبها راقصة .. كتلكم الافاعى الطويلة المائسة ، يرقصها على أطراف العصى حواة المعابد المقدسـة

◆ وتارة هى كالرمال الموحشة ، وقبة السماء على الصحراء .. كلاهما لا يحس ما يلقى ابن آدم من برحاء !.. وكفوارب المرح المتدفعة المطردة فى صفحة الدأماء ، تضطجع مسبكرة متمددة فى غير اكتراث

◆ فى البلاد المتضوعة بالعطر التى تداعبها الشمس الساطعة.. وتحت ظلة ظليلة من شجر وارس أرجوانى .. ومن نخيل تفيض على الاجفان فتورا.. عرفت غانية مستوطنة ذات فتنة لا عهد بها

◆ لونها شاحب حار .. وهذه الفاتنة السمراء، ذات جيد مشرف السمت، نبيل الالتفات .. مديدة القامة هيفاء، كأنها طاردة قانصة..لها ابتسامة هادئة وفى عينيها ثقة

◆ لو جئت ـ ياغانية ـ الى بلاد المجد الاثيل .. على ضفاف السين أو وادى اللوار النضير.. أيتها الحسناء التى تليق زينة لقصور الامراء

اذا لحييتك فى كنف خمائلها الوارفة ، ألف مقطوعة أنت انبت نبتها فى افئدة الشعراء .. وقد سبتهعم عيناك النجلاوان فباتوا أطوع لك من عبيدك!

« سارة » اليهودية

◆ ليست من الغانيات النابهات خليلتى .. وانما عن نفسى أخذت فتنتها كما تؤخذ العارية ، تقتحمها عيون المستخفين وهى غير مبالية ، ولا يزهو لها جمال الا فى مهجتى العانية

◆ ومن أجل حذاء تلبسه فى قدمها باعت روحها .. وان الاله الرحيم ليستهزىء بى لو انى استهزأت بها ، واتخذت بجانب هذه المفضوحة سمت التورع وتظاهرت بالترفع .. وأنا مثلها أبيع فكرى راجيا ان أكون مؤلفا

◆ والادهى فى أمرها جمتها المستعارة .. فقد انحسر شعرها الفاحم الجميل عن بياض قفاها .. فلم يكن ذاك بمانع محبها ، أن يهوى بالقبل على جبينها الاملس كاهاب الابرص

◆ هى حولاء ، ولكن نظرتها الغريبة الحالكة ، تحت سواد أهدابها الوطفاء كأهداب الملائكة ، جعلت جميع الاعين الفتانة النجلاء ، لا تعدل عندى هذه العين اليهودية المدبوغة الحولاء !

◆ صغيرة لا تتجاوز العشرين ، ومع هذا فان ثدييها مسترخيان يتدليان على جانبيها .. وكثيرا ما خلا من درهم كفها ، فلم تجد ما به تحك جلدها وتدلك كتفها

◆ كنت فى بعض الليالى مع يهودية نكراء ، وكأنما كنت جثة ممددة الى جانب جثة .. فأنشأت قرب هذا الجسد المبذول ، أفكر فى الجمال الحزين الذى حرمته

فينوس السوداء

◆ أيتها الربة العجيبة .. السمراء الاهاب مثل جنح الظلام
المزوجة العطر بمثل رائحة المسك والتبغ
ماذا يعنينى عقلك .. كونى جميلة ، وحزينة

◆ أهيم بك هيامى بقبة الليل ، يا آنية الحزن ، ياحليفة الصمت !
وزاد فى حبك أنك تجافيننى ، وانك يا زينة ليالى ـ فى جفاك وسخريتك
تباعدين الشقة بين ذراعى ، وبين سمواتك الداجية الصافية
ولكننى أبدا عارج نحوك أساورك وأصعد اليك، كما يصعد الى الجثة فوج من الديدان .. أنا أيتها الضارية التى لا تشتفى لها غلة، عاشق وامق أهوى حتى جفاك .. فأنت به أبدع فى ناظرى وأروع !

على أن الشاعر الذى يتعبد ـ فى القصيدة السالفة ـ فى محراب معشوقته « الربة العجيبة » ، يهوى بها فى قصيدة أخرى من مرتبة الالهة الى درك الشياطين ، فينشد وهو يتلوى كالطير المذبوح من الالم :

◆ أيتها الداخلة فى قلبى الشاكى كطعنة سكين .. المقبلة فى قوة كعصبة من الشياطين .. المفتونة المتبرجة ، اتخذت سريرها وملكها فى عقلى الراغم المسكين

أيتها الساقطة التى أنا موثق بها ، كالسجين بأغلاله ، ورهين المقامرة بالمقامرة ، والسكير بزجاجة الشراب، والديدان بالجيفة .. لعينة، لعينة أنت!!

ناشدت الخنجر القاطع أن يمكننى من حريتى .. وهتفت بالسم الزعاف أن يغيث نذالتى .. فأزرى بى السم والخنجر ، وناجيانى : لست أهلا لاعتاقك من أسرك المنكر .. فلو عملنا ــ يا مأفون ! ــ على موتها ، وانقاذك من سلطانها .. لآحييت بحرارة قبلاتك جثة معذبتك ومستنزفة دمك !

فينوس البيضاء

.. ويتعرف الشاعر فى احدى فترات قطيعته مع فينوس السوداء «جان ديفال » على محبوبته التالية « مدام سباتيه » ، فيحس أنه وجد فيها الخير والجمال ، أو « الفجر الروحانى » الذى أفتقده عند سابقتها :

◆ حين يدخل الفجر الابيض الزاهر فى قلب الفاجر ، ومعه المثل الاعلى المنشود بوخزه الاليم ، يفعل سره الخفى فعله القاهر .. فاذا فى البهيم الهامد يستيقظ ملك كريم

واذا السموات العلا الروحانية ، ينفتح فلكها المكور البعيد المنال ، غائرا سحيقا ، له ما للهاوية من جاذبية .. للصريع الذى لا يزال متألما حالما بالكمال

كذلك ــ ياربتى الحبيبة ، ياذات الطهر والصفاء ــ على البقايا الداخنة من ليالى العربدة الخرقاء ، تهفو أمام عينى الشاخصة فى الفضاء ، ذكراك وضاءة زاهرة ساحرة بغير انتهاء ..

◆ أيها الملاك الطروب : هل عرفت الالم .. والهوان والسأم ، والنحيب والندم .. والهواجس المبهمة فى الليالى المظلمة .. أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الالم ؟

أيها الملاك السابح فى السعادة والسرور والنور .. فى جسمك الساحر برء للدنف المسحور .. ولكننى ياملاكى لا أسألك الا الدعاء المبرور .. أيها الملاك السابح فى السعادة والنور

على أن بودلير لا ينسى طبيعته ، فاذا بشيطان عشيقته السمراء يعاوده بين الحين والآخر فى ثنايا ترنيماته الروحية لربته الجديدة :

◆ طلعتك وحركتك وسيماؤك ، تحكى فى ناظرى أجمل الرياض .. وضحكتك تشيع فى محياك الوضاء ، مثل النسيم العليل فى صحو السماء وتمرين بالحزين العابر ، فتبهره منك روعة العافية .. تتفجر كالنور الدافق من ساعد ومن عاتق

والالوان الصخابة المجلجلة ، التى تنثرينها فى زينتك .. تلقى فى روع ناظمى الاشعار ، صورة مرقص من مراقص الازهار

هذه الاثواب الموشاة المتبرجة ، عنوان على نفسك المتفننة .. أيتها المفتونة التى أنا بها مفتون ، انى أبغضك بقدر ما أهواك

كذلك ياشد ما اشتهى ، فى ليلة من الليلات وقد أذنت ساعة اللـذات .. ان أدب كاللص الخسيس ، الى ذخائر حسنك النفيس

فأنتقم من جسدك الطروب ، أخدش صدرك الغفور ، وأطعن جنبك المذعور، طعنة نجلاء جوفاء

ثم ياللذة الهوجاء ، حين أهوى على هذه الشفاه الفضة ، الغريرة الباهرة الحلوة .. فأنفث فيك سمى ، يا شقيقة نفسى

الى التى أشاعت فى حياتى ، روحا كالهواء المنعش .. الى التى فى كيانى المجبول من الفناء ، أفرغت طعم البقاء .. الى الملاك المعبود ، تحيتى فى الخلود

لحن الختام

وأخيرا يفغر الفناء هاويته فى أفق حياة الشاعر ، فتوحى اليه النهاية بهذه الابيات « الصوفية » :

◆ تبارك يارب سوط النقم ، تبارك يا أبتاه الالم .. فلم تك نفسى بين يديك ، بألعوبة من هوان لديك .. تعاليت فيما اقتضت حكمتك ، وقدست فيما ارتضت رحمتك

◆ ياموت ! .. أيها الملاح المحنك الموكل بسفر الارواح ، آن الاوان فارفع المراسى ، وهيىء لنا الرحيل .. مللنا المقام هنا ـ ياموت ! ـ فعجل الرواح .. وان ادلهم أمامك البحر والسماء ، فان نفوسنا التى بها ألمت ، يشع منها الضياء

حياة بودلير

◆ «أرجو ان تصدقى كل التصديق حقيقة يبدو أنك تتجاهلينها دواما .. تلك هى اننى لسـوء حظى لم أخلق كغيرى من الرجال ! »

بهذه الكلمات وصف « بودلير » نفسه لامه «مدام اوبيك» فى احـدى رسائله اليها .. وما كان لاحد فى الواقع أن يصفه بخير من هذه الكلمات ، فقد كان «بودلير» مجموعة من المتناقضـات اكتنفها الغمـوض .. ومن الطريف حقا انه كان كذلك حتى بالنسبة لامه ، فكتب اليها يعرفها بنفسه وكأنما شعر أنها لم تعرفه .. رغم أن من العسير أن يفصل مؤرخ أو محلل «بودلير» عن أمه ، اذ أنها لعبت دورا كبيرا فى حيـاته ، فلا سبيل الى الحديث عنه ما لم يمهد لذلك بالحديث عنها !

ومن ثم فمن الطريف حقا أن نتساءل : ما الذى كان يحدث لو أن الشابة ـ أم بودلير ـ هى التى ماتت فى سنة ١٨٢٧ بدلا من أبيه ؟

ولدت «كارولين ارشيمبو ـ دوفاى» فى لندن فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٧٩٣ ـ وماتت فى «اونفلير» فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٧١ ـ وقد ذاقت «كارولين» اليتم فى حداثتها ، فعنى بتربيتها وكفالتها بعض أصدقاء أسرتها ، اذ لم يكن أهلها قد تركوا شيئا من المال ، وان كانت الطبيعة قد عوضتها عن ذلك الفقر واليتم بطلعة مليحة وذكاء لماح ، وطموح متقد ، وطباع سلسة لينة ، مما حدا بجوزيف فرانسوا بودلير الى أن يتزوج منها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨١٩ ، دون ان يصده عن ذلك أنها كانت لا تملك بائنة «دوطة» ما !

وكان جوزيف بودلير اذ ذاك ارملا ، فى السادسة والخمسين من عمره ، تفصله عنها ثلاثون عاما !٠٠ بيد أنه رغم كبر سنه ، كان رجلا من ذلك الصنف الذى لا يروق للنساء فحسب ، بل ويستهويهن ٠٠ وكان قد بدأ حياته العملية مدرسا للرسم ، ثم عين مدرسا خاصا لدى أسرة « دوق دوشوازيل براسلان » ، فعاش فى بحبوحة ورفاهية ـ ورث ابنه عنه الميل اليهما ـ حتى هبت الثورة الفرنسية ، فحرمته المورد الذى كان يوفر له هذا اللون من الحياة ٠٠

وعاد بودلير الاب الى تدريس الرسم للطلاب ، ولكنه ظل وفيا للاسرة الارستقراطية ٠٠ فلم تنسه بدورها عندما استردت مكانتها ونفوذها فى نكسة الثورة ، بل كافأته بتعيينه موظفا فى مجلس الشيوخ مقابل مرتب حرصت على اعفائه من الضرائب !

وما لبث اذ بلغ الثلاثين أن تزوج من امرأة كانت تكبره بثمانى سنوات ، ولكنها كانت تملك ثروة محترمة خلفتها له كما خلفت له ابنا فى التاسعة من عمره هو ثمرة ذلك الزواج ٠٠ وفى نفس العام الذى ماتت فيه حصل هو على معاش طيب لمناسبة اعفائه من الخدمة ، فعاش فى بسطة من العيش جعلته لا يحتمل الترمل اكثر من خمس سنوات ، تزوج فى نهايتها من الفتاة اليتيمة كارولين التى انجبت له فتانا «شارل بيير بودلير» فى ٩ ابريل سنة ١٨٢١ ٠٠ فى باريس !

زواج غير متكافىء !

◆ ولقد نقم «بودلير» الشاعر ، حين كبر ، على هذا الزواج ـ الذى أخرجه الى الوجود ـ فوصفه بانه كان بعيدا عن التكافؤ : سواء من ناحية السن ، أو من ناحية الصحة والتركيب البدنى لابيه وأمه ، وعزا اليه اعتلال صحته ؟٠٠ وقد يكون فى ذلك بعض الصواب ، اذ أن اباه حين تزوج

من أمه كان فى حوالى السادسة والخمسين ، كما أن أمه كانت مصـــابة بالنورستانيا العقلية ٠٠ بيد اننا نلمس تحامل « بودلير » فى نقمته اذا ما عرفنا أن اباه كان من المثقفين الاذكياء النابهين ، وأن أمه هى الاخرى كانت ذات عقل نابه ٠٠ ومن هنا يحتمل أن يكون شاعرنا قد ورث عبقريته عنهما !

ومات «فرانسواز بودلير» فى ١٠ فبراير سنة ١٨٢٧ ـ أى قبل أن يستكمل «شارل» عامه السادس ـ وهنا نعود الى سؤالنا الاول : ما الذى كان يحدث لو أن أمه هى التى ماتت بدلا من أبيه ؟

ذلك لان الام لم تمكث أرملة أكثر من تسعة عشر شهرا ، ثم تزوجت ثانية٠٠ وكان هـذا الزواج صدمة لبودير الصغير ، اذ أن المرأة فى حياتها مـع الزوج الاول ، المكتهل المعلول لم تجد منفثا لعواطفها الشابة سـوى ابنها الصغير ، فراحت تضفى عليه الحنان وتغمره بالحب ٠٠ فلما تزوجت للمرة الثانية وشاء القدر أن يكون زوجها الجديد «الميجر أوبيك» ضابطا شـابا ، وسيما ، ذكيا ، توفر فيه من الصفات ما كان ينقص «فرانسوا بودلير» فأقبلت عليه بكل ما كانت تعانى من جفاف عاطفى ٠٠ وأصبح ابنها فى المرتبـة الثانية من حياتها !

وكان من الطبيعى أن يشعر الصبى ـ وهو الذى تعلق بأمه لما كان يلقـاه منها فيما قبل ـ بأن هذه الام خدعته ، وتخلت عنه ، ونبذته ٠٠ فتـولاه نفور من زوج أمه ، ولم ير فيه سوى «دخيل» أفسد عليه هناءه !٠

هل كان مصابا بعقدة « أوديب » ؟

◆ **ولقد** ذهب بعض الكتاب الى أن سر نفور «بودلير» من زوج أمه كان يرجع الى ما أسماه «فرويد» ـ العالم النفسى ـ بـ «عقدة أوديب» ٠٠ فزعموا أن العلاقة بين بودلير وأمه كانت مشوبة بالابهام ٠٠ بل غالى البعض فقال انها «لم تكن بريئة تماما» ، واستدلوا على ذلك بما كان يشعر به الابن والام من حـــب وكراهية غريبين ومجتمعـــين ٠٠ لكن هذا فى الواقـع نوع من التجنى ، اذ أن «بودلير» لم يكن قد أتم السادسة حين مات ابوه ، وكان فى منتصف الطريق بين السابعة والثامنة حين تزوجت أمه من «أوبيك» فضلا عن أن الكراهية التى خالطت الحب ـ بين الابن والام ـ لها ما يبررها فيما جرى بعد ذلك من أحداث ٠٠

ولم يتناه الينا عن حياة بودلير فى صباه سوى النذر اليسير ، الذى نفهم منه انه ألحق بمدرسة «كوليج رويال» فى ليون ـ حيث كان زوج امه قد أوفد لقمع بعض الاضطرابات ـ فلم يكشف فى دراسته عن أى تفـوق ظاهر ، اللهم سوى انه ظفر بجائزة فى الرسم ٠٠ حتى اذا عادت الاسرة الى باريس ألحق بودلير بمعهد «ليسيه لوى لوجران» ، حيث قـدمه زوج

أمه مفاخرا بأنه «تلميذ سيشرف المدرسة» !.. ولكنه على العكس ، لم يبد شيئا من التفوق ، بل كانت التقارير المدرسية عنه سيئة .. وكان متمردا ، لا يهتم بشيء من دروسه عدا الشعر اللاتينى الذى فاز بجائزة فيه فى سنة ١٨٣٧ ، فى مباراة عامة كانت تعقد بشأنه بين مدارس فرنسا جميعا ..

ومع ذلك فقد انتهت حياته المدرسية بوصمة مشينة أدت الى فصله من المدرسة .. وقيل أن أحد زملائه زعم انها فضيحة أخلاقية !.. ولكن الاغلب أن سبب الفصل يرجع الى أنه رفض أن يسلم لاحد المدرسين وريقة دفعها اليه تلميذ آخر أثناء الدرس ..

حياته فى الحى اللاتينى

◆ وعهد به بعد ذلك الى مدرس يدعى «لاسيج» ، أقام بودلير فى داره وتتلمذ عليه حتى نال « البكالوريا » فى أغسطس سنة ١٨٣٩ .

وأثار نجاحه خلافا بينه وبين أهله حول مستقبله .. فلقد شاءت أمه وزوجها أن يدرس ليلتحق بالسلك الديبلوماسى ، سيما وأن «اوبيك» قد أصبح « بريجادير جنرال » وكان على علاقة بدوق أورليان ، فكان من الميسور تعيين ابنه بودلير فى منصب دبلوماسى .. بيد أن الشاب لم يأخذ برأيهما ، بل أنه اذهلهما اذ أعلن عزمه على أن يصبح أديبا كاتبا !

وانتهى الامر بأن الحق بمدرسة «دى شارت» للاداب ـ حيث قيل انه واظب على حضور المحاضرات عشر سنوات متوالية ـ واقام فى «بنسيون» بعيدا عن بيت الاسرة ..

وكان «الحى اللاتينى» فى ذلك العهد ، مدينة للطلبة حقا ، فاقبل بودلير على حياة الطالب ، لاسيما الجانب المرح منها .. وسرعان ما أصبح من اشهر الشخصيات فى اوساط الطلبة ، وانغمس فى الديون .. ويحتمل أن يكون قد أصيب فى هذه الفترة من حياته ، بالمرض التناسلى ـ الزهرى ـ الذى يقال انه كان سبب موته بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ..

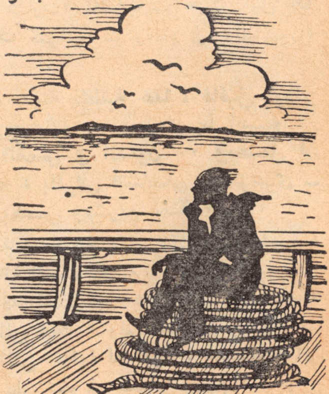
على أنه لم ينعم بحياة الطلبة الطلقة المتحررة هذه لاكثر من عامين ، قلقت أسرته بعدهما من جراء اسرافه ، وبطانة الاصدقاء الذين كان يلوذ بهم .. ورغم قيام زوج أمه «أوبيك» ـ وكان قد أصبح «جنرالا» ـ بتسديد ديونه .. فان أم «بودلير» لم تسترح الى ذلك ، ولم تشأ أن يبقى ابنها على غيه حتى يبدد ما تبقى من الثروة التى خلفها له أبوه ، فعمدت الى اجراء يتسم بالشدة ، حصلت بمقتضاه على تخويل يجعلها وزوجها ، قيمين على الشاب !

وكان هذا الاجراء صدمة جديدة لنفس «بودلير» ، زادت من اتساع الشقة بينه وبين أمه .. وكانت الاثار النفسية لهذه الصدمة أبعد مدى من آثارها المادية ، فلم يكن الشاب ينفك يشكو مما فى هذا الاجراء من ذلة وهوان .. وضاعف من هذا الشعور لديه أن القيمين عملا على أن لا يزيد دخله من النواحى التى كان يستثمر فيها ميراثه عن خمسة وسبعين جنيها فى العام ، مما لم يكن يمكنه من العيش اللائق الذى كان يرجوه ، فراح يستدين ويستدين ، دون أن يقوى على سداد ديونه ؟

ومن ثم أصبح القيمان وتصرفاتهما عبئا ثقيلا ، بل كابوسا أفسد حياة «بودلير» وجعله يضيق بها ، وشغل باله وتفكيره ، حتى أن المرء ليعجب بعد ذلك ، كيف استطاع فى هذه الفترة أن ينتج بعض الانتاج الرائع الذى خلد اسمه فى عالم الادب الاوربى !؟

ملهمة من بحار الجنوب!

ورأى القيمان أن من الخير لاصلاح «بودلير» أن يرسل بعيدا عن هذا الوسط الذى كان يعيش فيه .. فدبرا خمسة الاف فرنك من ميراثه لكى يقوم برحلة على سفينة كانت فى طريقها الى الهند ، وعهدا بالشاب الى ربان السفينة .. وهكذا أبحر بودلير فى ٦ يونيو سنة ١٨٤١ ، ليقضى فى بحار الجنوب عامين ..



ولكن الشاب أحس بأنها رحلة مفروضة عليه .. مفروضة من المقيمين اللذين كان يشعر بأنهما يضيقان الخناق عليه ويحدان من حريته .. لذلك كان طبيعيا أن يكره هذه الرحلة وان ينفر من الركاب الذين كانوا يزاملونه على سطح السفينة ..

وتصادف أن هبت العواصف والانواء فراحت تتلاعب بالسفينة ، حتى اضطر ربانها الى أن يرسو بها على جزيرة «موريتس» لاصلاح ما أصابها .. وانتهز «بودلير» الفرصة ليفارق السفينة ويقيم فى فندق بالجزيرة ، ثم

يسعى الى البحث عن رفاق مثقفين ، فالتقى بمدام «أوتار دوبراجار» وزوجها .. وسحرته المرأة ، حتى أنه نظم فيها قصيدة من أروع قصائد ديوانه الاول المشهور «أزهار الشر» .. تلك هى القصيدة : «الى سيدة المولدات» ـ اذ كانت مدام أوتار «مولدة» ، أى امرأة من أهل المستعمرات انحدرت من أصل أبيض ..

وعندما بلغت السفينة جزيرة «بوربون» ، كان الضيق قد بلغ ببودلير اقصاه ، فأصر على أن لا يمضى قدما ، وتشبث بوجوب العودة الى فرنسا .. فبلغها فى فبراير سنة ١٨٤٢ ..

وهكذا عاد «بودلير» .. ومع انه كان ناقما على الرحلة ـ رغم أن أمه وزوجها ارسلاه فيها وليس من هدف سوى مصلحته ـ الا أن الرحلة كانت ذات أثر كبير فى حياته الادبية .. فان الالوان والمناظر والاشكال والاصوات التى صادفها فى الشرق كانت ذات أثر كبير فى تطور ذوقه الشاعرى، وفى نضوج عبقريته، وفى ارهاف احساسه ، وفى تكوين ذخيرة من الصور والرؤى البراقة فى خياله ..

يرث ثروة ... فيبددها فى المجون !

◆ **وبلغ** «بودلير» سن الرشد فى ٩ ابريل سنة ١٨٤٢ ، فاستولى على الميراث الذى آل اليه من أبيه ، وكان قد بلغ خمسة وسبعين ألفا من الفرنكات ..

وكان أول ما فعله بودلير على الاثر أن غادر بيت الاسرة فى شهر يونيو من ذلك العام ـ وكان قد أقام به منذ عودته من الرحلة ـ واتخذ لنفسه مسكنا خاصا ، لم يلبث أن انتقل منه الى فندق «دولوزين» ..

وأعقبه ذلك عامان من أخطر الاعوام فى حياة الشاعر الشاب ، اذ شرع يتعاطى الحشيش والمخدرات .. والتقى بـ «جان دوفال» ، أولى عشيقاته .. كما أخذ يسرف فى التأنق والظهور حتى كبل نفسه بديون أخذت تستفحل وتثقل عاتقه .. حتى مماته !

وذعرت أمه وزوجها حين تبينا فى سنة ١٨٤٤ أن الشاب اضاع نصف ميراثه بددا ، فعادا يسعيان لوضعه تحت اشراف قيم .. وجزع «بودلير» بدوره فأخذ يتوسل الى أمه كى تعفيه من هذا الاشراف ، ولكنها أصرت على ذلك . ووضع «بودلير» من جديد تحت قوامة أمه وزوجها ، فكان هذا ايذانا بكابوس ظل يجثم على صدر بودلير الى النهاية .. حتى لقد كتب الى امه فى سنة ١٨٦٠ ـ أى بعد أكثر من خمسة عشر عاما ـ يقول : **«سأموت دون ان أكون قد فعلت فى حياتى شيئا .. لقد كنت يوما مدينا بعشرين ألف فرنك ، فاصبحت مدينا باربعين الفا ، ولو شاء سوء الحظ أن أعيش أكثر ، لتضاعف دينى مرة أخرى !»**

وفى خطاب آخر لامه فى العام ذاته ، وصف اشراف القيمين على شئونه بأنه «الغلطة الفظيعة التى دمرت حياتى ، ونسفت أيامى ، وسممت كل أفكارى بالبغضاء والقنوط» ٠٠ ووصفه مرة اخرى بانه «الابتكار اللين الذى ابتكرته أم ذات عقل لا يشغله سوى الحرص على المال ! »

ولقد حاول «بودلير» الانتحار فى سنة ١٨٤٥ ٠٠ ففيما كان يجلس مع عشيقته «جان ديفال» فى مقهى ، اذا به يخرج سكينا ويروح يطعن صدره ٠٠ اذ كان قد تفاقم شعوره بأن فى اشراف غيره على شئونه اذلالا لنفسه ٠ وكانت ديونه تستفحل دون أن يتراءى له أمل فى تسديدها !٠٠ ومع ذلك ، فقد استطاع أن ينظم وينشر فى تلك اللحظة طائفة من أبدع قصائده ، فى ديوان أسماه «الصالونات» ــ أو الندوات ! ــ كما أنه عزز اتصاله وروابطه بعالم الفن والادب ، ووثق علاقاته بالرجل الذى تولى بعــد ذلك نشر انتاجه ٠٠

فى ميدان الصحافة والسياسة

◆ **وفى** سنة ١٨٤٨ ، أصدر «بودلير» مع اثنين من زملائه ، صحيفــة ثورية لم ير النور منها ســـوى عددين !٠٠ ومما يروى عنه فى تلك الآونة أنه حمل بندقية فى الاضطرابات التى حدثت فى فبراير من ذلك العام ، فأطلق منها عيارا فى الهواء وصاح فى الثائرين : «لنذهب فنقتل الجنرال أوبيك» ! ــ زوج أمه !

غير أن بودلير انقلب فى العام التالى من صفوف الثوار الى صف المحافظين ، وحاول اصدار صحيفة فى «ديجون» تدعو لارائهم ٠٠ ثم تحول فى العـــام التالى ــ ١٨٥٠ ــ الى اصدار صحيفة معارضة فى «شاتورو» ٠٠ وانتهى به هذا التقلب الحائر الى أن طلق السياسة والاحـــزاب جميعـــا فى سنة ١٨٥١ ٠٠!

ولعل «بودلير» خير من وصف سر تحمسه للثـــورة فى سنة ١٨٤٨ ، اذ كتب فى ذلك يقول : «لقد كان تعطشا للثأر٠٠ولذة طبيعية بالتدمير٠٠ونشوة أدبية من ذكريات الكتب التى قرأتها ! » ٠٠ **ويذهب بعض المؤرخين فى تعليل تحمسه الثائر الى أنه حاول انشاء حزب للادباء يقاوم به استفحال نفـوذ الطبقة المتوسطة التى اوجدتها الثورة ، وما كان حمله البندقية والدعـوة الى قتل أوبيك سوى صورة نفسية مثل بها موقف الفنان ، والشــاعر ، من المجتمع !**

وانصرف «بودلير» بعد نبذه السياسة ، الى مؤلفاته فى النقد الادبى ، والى ترجمة مؤلفات «ادجارالان بو » ٠٠ اذ رأى فى هـــذا الكاتب الامريكى

انما روحيا عبر خير تعبير عما كان فى نفسه من مشـاعر وآراء لم تكن تتبدى لبصيرته فى جلاء ..

وفى ٢٨ ابريل سنة ١٨٥٧ مات الجنرال أوبيك ..

وفى ٢٥ يونيو من العام ذاته ، نشر بودلير ديوانه الخالد « أزهار الشر » الذى كان قد سبق نشره فى سنة ١٩٤٦ ، تحت عنوان «بنات ليبو» .. و«ليبو» هو الاسم القديم الذى كان يطلق على جزيرة ميتيلين بالخليج اليونانى ..

وقوبل الديوان بحملة من صحيفة «الفيجارو» ، هاجمته خلالهـا فى مقالين زاعمـة انه مناف للاداب العامة .. فما كان من السلطات الا أن أمـرت بمصادرة الديوان وحكمت على بودلير بغرامة قدرها ثلاثمائة فرنك ، وعلى كل من الناشرين بمائة فرنك .. غير أن بودلير رفع التماسا الى الامبراطورة «أوجينى» ، فاذا بالغرامة تخفض الى خمسين فرنكا .. ويلغى حـكم المصادرة !

ولقد كتب «فيكتور هيجو» على أثر المصادرة الى بودلير يقول أنها كانت « خير مظهر لتقدير الدولة » !. ولكن هذا العزاء لم يسر عن «بودلير» ، فقد شعر بأنه طعن فى سمعته .. واراد أن يسترد اعتباره ، فرشـح نفسه لعضوية «الاكاديمية الفرنسية» فى سنة ١٨٦١-١٨٦٢ .

وحيد بلا أصدقاء ، ولا عشيقة ، ولا كلب !

◆ **وكانت** السنة التى تلت نشر «ازهار الشر» من أقسى سنى حيـاة «بودلير» ، فكانت خطاباته لامه تفيض بالشكوى من حظه فى الحياة ، وكان ممتعضا من اضطراره الى تنقيح كتـابه باضافة قصـائد جـديدة مكان تلك التى كانت موضع اعتراض .. كما كانت ديونه واشراف القيمين عـلى شئونه مصدر عذاب نفسانى له لا يخبو اواره .. **ولعل خـير تصوير لحاله ما كتبه فى منتصف سنة ١٨٦١ الى أمه : « اننى وحيد .. بلا أصدقاء ، وبلا عشيقة ، وبلا كلب ، وبلا قطة ، وبلا شىء أستطيع أن أبثه شكواى .. ليس لدى سوى صورة أبى ، ولكنها صماء بكماء ! »**

وكان الشعور بالوحدة أقسى ما عـذبه فى تلك الفترة من حيـاته ، اذ نجده بعد ذلك بعامين لا يزال يشكو لامه من الوحدة والوحشة قـائـلا : « اننى أعانى هذه الوحشة فى غرفتى الخالية من الضوء .. وكم أتعـذب من حرمانى من الصداقة والنعيم !.. لقد حطمتنى وحدتى وتقاعسى حتى اننى اعتدت أن ارجىء واجباتى ، ومنها ما أنا متلهف على أدائه » .. كما كتب اليهـا مرة أخرى : « انما أحس اشمئزازا تاما من كل شىء ، بل — وقبل كل شىء — من كل نوع من انواع اللذات والمتع .. وليس من شعور يوحى الى

بأننى لا أزال على قيد الحياة سوى تلك الرغبة المبهمة فى الشهرة ، والثأر، والمال » !

وكان هذا الاسى والاكتئاب ينعكس على كل شىء : على أشعاره .. وعلى الصور التى رسمت له فى تلك المرحلة .. ولعل للمخدرات التى أدمنها أثرا كبيرا فى ذلك . فقد تفاعل أثر هذه المخدرات مع أشجانه النفسية فاذا هو ينقم على المدينة ، وعلى النساء .. واذا هو يسخط على عصره . وقد زاد من سخطه شذوذ جنسى كان يعانيه ، اذ تدل غرامياته على أنه كان يحب النساء ، ولكنه ينفر من العلاقات الجسدية .. مع بعضهن على الاقل !

وتلاحقت المصائب على بودلير ، فمنى ديوان «أزهار الشر» بالفشل ، وأفلس الناشر ، وفقد بودلير ما كان يناله من دخل سنوى بسيط مقابل حقوق نشر ترجمته لمؤلفات «ألان بو» ..

وازداد تراكم الديون عليه !.. وكان ناشر كتبه قد رحل الى بلجيكا ، ومن هناك كتب اليه يغريه باللحاق به .. فسافر فى ابريل سنة ١٨٦٤ .. ولكن هذه الرحلة كانت نكبة جديدة حاقت ببودلير ، وأحنقته على البلجيكيين ، لاسيما بعد أن قوبلت المحاضرات التى دعى الى القائها هناك بالاعراض ، واغتال الذين تعاقدوا معه اتعابه ، وفشل فى نشر مؤلفاته ، فازدادت متاعبه المالية ، حتى أنه لم يكن يقوى على أن يغادر الفندق الذى كان ينزل فيه ، لانه لم يكن يملك أن يدفع لصاحبته الايجار !

وانهار أخيرا تحت كل هذه الارزاء ، فانتابه شلل عقد لسانه .. وعملت أمه واصدقاؤه على نقله الى باريس فى ٢ يوليو سنة ١٨٦٦ ، ولكنه لم يعش طويلا .. اذ مات فى ٣١ أغسطس من العام نفسه .. وكانت جنازته صورة أخرى من السواد الذى رافقه فى حياته ، فقد تخلف الادباء المبرزون عن تشييعها .. وهبت عاصفة على المقبرة أثناء دفنه ، فشتتت شمل المشيعين !

غراميات بودلير

◆ **يطلق** البعض على بودلير اسم «الشاعر العفيف» ، ولكن اصابته بالزهرى تناقض هذه التسمية !.. سيما وان الدلائل لا تنم عن أنه تلقى الداء عن طريق الوراثة .. على أنه قد يكون من المحتمل أن «بودلير» كان زاهدا فى العلاقات الجنسية ، أو لم يكن يقوى على ممارستها الا بقدر محدود .. وليس هذا بالامر النادر بين أمثاله من الشعراء المغرقين فى الخيال،

ولكنه ـ أيضا ـ ليس بالظاهرة الهامة فى غراميات «بودلير» ، وانما الظاهرة الاهم فى هذا الميدان تتجلى فى ذلك الشذوذ العقلى الذى كان يجعله يرى الحب شيئا يجدر بالمرء أن يدرسه ، لا أن يعيش فيه !٠٠ ومن ثم نرى ان الاشعار التى قالها فى ((جان ويفال)) ، أو اليها ، ولم تكن قصائد غزل وحب بقدر ما كانت قصائد جنسية . فقد كان بودلير يصرف اهتمامه الى دراسة الانفعالات والى كشف السبل المتباينة لايقاظ الغرائز ، لا الى ارضاء هذه الغرائز بالذات ٠٠ وكان يتخذ من العشيقة وسيلة لاشباع ((شهوته الى الجمال)) وليس الى اشباع الجنس ٠٠ وبهذا الاتجاه ، جعل من فنه بديلا للعملية الجنسية !٠٠ وقد قال فى مذكراته : ((كلما ارتقى الانسان بفنه تضاءلت أغلاله ٠٠ فلابد من طلاق يزداد شيئا فشيئا بين الروح وبين الوحش الكامن فى الانسان)) ٠٠ بل انه ذهب فى قصيدة ((السهم النارى)) الى تشبيه العملية الجنسية بعملية مؤلمة ، لا تقل فى تباريحها عن التعذيب أو الجراحة !٠٠ ومع ذلك فان اشعاره الاولى ، لاسيما تلك التى وجهها الى «جان دوفال» ، توحى بأن وراء هذه الروح «العذرية» نزوات جنسية جامحة ٠٠ وهذا بدوره يوحى بأن عفته قد تكون رد فعل نفسانى لاصابته بالزهرى !٠٠ كما يرى أنصار «عقدة أوديب» القائلين بأن شيئا غير برىء كان يشوب علاقته بأمه فى صغره ـ أن هذه العلاقة والصدمة التى تلقاها الشاعر عندما تزوجت أمه مرة ثانية ، هما السبب فى نفوره من الحب الجنسى ٠٠

فينوس السوداء

◆ وقد كانت «جان دوفال» أولى عشيقاته ٠ وترجع علاقته بها الى سنة ١٨٤٢ ٠٠ ويبدو من المعلومات المتناثرة أنها كانت ممثلة صغيرة فى بعض المسارح المتواضعة ، وانها كانت فى الوقت ذاته تبيع جسدها لكل راغب !

وكانت « جان» من أب أبيض وأم سوداء ، ومن ثم فقد كانت شديدة السمرة ، طويلة ، دقيقة القسمات ، ذات شعر أسود غزير كان ينساب على كتفيها فى استرسال رائع ٠٠

ولقد وقع ((بودلير)) فى هواها مذ رآها للمرة الاولى فى مسرح صغير كانت تعمل به فى الحى اللاتينى ٠فشرع يتقرب اليها كما لوكانت من الكواكب اللامعات، وأخذ يرسل اليها الزهور الغالية ، ويسألها أن تسمح له بأن يرافقها الى دارها بعد الفراغ من عملها ٠٠ ثم انتهى به الامر الى أن أسكنها فى مسكن مزين على الطراز الشرقى بشارع ((فام سون تيت)) بالقرب من مسكنه !

ولعل سمرتها ، وما يتجاوب فى نفسه من سحر الشرق بعد الرحلة التى فرضت عليه الى بحار الجنوب ، هما سر ميله اليها مذ رآها .. فقد لاح له فيها عنصر مكمل للذكريات التى ادخرها من هذه الرحلة .. وفعلا لم تلبث «جان» أن أصبحت القوة التى أطلقت الهامه وخياله .. فكانت القصائد التى كتبها بوحى علاقته بها من أروع شعره !

تخونه مع اصدقائه !

◆ **لكن** الملهمة المعشوقة ، قدر له أن يكتشف بعد وقت غير طويل أنها كانت جشعة ، أطمعها كرمه ، ولم يهذب من طباعها حبه ، فلم تتورع عن أن تخونه مع خاصة أصدقائه وزوار بيته !.. فضلا عن انها لم تكد تعلم بنبأ قيام أمه وزوجها بالاشراف على شئونه ، بعد أن تبينا سفهه واسرافه ، حتى بدأت تتمرد وتتنمر .. حتى لقد كتب بودلير الى أمه فى سنة ١٨٥٢ يقول ان «جان أصبحت عقبة ، لا فى سبيل سعادتى فحسب ، وانما فى سبيل صفاء ذهنى وطاقتى الفنية .. لقد كانت لها فى الماضى صفات خاصة فقدتها اليوم ، بينما بدأت ــ أنا ــ اكتسب نضجا فكريا وبصيرة جلية .. »

وتوالت الخلافات العاصفة بينهما .. فما لبث «بودلير» أن افترق عنها ــ فى نفس العام (١٨٥٢) ــ وأقسم أن لا يراها بعد ذلك .. لكن الحنين عاوده اليها فى سنة ١٨٥٤ ، وبعد مقاومة عاد اليها فى العام التالى ، وأقاما معا .. ولكن هذه العودة لم تطل الى أكثر من سبتمبر سنة ١٨٥٦ ، حين كتب لامه يقول : « لقد انتهت العلاقة التى ربطتنى بجان أربع عشرة سنة .. ولقد بذلت كل مجهود فى طوق البشر لاحول دون الفرقة ، ولكن الشجار استمر بيننا أسبوعين .. ولسوف اظل نهبا للحسرة على هذه المراة ، فقد كانت البهجة الوحيدة ، والمتعة الوحيدة ، والرفيقة الوحيدة لى ، رغم ما كان ينتاب علاقتنا العاصفة من صدمات ! »

غير انه لم يلبث ان عاد اليها مرة اخرى فى سنة ١٨٥٨ ، وقد اشفق عليها اذ اقعدتها العلل . ثم ادخلها فى العام التالى مصحة لتعالج فيها من الشلل .. وبدلا من ان تعرف له هذا الفضل اخذت تبتز منه المال بان تضاعف من النفقات التى كانت تطلبها للعلاج .. واحتفل بودلير بشفائها فى سنة ١٨٦٠ ، ولكنها فى هذه المرة عادت الى داره مستصحبة رجلا زعمت انه اخوها .. وظلا معا يستمرئان كرم الشاعر ويبتزان كل ما يصلان اليه من ماله .. حتى اذا عاودها الشلل وانتقلت الى مستشفى متواضع ، باع «الاخ» كل ما كان فى المسكن الذى اعده لها بودلير من متاع ، واختفى !

وهنا نفد صبر «بودلير» فلم يسمح لها بالاقامة فى كنفه بعد ذلك ، ولكنه ظل يتابع اخبارها ، ويمدها بالمعونة .. حتى لقد حرص حين احس بدنو منيته ، على ان يوصى امه بها !

فينوس البيضـــــاء

◆ وبرغم طول عهد بودلير بمعاشرة «جان ديفال» واثرها فى اشعاره ، الا ان المؤرخين كثيرا ما يتجاهلونها ليفيضوا فى الحديث عن مدام «ابولونى ساباتييه» ٠٠ مع ان القصائد التى نظمها بوحى منها ، كانت أقل روعة من تلك

وكان لقب «مدام» لقبا ألصق باسمها بغير وجه حق ، فالواقع ان «أجلاييه جوزيفين ساباتييه» ــ وهو اسمها الحقيقى ــ لم تتزوج قط ٠٠

وقد ولدت ((أجلاييه)) فى ابريل سنة ١٨٢٢ نتيجة علاقة غير شرعية بين ((فيكونت دابانكور)) ــ محافظ (الآردن) ــ و ((صبية خياطة)) كانت تعمل فى دار المحافظة ٠٠ وقبيل مولدها ، اغرى ((الفيكونت)) جاويشا فى الجيش يدعى ((اندريه ساباتييه)) بالزواج من ضحيته ليستر عارها ٠٠

وأبدت «اجلاييه» ــ او «أبولونى» كما اصبحت تدعى ــ ميلا الى الفن فتعلمت الرسم ٠٠ كما كشفت عن موهبة طيبة للغناء ، حملت ناظرة احدى مدارس البنات على ان تعلمها الغناء على نفقتها !٠٠ وفيما كانت تغنى فى احدى الحفلات الخيرية وقعت عليها انظار «الكونت الفريد موسلمان» ــ وكان من الصيارفة اليهود ــ فاحبها واتخذها خليلة ، واعد لها مسكنا تولى الانفاق عليه ٠٠ ولكن هذا لم يحفزها على ان تصون نفسها عن سواه ، حتى ان بعض المؤرخين يصفونها بانها كانت من «العاهرات» ، ولكنها كانت ارقى مستوى من بائعات الهوى المتهتكات !

والواقع انها كانت رائعة الجمال ٠٠ حتى لقد بلغ من اعتزاز المالى اليهودى بجمالها ، أن أمر بصنع تمثال من المرمر يمثلها عارية تماما ، وقد عرض التمثال فى سنة ١٨٤٧ تحت اسم ((امرأة لدغها ثعبان)) !٠٠ والواقع ان الاختلاجات التى تبدت فى التمثال لم تكن اختلاجات ملدوغة ، وانما كانت من وحى الخلاعة الفاضحة ٠٠

وطار صيت «ابولونى» فى اوساط الفنانين والادباء ، حتى لقد اطلق عليها الاديــب «تيوفيل جوتييــه» اسم «الرئيسة» ! ٠٠ والمعتقد ان «بودلير» رآها للمرة الاولى فى سنة ١٨٤٢ وهى فى عنفوان شبابها ــ فى العشرين مــن عمرها ــ وفى روعة جمالها ٠٠ وكانت عائدة من الحمام مع بعض الاصدقاء ، فلم يتمالك ان اعجب بها ، ولكنه لم يتعرف بها قبل سنة ١٨٤٥ ٠٠ ولم تتوثق صلته بها الا فى سـنة ١٨٥١ ،عندما كان جوتييه يصطحبه معه الــى المآدب والاجتماعات التى كانت تقيمها فى أيام الاحاد ٠٠

ولم يكن جمالها ، وانما رواء هذا الجمال ، هو الذى استهواه .. فهو لم



امرأة لدغها ثعبان !

يعن بسمعتها ، بل انه تجاهل فتنــة جسدها ، واتجه بحواسه الى روعة بياضها فشاء أن يتخذ منها غريمة لـ « فينوس السوداء » ..

ولم ينقض عام حتى أخذ «بودلير» يبعث اليها بخطابات غرامية لا تحمل اسمه ولا خطه .. وقد ضمن هذه الخطابات ستا من القصائد التسع التى تألف منها « عهد مدام ساباتييه» فى ديوان « أزهار الشر » وقصيدة سابعة حذفت من الطبعتين الاوليين للديوان..

وكانت خطاباته اليها مشبوبة الاوار .. ففى أحدها نراه يقول : « **لست أدرى ما اذاكانت ستتاح لى تلك المتعة السامية .. متعة أن أشرح لك بنفسى ما لك من سلطان على ، وان ابين لك ما يبعثه طيفك فى ذهنى من اشراق .. على اننى يسعدنى فى وضعى الراهن ان اقسم لك مرة اخرى بان الحب الذى اضمره لك لم يدانه حب آخر فى تجرده عن الغرض ، وفى سموه .. واننى سأظل دواما اكتمه بالحرص الذى يستحقه هذا التبجيل العاطفى .. واخيرا ، ارى لزاما على ، كى اشرح لك صمتى وعواطفى المشبوبة التى تسمو الى العبادة ، أن اذكر لك اننى حينما ينغمس كيانى فى ظلمات ضعفه وطيشه الطبيعيين ، احلم بك .. فاذا بالحلم المثير والمطهر يسفر عن حادث سعيد .. انك فى نظرى لست اعظم النساء جاذبية فحسب ، بل انت أعز واغلى خيال قدسى .. بل انك اكثر من طيف او خيال اهيم به فى الحلم ، انك الوثن الذى اعبده .. فاذا ارتكبت خطيئة من وحى الغباء قلت لنفسى : «يا الهى !.. ماذا تقول لو انها علمت ؟» .. ولو اننى قمت بعمل طيب قلت لنفسى : «هذا عمل يقربنى منها .. روحيا !»**

.. وظلت هذه الخطابات المستترة تترى خمس سنوات .. ومن العسير ان يصدق احد ان مدام ساباتييه لم تفطن طوال تلك المدة الى ان مرسلها هو «بودلير» !.. برغم ان مجلة «ريفى ديه دو موند» نشرت فى يونيو سنة ١٨٥٥ ثلاثا من تلك القصائد التى ارسلها اليها .. وبرغم ان شقيقتها الصغرى سألته يوما عما اذا كان لا يزال مقيما على حب اختها ، ولا يزال يبعث

لها تلك «الخطابات الغرامية الرفيعة» ؟ .. وقد أسفر بودلير فى خطاباته بعد هذا اللقاء عن شخصيته !

أشذوذ جنسى ؟

والتقيا .. وكانت «مدام ساباتييه» قد راضت نفسها على ان تستسلم له فى هذا اللقاء ، فما ان دعته الى الفراش حتى ارتاع واضطرب .. وكتب لها فى ٣١ اغسطس سنة ١٨٥٧ يقول : «كنت حتى ايام قلائل شخصية قدسية ذات جلال ، وجمال ، ومناعة .. ولكنك الان امرأة .. اننى ارهب الشهوة لاننى اعرفها بكل ما فيها من عار وفضيحة .. والطيف الحبيب الذى سيطر على كل خيالى ، اصبح شديد الغواية » !

ومن العسير ان يصدق المرء ان «بودلير» رأى الغواية ثم اعرض عنها !.. اللهم الا اذا كان اعراضه نتيجة شذوذ جنسى .. أو لعله كان يطمع فى ان تهبه اكثر مما تهب اية غانية لاى رجل يروق لها .. ثم لا ينبغى ان ننسى انه كان لا يزال يرزح تحت سلطان «جان ديفال» حتى لقد كتبت له «مدام ساباتييه» تقول انها اذ رأته يتفادى عناقها ، أحست بان «شبح المرأة الاخرى ذات الوجه الاسود يقف بيننا» !

وهذا يدعونا الى التوسع قليلا فى الكشف عن علاقة «الشاعر» بـ «المرأة» .. فلقد كانت «جان ديفال» ترضى «بودلير» الرجل و«بودلير» الشاعر فى وقت واحد .. ترضى جسده وروحه .. ومن ثم تاق الى التجديد عندما سنحت له الفرصة ، فشاء فى علاقته بمدام ساباتييه ان يجرب الحب الافلاطونى الخالص .. ان يتخذها معبودا لا يمس .. ومن هنا ندرك سر الخطابات المستترة التى كان يرسلها اليها .. ومن هنا ايضا ندرك سر خطاب ٣١ اغسطس .. ولقد تبادلا بعد ذلك الرسائل ، وحاولت «مدام ساباتييه» ان تجدد المحاولة ثانية ، ولكنه ابى الا ان يكونا «صديقين حميمين» .. فحسب !

الحسناء ذات الشعر الذهبى

◆ **كانت** ذات الشعر الذهبى هى ثانية عشيقات بودلير فى الواقع ، فهى التى خلفت « جان ديفال » كخليلة له ..

وكانت « مارى دوبرين » ـ وهو اسمها ـ ممثلة ظفرت بنجاح كبير حين قامت بالدور الاول فى مسرحية « الحسناء ذات الشعر الذهبى » فى سنة ١٨٤٧ .. سيما وان الدور

كان يلائمها فعلا ، اذ كانت فاتنة ، ذات شعر كأنه أسلاك الذهب .. كما أوتيت موهبة الالقاء الواضح والنطق السليم، مما جعل النقاد يطرونها أعظم الاطراء ..

وكانت « مارى » تميل الى صداقة الادباء والفنانين .. والغالب أن « بودلير » التقى بها للمرة الاولى فى « ستوديو » أحد أصدقائه الفنانين فى سنة١٨٤٧ ، فأخذ يحاول التقرب اليها .. ولكنها مضت تصده ،وتتهرب من لقائه .. ومن ثم كتب لها فى أواسط اكتوبر من ذلك العام خطابا ، سبق خطابه الاول الى مدام ساباتييه بسبعة أسابيع ، وقال فيه : « **انني أحبك يا مارى ، وهذه حقيقة لا مرية فيها .. ولكنه حب التقى لله .. ومن ثم فاياك أن تطلقى على هذه العبادة الغامضة اسما دنيويا من هذه الاسماء المعيبة .. فهى فتنة عفيفة تربط روحى بروحك .. بك يا مارى سأغدو قويا وعظيما .. سأخلدك كما خلد بترارك معبودته لورا .. فكونى ملاكى الحارس ، وكونى مرشدى وكونى عذرائى .. وقودينى الى طريق الجمال** »

وقد ألهمته العبارات الاخيرة فيما بعد قصيدة « ماذا تراك ستقولين الليلة ؟ » .. وقصيدة « المشعل » .. ولعل من الطريف أن نذكر أنهما كانتا بين القصائد التى أرسلها الى « مدام ساباتييه » أيضا فى سنة ١٨٥٤ .. وهى ظاهرة ان دلت على شىء فانما تدل على أن « مارى » أخفقت فى أن تكون « ملاكه الحارس » ، وأن تتيح له الحب العذرى ، ولذا أرسل القصيدتين الى امرأة سواها ، رغم انه نظمهما من وحيها .. أرسلهما الى امرأة رأى فيها بديلة عوضا عنها .. فوجه حبه « العذرى » الى مدام ساباتييه ، وحول سعيه وراء « مارى » الى اتجاه آخر : محاولة اقناعها بأن تصبح خليلته ..

وفى سنة ١٨٥٥ وفق « بودلير » .. وعاشت « مارى » معه عندما كانت « جان ديفال » فى المستشفى .. ثم هجرته ، ولكنه لم يقطع اتصاله بها ، بل كان يتوسط لها لدى مديرى المسارح كلما تعطلت .. وفى سنة ١٨٥٦ ، عادت اليه ثانية ، ولكن .. لتملأ الفراغ الذى كان بين انفصاله النهائى عن « جان » ، واتصاله بمدام « ساباتييه » .. فلما هجرته لترحل مع عشيق آخر الى « نيس » ، لم يتردد فى أن يكون حازما ، فيقطع علاقته بها ..

وهكذا كانت عشيقات « بودلير » يمثلن ثلاثة ألوان من العاطفة تمثل : الحب الذى يجمع بين الشاعرية والجنس .. والحب العذرى الخالص .. والحب الجنسى الخالص ..

عندما يرتفع الستار..



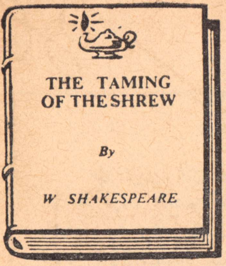
روائع المسرح العالمى
(التمثيلى... والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الآثم : تولستوى
نزاهة الحكم : جوجول
سلاح المراة : اريستوفان
فولبون : بن جونسون
جيوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
مدرسة الفضائح : شيريدان
سيرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت : رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير : اوسكار وايلد
فاوست : جيته
اوديب الملك : سوفوكل
فى سبيل الحب : جون درايدن
وليم تل : شيللر
الام : مكسيم جوركى
الملك يلهو : فيكتور هوجو
الذبيحة اندريه اوبيه
الجنس الآلى : كاريل كابيك
الابن الاكبر : جالزورثى
هرنانى : فيكتور هوجو

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه الكوميديا الخفيفة من مسرحيات شكسبير ((ترويض النمرة)) .



ترويض النمرة!

كوميديا تمثيلية
لشكسبير



هـــذه المسرحية

◆ ليس أدل على براعة « شكسبير » من أن مسرحياته لا تزال صالحة لهذا العصر رغم مرور أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن على تأليفها .. وقد يكون هذا معقولا بالنسبة الى المسرحيـــات التى كان خياله فيها يتجاوز نطاق الواقع ويستعين بالقوى الخفية والســحر والجن فى تسيير أحداثها ، فان القصص ذا القالب الخرافى لا يتقيد بمكان ولا بزمان .. وقد يكون هذا معقولا أيضا بالنسبة الى المسرحيات ذات الطابع التاريخى ، فان أحداث التاريخ هى هى مهمـــا توالت العصور والاجيال ..

اما فى موضوع اجتماعى ، فهنا مظهر العبقرية ..

والكوميديا التى نلخصها فى هذا الشهر من النوع الاخير .. انها تتناول موضوعا يصلح لكل عهد وزمن .. موضوع ترويض المــرأة المتمردة ، الجامحة .. وأطرف من الموضوع اسلوب العرض ، الذى سبق به « شكسبير » مخرجى المسرح والسينما فى عصرنا هذا !

شخصيات الرواية

بابتيستا	: ثرى من أهل مدينة (بادوا)	BAPTISTA
كاتريـنـــا	: ابنته الكبرى	KATHARINA
بيـانكا	: ابنته الصغرى	BIANCA
فنتشنتيو	: كهل مسن من أهل بلدة (بيزا)	VINCENTIO
لوتشنتيو	: ابنــه	LUCENTIO
بتروكيـو	: شاب من أهل (فيرونا)	PETRUCHIO
جريميو ، وهورتنسيو	: شابان يخطبان ود « بيانكا »	GREMIO HORTENSIO

مقدمة الرواية

◆ يفرط « كريستوفر سلاى » فى الشراب فى حانة خلوية ، حتى يفقد الوعى .. ويصادف أن يكون أحد اللوردات عائدا من الصيد ، فيعثر عليه نائما على الحشائش فى ساحة الحانة ، واذ ذاك يأمر خدمه بأن يحملوه الى

القصر ، فيسلموه الى فراش وثير ، ويلفوه فى أفخم الثياب .. حتى اذا افاق ، سعى اليه غلام جميل من الخدم متنكرا فى زى امرأة توهمه بأنها زوجته ، وتوحى اليه بأنه كان من كبار اللوردات ذوى الجاه ثم أصيب بلون من الخبل ، وترحب بعودته الى عقله .. وتقام بهذه المناسبة مأدبة فخمة حافلة بألوان الشراب ، يتقرب اليه فيها نفر من الممثلين الذين كانوا ينزلون ضيوفا فى قصر اللورد ..

وينفذ خدم اللورد هذه الخطة ببراعة .. فما ان يفيق الثمل الى نفسه حتى يهتف طالبا بعض البيرة، واذا بخادم يقول له : « هل لسيادتكم فى كأس من النبيذ الابيض المعتق ؟ » .. ويضيف خادم ثان : « ألا تتفضلوا بتذوق هذه الحلوى المسكرة ؟ » .. ويسائله ثالث . « أى الثياب ترتدون اليوم يا صاحب المجد ؟ »

ويبهت « سلاى » فيقول : « اننى ادعى كريستوفر سلاى ، فلا تقولوا يا « صاحب المجد » أو يا « صاحب السيادة » .. أما النبيذ الابيض فلم أذقه فى حياتى .. ولا تسألونى عن أى الثياب أرتدى ، فلست أملك ثيابا سوى خرق بالية ، وحذاءين تطل أصابعى منهما.. »

وهنا يتدخل اللورد ـ صاحب القصر ـ متنكرا فى زى خادم ، فيقول ممعنا فى الدعابة : « رحماك الله من هذه الفكاهة التى تمس مكانتك .. ومن الروح الخبيثة التى توحى لسيد مثلك أن يتواضع بهذا القدر وينكر على نفسه كل هذه الممتلكات ! »

ـ ماذا ! .. أترانى مجنونا ؟ .. الست كريستوفر سلاى، بن سلاى، من مروج « بيرتون » ؟ ألست بحكم مولدى بائعا متجولا ، وبحكم تعليمى صانعا لورق اللعب ، وبحكم التطور راعيا للدببة ، وبحكم مهنتى الحالية سمكريا ؟

ـ بل أنت لورد ، ولا شىء سوى لورد .. وقد أوتيت زوجة أجمل من أية امرأة فى هذا العصر !

ويعجب « سلاى » ، ويتساءل : « أنا لورد ؟ ولى مثل هذه الزوجة ؟ أم أننى أحلم الآن ؟ اننى لست نائما .. فأنا أسمع ، وأرى ، وأتكلم ، وأشم روائح جميلة ، وأحس بأشياء ناعمة .. لعمرى أننى « لورد » حقا ، ولست سمكريا ! .. لست كريستوفر سلاى .. حسنا ، فلتحضروا السيدة أمام بصرى .. ومرة أخرى الى بكأس من البيرة ! »

ولا يلبث أن يفد خادم ينبىء المولى بأن ممثلى « سيادته » فى انتظار اذنه ليمثلوا أمامه مسرحية مضحكة ، عملا بنصح أطبائه ..

سلاى : حسنا ، سوف نرى ٠٠ تعالى يا زوجتى فاجلسى بجوارى ٠٠ ودعى الدنيا تواصل سيرها٠٠ فلن نحس بشبابنا يوما قدر ما نحس الآن ٠٠

ثم تهبط الستار ، لترفع من جديد بعد حين عن الفصل الاول ٠٠ الفصل الاول من الكوميديا التى تمثلها الفرقة لصاحبنا « السمكرى » المحظوظ ٠٠ (وهى طريقة بارعة فى الاخراج والعرض ، يكثر من اتباعها رجال السينما فى أيامنا هذه ، دون أن يخطر ببالهم أن شكسبير سبقهم اليها حوالى عام ١٥٩٧ !

الفصل الاول

◆ **وترفع** الستار عن الفصل الاول من « الكوميديا » التى أقدم الممثلون على أدائها أمام « اللورد » الزائف ٠٠ فاذا نحن نرى « لوتشنتيو ــ وهو الابن الاوحد لاحد أعيان مدينة « بيزا » الايطالية ــ وقد أوفده أبوه برفقة خادمه الامين « ترانيو » الى مدينة « بادوا » (كعبة الفنون فى ذلك العصر) ليصيب من فنونها ويتفقه ٠٠

وفيما هما يجلسان فى أحد الاماكن العامة ، يتدبران أمر اتخاذ مسكن لائق للشاب وأصدقائه وضيوفه، **اذا بهما يسمعان « بابتيستا » ــ وهو أحد ثراة المدينة ــ يتحدث الى الشابين « جريميو » و « هورتنسيو » اللذين كانا يلحان عليه ويلحفان ، متنافسين على الفوز بيد ابنته الحسناء « بيانكا » ــ وكانت تجلس بينهم مع أختها الكبرى «كاتارينا» ــ ولكن الاب يصر فى حزم على أنه لا يمكن أن يبت فى خطوبة لبيانكا ما لم تخطب أختها الكبرى كاتارينا أولا ٠٠ ومن ثم فهو يدعو الشابين الى أن يسعيا للتقرب الى هذه ٠٠ فتسائل الفتاة الكبرى أباها فى لهجة فظة كيف يمتهن كرامتها بأن يعرضها على طلاب الزواج عرضا ؟**

واذ يحتج « هورتنسيو » ــ أحد الشابين ــ على لهجتها السليطة ، تجيبه بأنه لا يستحق أى اهتمام من فتاة ، « وانما أقصى ما ترجوه أنت من المرأة أن تمشط لك « البصلة »

ـ (صلعتك) ـ بكرسى ذى ثلاث أرجل ٠٠ وأن تلطخ وجهك بالاصباغ وتتخذ منك مسخا » !

ويقول الخادم « ترانيو » لمولاه الشاب لوتشنتيو ، وهمـــا يرقبان الجماعة : « هاك يا مولاى ملهاة تشغل الوقت ٠٠ فهذه الفتاة الجريئة اما مفرطة الجنون ، واما رعناء مشاكسة ! »٠٠ ولكن « لوتشنتيو » يعجب بالفتاة الصغرى « بيانكا » الصامتة، الرزينة ، ويقع فى شرك حبها!٠٠ واذ يسمع أن أباها يبحث عن مدرسين لتثقيف ابنتيه ، يعقد عزمه على أن يتبادل الثياب مع خادمه ، وأن يتقدم الى الاب على أنه مدرس للشعر !

وفى تلك الاثناء ، ينهمك الشابان « جريميو » و «هورتنسيو» فى البحث عن ثالث يوقعاه فى هوى « كاتارينا » ليخلو لهمـا السبيل الى التنافس الشريف عـــلى حب « بيانكا » ٠٠ واذا الصدف تسوق اليهما « بتروكيو » ، صديق هورتنسيو وأحد ثراة مدينة « فيرونا » ، وكان أبوه قد توفى وأورثه ماله فغادر موطنه ليشاهد العالم ، ويبحث عن زوجة ٠٠

وينبئه « هورتنسيو » بأنه يعرف فتاة غنية ، بل مفرطة الثراء ، ولكنها شرسة وفى حاجة الى ترويض ، ولذا فانه يربأ بنفسه أن يرشحها له ٠ ولكن الفتى الوارث يستهويه ذكر ثراء « كاتارينا » ، ويذكر انه يعرف أباها اذ كان صديقا لابيـــه المتوفى ٠٠ ويقول لمحدثه : « لن أنام يا هورتنســـيو حتى أراها ! » ٠٠ فيصحبه هذا الى دار أبيها ، **بعد أن يشترط عليه أن يسمح له بأن يتنكر فى زى مدرس يتقدم عارضا خدماته لتعليم بيانكا الموسيقى ، حتى يخلو له الجو فيتقرب اليها !**

وفى تلك الاثناء ، يكون « لوتشنتيو » ـ الذى تنكر منتحلا شخصية مدرس للشعر ـ قد كسب ود « جريميو » وأقنعه بأن يقدمه الى الاب كى يستأجره لتعليم بيانكا ، على أن يساعده في التقرب الى الفتاة !

وهكذا يلتقى الاربعة ٠٠ لوتشنتيو وجريميو وبتروكيو وهورتنسيو ٠٠ وما أن يعلم الاولان بعزم ثالثهما الشاب الوارث على الزواج من كاتارينا حتى يسأله جريميو :

ـ أو تراك قادرا على كسب ود هذه المتنمرة ؟

فيجيب الشاب بأنه قد صاد الاسود وركب أخطار البحر وخاض معارك الحرب ، فكيف ينتظر منه بعد ذلك أن يرهب لسان امرأة ؟

الفصل الثانى

◆ **فاذا** كان الفصل الثانى رأينا الستار ترفع عن غرفة فى بيت والد الفتاتين ، وقد ضربت كاتارينا أختها بيانكا ، فيتدخل أبوهما مبديا اشفاقه على المظلومة التى كانت تبكى ، ويرمى المعتدية بأنها تضم بين جوانحها روحا شريرة ٠٠ وتصيح كاتارينا بأنها أخيرا أدركت أن أباها يؤثر عليها أختها ، ويغدق عليها حبه دونها !

ويقبل اذ ذاك الشبان الاربعة : « جريميو » يصحب « لوتشنتيو » فى ثياب متواضعة لمدرس شعر ٠٠ وبتروكيو يصحب هورتنسيو وقد تنكر زاعما أنه مدرس موسيقى ٠٠ ويفد أيضا « ترانيو » وقد تزيى بزى « لوتشنتيو » وانتحل شخصيته ٠٠

ويبادر « بتروكيو » رب الدار قائلا : « خبرنى ٠٠ أليست لك ابنة تدعى كاتارينا ، جميلة وصالحة عفيفة ؟

واذ يرد الاب بالايجاب ، يقول الشاب : « **اننى سيد من فيرونا يا سيدى ، سمعت عن جمالها وذكائها ، وعن لطفها وتواضعها وحيائها ٠٠ فجرؤت على أن أستغل كرمك ، وأنزل فى ضيافتك ، لأشهد بعينى ما سمعت أذناى ٠٠ وانى لأهبك ـ كهدية للتعارف ـ رجلا من أتباعى (يشير الى « هورتنسيو »)**

برع فى الموسيقى والعلوم الرياضية ، كى يفقهها فى هذه العلوم ٠٠ ومع اننى أدرك أنها ليست بالجاهلة ، الا أننى أرجو أن تتقبله والا عددتها اهانة » ٠٠

ـ على الرحب والسعة يا سيدى بك ، وبه من أجلك ٠٠ أما ابنتى كاتارينا فانى أعلم أنها لا تليق لك ، وهذا مما يزيد من أساى ٠٠

وفى تلك الاثناء يتقدم « جريميو » الى الاب فيقدم اليه « لوتشنتيو » على أنه الشاعر « كامبيو » الذى درس حتى أجاد اللغة اليونانية ، وحذق اللاتينية وبعض اللغات الاخرى !

كما يتقدم الخادم « ترانيو » متنكرا فى زى سيده «لوتشنتيو» فيطلب بدوره يد « بيانكا » ٠٠ ويرحب الاب به باعتبار أنه ابن صديقه « فنتشنتيو » ٠٠ ويقبل خطوبة « بتروكيو » لكاتارينا ، ويتفقان على كافة الامور ٠٠ غير أنه يشترط عليه أن يكتسب حب كاتارينا كشرط أساسى للزواج ، فيقول بتروكيو :

ـ حيثما التقت ناران فانهما تأتيان على الشىء الذى يغذى وقدتهما ٠٠ واذا كانت النار الصغيرة تذكيها النسمات ، فان الهواء العاتى يقضى على النار قضاء مبرما ٠٠

ويشرع « هورتنسيو » فى تعليم « كاتارينا » الموسيقى ، فلا تتورع فى الدرس الاول عن أن تحطم القيثارة على رأسه ! ٠٠ ويكون تعليق « بتروكيو » على ذلك أن هذا العمل منها انما زاد حبه لها عشر مرات !٠٠ ويسأل أباها أن يدعوها اليه ، وهو يعتزم أن يتقرب اليها بأحلى العبارات المعسولة ، كأن يقول لها أن شدوها أحلى من تغاريد البلابل ٠٠ واذا عبست ، فلن يتورع عن أن يزعم لها أنها أصفى ما تكون ٠٠ ولو طردته ، فسيقابل ذلك بالشكر وكأنها تدعوه لكى يطيل اقامته !

وتفد « كاتارينا » فيبادرها بسيل من عبارات الاطراء الناعمة المعسولة ، يختتمها عارضا عليها الزواج ، ولكنها تجيبه

بلسانها المقذع السليط ·· ويروح يحاورها فتصفعه وهى تقول : « دعنى أمضى ·· »

فيجيبها : « لن يكون ذلك ·· اننى أراك فى منتهى اللطف ·· لقد قيل لى عنك أنك خشنة ، سليطة ، نافرة عنيدة ، ولكنى وجدت ما قيل كذبا·· فأنت أنيسة، كريمة ، سلسة·· » ·· ويمضى يفسر لها احجامها عن الكلام على أنه بطء فى اللفظ! ويزعم لها أنها لا تعرف العبوس مهما حاولته ، وأن ما قيل له عن أن بها عرجا ليس سوى دليل على كذب أهل الدنيا وبذاءتهم، فما هذا عرج ، ولكنها تسير كما يحجل الغزال !·· وتسائله الفتاة : « أين تعلمت هذه اللباقة ؟ »

فيجيبها : « انما هى انعكاس لذكاء أمى » ·· ثم يضيف ان أباها قد وافق على أن يزوجه اياها ·· ويستطرد قائلا : « وسأجعل من « كاتارينا » الشرسة كاترينا أليفة كأية ربة بيت !·· ها هوذا أبوك قادم فلا تعربى عن رفض ، فانى قد عقدت العزم على أن تكون كاتارين زوجة لى ·· ولسوف تكون!»

ويدخل الاب المكان ، فتقول الفتاة له : « أى حنان أبوى أظهرته اذ رغبت فى أن تزوجنى من شبه معتوه !؟ »

فينبرى « بتروكيو » قائلا لأبيها : « هاك جلية الامر يا أبى : انك وجميع الناس قد تكلمتم عنها بغير الحق ·· أما أنا فقد استطعت أن أفهمها، وسرعان ما انسجمنا وتلاءمنا لدرجة تجعلنا نحدد يوم الاحد موعدا للزفاف !

فتقول كاترينا : « **لئن أراك مشنوقا يوم الاحد ، أيسر عندى من أن أرانى عروسا لك !** »

بتروكيو : يا لك من محبة للدعابة ·· أقول لكم انكم لن تتصوروا مبلغ حبها لى ، « كيت » اللطيفة الحنون ، أرق نساء الارض جميعا ! لقد تعلقت برقبتى وراحت تمطرنى بالقبلة تلو القبلة ·· وتقسم محتجة ، اليمين بعد اليمين ، اننى قد ظفرت

بحبها الابدى ٠٠ أعطينى يدك يا كيت : أعاهدك أن أسافر توا الى فينيسيا لأعد ما يلزم ليوم الزفاف !

ويبارك الاب هذا القرار ٠٠ ولا يلبث « ترانيو » ـ منتحلا شخصية « لوتشنتيو » ـ أن يسحر الاب بحديثه عن ثراء أبيه « فنتشنتيو » ، حتى يتغلب على « جريميو » فيزيحه عن طريق « بيانكا » ٠٠ وبذلك يخلو له الجو !

الفصل الثالث

◆ **ويحين** يوم الزفاف ، ولكن « بتروكيو » يتـأخر فى الحضور الى دار « بابتيستا » ، فاذا الرجل قلق ، مضطرب ، يتحدث عن العار الذى سوف يلحق بأسرته ، ولكن « كاتارينا » تقول :

ـ انما العار عارى وحدى ، فلسوف تشير الدنيا كلها الى « كاتارينا » المسكينة وتقول : « ها هى ذى عروس «بتروكيو» المجنون ٠٠ تنتظره ليتزوجها حين يحلو له ! »

ويظهر « بتروكيو » أخيرا ، مرتديا قبعة جديدة ، وعباءة قديمة ، وثوبا لركوب الخيل أصابه البلى ٠٠ وفى قدميه ، حذاءان متباينان ، أحدهما له رباط ، والآخر له حزام ٠٠ وقد تمنطق بسيف علاه الصدأ ، وبدا جواده مغبرا هزيلا مثله ٠٠

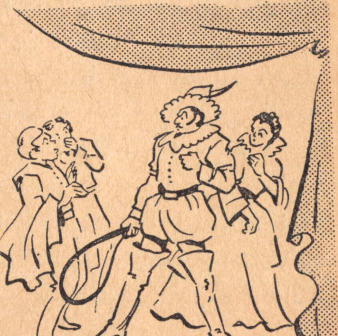
ويهتف بابتيستا : « ما هذا يا سيدى ٠٠ انك لتعرف انه يوم زفافك ! » ٠٠ ويهيب به « ترانيو » وهو فى شخصية « لوتشنتيو » : « لا تلق عروسك بهذه الثياب المزرية ٠٠ اذهب الى حجرتى ، وانتق من ثيابى ما يناسبك »

ولكن الشاب الثرى يقول : « لست أنا الذى يفعل ذلك ، ولن ألقاها الا على هذه الحال ٠٠ انها ستزف الى وليس الى ثيابى ! »

وفى الكنيسة يهين « بتروكيو » القس !٠٠ وما أن تنتهى مراسم الاكليل حتى يأمر بالخمر أن تقدم ، ويقبل عروسه قبلة يتردد صوتها فى أرجاء الكنيسة٠٠ ويروح يسب ويصخب ٠٠ حتى اذا عاد الى دار حميه مع عروسه ، أبى أن يبقى حتى تنتهى وليمة العرس ، بل نراه يصر على الرحيل ، فتقول كاتارينا : « افعل ما شئت فلست براحلة اليوم ٠٠ أيها السادة ، هيا الى المائدة ٠٠ فانى أعتقد أن الزوجة التى لا تملك قوة المقاومة خليقة بأن تعتبر غبية حمقاء ! »

ويهتف « بتروكيو » : « **أطيعوا العروس وهيا الى المأدبة ، وكلوا واشربوا ، وتحرروا من قيود العقل وامرحوا ٠٠ وان شئتم فاشنقوا أنفسكم ٠٠ أما جميلتى « كيت » فستصحبنى ٠٠ لا، لا تحملقوا، ولا تدقى الارض بقدمك٠٠ سأبسط سيادتى على ما هو لى ٠٠ انها كل ما أملك ٠٠ انها بيتى ، وحقلى ، وصومعة غلالى ، وجوادى ، وثورى ، وبغلى ، وكل شىء لدى ٠٠ وانها لتقف أمامكم ، فليجرؤ أحدكم على أن يلمسها ٠٠ سأنزل نقمتى على من يجرؤ على أن يعترض طريقى فى « بادوا » ٠٠ لا تخافى يا صغيرتى ، فلن يمسك أحد ٠٠ وانى لكفيل بأن أذود عنك مليونا من الناس ! »**

وينصرف بها ٠٠ بينما يلتفت « جريميو » الى « بيانكا » فتقول له : « ان كيت مجنونة ٠٠ ومروضها أكثر جنونا ! »



فليجرؤ أحدكم أن يلمسها ٠٠

الفصل الرابع

◆ **ونبقى فى (بادوا) لنشهد « بيانكا » وقد استمرأت** دراسة الشعر على « لوتشنتيو » ، ففضلته على « هورتنسيو » وقربته اليها ٠٠ بينما يعمل « ترانيو » على أن يصرف الاخير عن السعى لنيل الفتاة ، ويحبذ له الزواج من أرملة غنية !

أما بتروكيو وكاتارينا ، فلا يلبثان بعد رحلة أليمة أن يبلغا دار « بتروكيو » الريفية ، ومنذ أن يهبطا بها لا يكف العريس عن الصخب والصياح فى خدمه ٠٠ حتى اذا أعدوا مائدة العشاء ، لم يحجم عن أن يرميهم باللحوم قائلا انهم أحرقوها ٠٠ متعمدا أن يبدو فظا ، عنيفا ، شرسا ، حتى لا يدع لكاتارينا فرصة تبدى فيها روحها المتمردة !

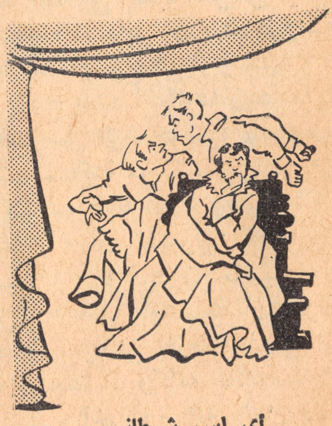
واذ يؤوبا الى مخدعهما ، يلاحظ خطأ فى اعداد الفراش فيدع كاتارينا جالسة طيلة الليل على مقعد ، اذ يأبى أن تنام عروسه فى فراش لم يعن باعداده !٠٠ وهكذا ، يشرع فى ترويضها ٠٠ فلا يدع لها سبيلا الى النوم ، اذ يروح يعدد أخطاءها ويحاسبها عليها ٠٠ ويحبس عنها الطعام ، فتتوسل الى « جريميو » – وهو لا يزال منتحلا دور تابع له – شاكية مر الشكوى من أن « بتروكيو » يزداد غلظة كلما اكتشف خطأ لها ، وتقول :

– أتراه تزوجنى ليميتنى جوعا ؟٠٠ ان المتسولين كانوا اذا جاءوا الى باب أبى يسألون احسانا ، لا يردون خائبين ٠٠ ولكننى قط لم أتعود أن أتوسل ٠٠ اننى أوشك أن أموت جوعا ، ولا أكاد أقوى على الاحتفاظ بتوازنى لفرط حاجتى الى النوم ، اذ يستبقينى بشتائمه مسهدة ، وكأنه بالشجار يغذينى ، ويثيرنى أكثر من كل شئ آخر ٠٠ انه يفعل ذلك باسم الحب الصادق !

وأخيرا ، يسمح « بتروكيو » لها بأن تنال قسطا ضئيلا من الطعام ، ويأخذ فى الحديث عن العودة الى (بادوا) والنزول فى دار حميه ٠٠ ويدعو حائكا وبائع « خردوات » ليعرضا عليه ما طلب اعداده من ثياب وزينة لزوجته فى رحلتها المقبلة ولكنه لا يكف عن انتقاد كل ما يعرضان : يريه التاجر قبعة فيقول انها صغيرة ويطلب أخرى كبيرة ، فاذا ذكرت كاتارينا أن صغر حجمها من ميزات تطور الزى « المودة » قال لها أمام الحائك والتاجر ، ان « المودة » للمهذبات ولن تكون لها قبعة صغيرة الى أن تصبح مهذبة !

ويتحول الى الحائك فيوسع الثوب الذى أعده لكاتارينا انتقادا ، ويصيح فيه : « أى اسم شيطانى تطلقه على هذا الشىء ؟ »

ويقول الرجل : « ولكنك أوصيتنى بأن أعد الثوب وفقا للزى الشائع فى هذه الايام »



أى اسم شيطانى تطلقه على هذا « الشىء ؟ »

وتقول كاتارينا : « لم أر ثوبا يفوق هذا حسنا وتفصيلا ٠٠ أتريد أن تجعلنى مسخا ؟ »

وفى خبث، يتعمد «بتروكيو» أن يأخذ كلامها على أنه موجه الى الحائك فيقول : « حقا ٠٠ انه يريد أن يجعلك مسخا ٠٠ أغرب أيها الوغد ! »

ويتحول بعد ذلك الى كاتارينا قائلا : « سنذهب الى أبيك يا كيتى ، ولو فى هذه الثياب المتواضعة ٠٠ فان بدت ثيابنا

فقيرة المظهر، الا أن أكياسنا ستنتفخ زهوا بما يملؤها من مال٠٠ كما أن العقل هو الذى يضفى على الجسد ثروة ٠٠ والشرف يطغى على كل ضعة !

وفى تلك الاثناء يكون « ترانيو » قد عثر فى (بادوا) على غريب أقنعه بأن ينتحل شخصية « فنتشنتيو » ـ والد « لوتشنتيو » ـ وأن يقر التدبيرات التى اتخذها « ترانيو » ـ منتحلا شخصية سيده ـ ويقنع بابتيستا بالموافقة على زواج ابنته « بيانكا » من « لوتشنتيو » !

الفصل الخامس

◆ **أما** وقد وافق بابتيستا على زواج ابنته الصغرى ، فان « لوتشنتيو » ـ الحقيقى ، لا خادمه ـ يبادر الى عقد قرانه عليها فى الخفاء ٠٠ ولا يلبث أن يصل الى « بادوا » أبوه ـ فنتشنتيو الحقيقى ـ فما أن يرى « ترانيو » فى ثياب ابنه منتحلا شخصيته ، حتى يتملكه الجزع ، ويخال أن ابنه قد اغتيل غدرا ٠٠

واذ يتأزم الموقف ، يضطر « لوتشنتيو » الى الظهور والاعتراف بكل ما حدث ، فيغفر له أبوه ويغفر بابتيستا لابنته « بيانكا » ويباركان زواجهما ٠٠

ويصل « بتروكيو » مع « كاتارينا » التى أظهرت خلال الرحلة كل خضوع وطاعة لزوجها ، بل وأصبحت تحبه !

ويدعى الزوجان ، و « هورتنسيو » وزوجته الارملة الثرية، الى مأدبة فى دار « لوتشنتيو » و « بيانكا » ٠٠ وما أن يفرغ الجميع من تناول الطعام ، وترفع المائدة ، حتى تجتمع السيدات فى حجرة ، ويخلو الجو للرجال ٠٠ ومن الطبيعى أن يحاول القوم أن يتعرفوا مدى ما كان من أمر « بتروكيو » مع كاتارينا الشرسة الجامحة ٠٠ **ولا يكاد أحد أن يصدق**

الشاب وهو يؤكد فى اعتداد انه قد أفلح فى أن يروض زوجته ويجعلها أليفة ذلولا !٠٠ ويتحداهم - وهو واثق من فوزه - أن يقارنوا بين طاعة كاتارينا له ، وطاعة كل من بيانكا والارملة الغنية لزوجيهما !٠٠ ويصـــدع لاقتراح من « لوتشنتيو » فيقدم مائة « كراون » - وهو نوع من العملة - لمن يثبت أن زوجته أكثر طاعة من كاتارينا !

ويدعو الازواج الثلاثة زوجاتهـــــم ٠٠ فلا تحفل بيانكا والارملة بتلبية الدعوة ، بينما تخف كاتارينـا الى حيث جلس الرجال ، وتقول لبتروكيو : « هل تبغى منى شيئا يا سيدى ؟» ٠٠ فيجيبها متسائلا : « أين أختك وزوجة هورتنسيو » ؟

- انهما تتجاذبان أطراف الحديث الى جانب مدفأة قاعـة الجلوس ٠٠

- اذهبى فادعيهما ، فان أبتا الحضور ، فادفعيهما دفعا الى زوجيهما !

وتخرج كاتارينا ، ثم لا تلبث أن تعود مصطحبة بيـــانكا زوجة هورتنسيو ٠٠ واذ ذاك يقول لها « بتروكيو » مشيرا الى القبعة الواسعة التى كان قد اضطرها الى ارتدائها : « هذه القبعة لم تعد تلائمك يا كاتارين ، فاخلعيها وألقى بها تحت قدمك »

وتصدع كاتارينا لرغبته ، فتهتف زوجة هورتنســـيو : « جنبنى يا الهى أى سبب يدفع بى الى مثل هذا المسلك ! » وتقول « بيانكا » : « هراء !٠٠ أى غباء هذا الذى تزعمونه واجبا ؟ » ٠٠ فيقول « لوتشنتيو » : « وددت لو كان لك هذا الغباء فى ادراك الواجب ، فان حكمتك يا « بيانكا » قد كلفتنى مائة « كراون » مذ فرغنا من العشاء !

- وهذا دليل جديد على الغباء ٠٠ اذ كيف تراهن على فهمى للواجب ؟

فيلتفت « بتروكيو » الى « كاتارينا » قائلا : « اننى أعهـد اليك يا كاتارينا بأن تخبرى هاتين العنيدتين بما تدينان به من

واجب نحو سيديهما وزوجيهما »

فتقول زوجة هورتنسيو : « مهلا .. لسنا بحاجة الى ارشاد»

.. ولكن « كاتارينا » تقول : « **حلى عقدة هذا الجبين العابس، ولا تبعثى من عينيك نظرات الازدراء التى تجرح مولاك وملكك وحاكمك .. انها تفسد جمالك كما يتلف الصقيع البستان.. وتعصف بسمعتك كما تعصف الزوابع بالبراعم الرقيقة .. والمرأة المنفعلة لا يمكن أن تحتمل أو تحب بحال من الاحوال .. فهى كبركة الماء اذا اضطرب ماؤها ، تبدت موحلة ، شوهاء المنظر ، عديمة الجمال !**

« انما الزوج مولاك .. هو الذى يرعاك ويعنى بأن يعولك .. يعرض جسده للعمل الشاق ، فى البحر والبر على السواء .. يتأمل الليل وسط الزوابع ، والنهار فى البرد القارس ، بينما تنامين ناعمة بدفء بيتك ، آمنة سليمة .. دون أن يصبو الى جزاء منك ، اللهم الا الحب ، والوجه البشوش ، والطاعة الحقة ..

« اننى لأخجل اذ أرى النساء من الجهل بحيث يثرن الحرب حيث ينبغى أن يسجدن من أجل السلام .. أو يسعين ليكون لهن السلطان والسيطرة والكلمة العليا ، فى حين يحق عليهن أن يبذلن الخدمة ، والحب ، والطاعة .. لقد كان لى من الفكر ما يضارع فكر أى منكما كبرا ، وكان قلبى فى سعة قلب أى منكما ، ولعلنى كنت أكثر منكما عقلا ، وأقدر على أن أرد الكلمة بكلمة ، والعبوس بعبوس .. ولكننى الآن أصبحت أرى أن حرابنا ليست سوى أعواد من القش .. وان قوتنا ليست سوى ضعف يتجاوز كل وصف .. »

*

◆ **وهنا** تنتهى المسرحية .. وتبقى المسرحية الاخرى .. الاطار الخارجى .. « دهليز » المسرحية ، أو المقدمة .. فنحن بعد لم ننس « سلاى » السكير الفقير الذى شاءت نزوة أحد

اللوردات أن تجعله « لوردا » لفترة وجيزة ، كى يتسلى برؤية ما يكون من تصرفاته !

ونحن قد تركناه قبيل الفصل الاول وهو يجلس الى جوار الحسناء التي زعموها زوجته ، يشهد المسرحية الفكهة التى تمثلها الفرقة التى يستضيفها اللورد ، دون أن يكون له فيها دور يذكر ، اللهم الا بعض تعليقات أخذ يدلى بها وهو لا يكف عن الشراب ٠٠ حتى يثمل ويفقد رشده ، واذ ذاك يأمر اللورد الحقيقى بأن يدثر بثيابه ، ثم يحمل الى البقعة التى التقط عندها ٠٠ وهناك يترك وهو يغط فى سباته حتى يوقظه الخمار

ويصحو « سلاى » فيهتف : « الى بمزيد من النبيذ ٠٠ هل ذهب جميع الممثلين ؟ »

ويفطن الى ثيابه وما حوله ، فيهتف : « ألست لوردا ؟ »

فيصيح به الخمار : « تنبه ٠٠ أما زلت ثملا ؟ »

ـ من هذا ؟٠٠ الخمار !؟٠٠ أواه ، لقد غشينى الليلة حلم ما أظنك رأيت مثله طيلة حياتك ؟

ـ فليكن ٠٠ بيد أنه يحسن بك أن تسعى الى دارك ، فان زوجتك لن تغتفر لك ان قضيت ليلتك تحلم هنا !

فيصيح سلاى : « **حقا ؟٠٠ اننى أعرف الآن كيف أروض الشرسة المتنمرة٠٠ فقد قضيت الليل أحلم بذلك، حتى أيقظتنى من خير حلم رأيته فى حياتى ٠٠ وسأطبقه على زوجتى فى الحال فأروضها هى الاخرى ٠٠ حتى اذا أغضبتنى ٠٠** »

ـ على رسلك يا « سلاى » ٠٠ سأصحبك الى البيت واسمع منك قصة حلم الليلة ٠٠

ويخرجان ٠٠ وتسدل الستار

بنك مصر

شركة مساهمة مصرية

رقم المركز الرئيسى بالسجل التجارى ٢ ـ القاهرة

قـــرارات

الجمعية العمومية العادية لمساهمى بنك مصر المنعقدة بدار البنك فى يوم السبت ٢٧ مارس سنة ١٩٥٤

قررت الجمعية العمومية بالاجماع ما يأتى :

أولا ـ التصديق على تقرير مجلس الادارة وعلى الميزانية والحسابات للسنة المنتهية فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٣ واخلاء طرف أعضاء مجلس الادارة من كل ما يتعلق بادارتهم فى السنة المذكورة ٠

ثانيا ـ الموافقة على توزيع الارباح كاقتراح مجلس الادارة وصرف مبلغ خمسة وثمانين قرشا عن كل سهم ـ بدون استقطاع ضرائب ـ مقابل تقديم الكوبون رقم ٣١ مصحوبا بالسهم الى بنك مصر أو أحد فروعه ابتداء من يوم الاثنين ٥ أبريل سنة ١٩٥٤ ٠

ثالثا ـ اعادة اختيار حضرات أعضاء مجلس الادارة الذين انتهت مدة عضويتهم وهم السادة : عبد المقصود احمد ٠ وخليل الجزار ٠ ومحمد أمين شهيب ٠

رابعا ـ اعادة انتخاب السيد محمود شكرى والسيد مراد وهبه عضوين بمجلس الادارة طبقا للمادة ٣٣ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٥٤ ٠

خامسا ـ اعتماد ضم السيد على اسلام والاستاذ محمد محمود جلال الى عضوية مجلس الادارة ٠

سادسا ـ الترخيص لمجلس الادارة بالتبرع فى حدود المادة رقم ٤٠ من القانون رقم ١٦ لسنة ١٩٥٤ ٠

سابعا ـ اعادة تعيين السيد فؤاد احمد الصواف وجناب ف٠ر٠ و رودز مراقبين للحسابات لسنة ١٩٥٤ وتحديد أتعابهما ٠

الحياة
قصة



روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء: جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج:اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام: فيكتورهوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة :ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله: روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : اونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين: سنكليرلويس
- الشيطان على الارض: رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- الحب الاول : ترجنيف
- تاييس : أناتول فرانس
- بلاد العميان : ه.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- الزوج والعشيق : موم
- البوهيمية : هنرى مرجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه القصة الرائعة من مأساة الزوجة الخاطئة!



ستيفان زفايج

الخوف

تلخيص الاستاذ : كليم ابو سيف

- ١ -

◆ **استولى** على « ايرين » رعب مفاجىء وهى خارجــة من منزل « عشيقها » ، واستبدت ببدنها رعدة قوية لم تدرك لها سببا !! ٠٠ بل لقد أحست وهى تنزل السلم ، بركبتيهــا لا تقويان على حملها ٠٠ حتى لقد تحاملت على افريز الســلم كى لا تسقط على الارض !

ولم تكن هذه أول مرة تأتى فيها « ايرين » للقاء عشيقها فى منزله ، ومع ذلك فقد تكرر احساسها بنفس هــذا الشعور بالخوف الشديد ، فى كل مرة كانت تغادر فيها منزل العشيق !

ولم يكن يكتنف حضورها الى منزل هذا العشيق شىء من الصعوبة ٠٠ ففى كل مرة كانت تأتى فى عربة تقف بها بالقرب من المنزل ، فتهبط منها وتمضى مسرعة ، ثم تصعد السلم على عجل دون ان تتلفت يمنة او يسرة ٠٠ لكن القلق والهواجس التى كانت تساورها فى تلك اللحظات ، كانت لا تلبث ان تذيبها حرارة اللقاء ولفحات الترحيب الملتهب والشوق الجارف !٠٠

فاذا ما عادت « ايرين » الى منزلها بعد ذلك ، بدأت تحس بوخز الضمير ، وترزح تحت اثقال الخطيئة ٠٠ يلازمها ابدا ذلك الخوف من ان يكون قد رآها أحد وهى ذاهبة او عائدة من منزل العشيق ، فيدرك خبيئة امرها مما يبدو عليهــا من ارتباك !

وكانت اللحظات الاخيرة فى كل لقاء لحظات مسمومة ، لانها كانت تدنيها من وقت الرحيل ٠٠ من الخــروج الى الشارع ٠٠ بل كانت اللحظات التى تقف فيها خلف الباب ، تسترق السمع تأهبا للخروج ، اثقل اللحظات وطــأة على نفسها ٠٠ اذ كانت تحس خلالها كأن انفاسها تكاد أن تخمد ، وقلبها يوشك ان يقف !! ان « الخوف » كان دائما يترصدها

فى « الخارج » ، فكانت لا تكاد تخطو بضع خطوات ، حتى تبدأ انفاسها تلهث ، كما لو كانت مشتركة فى مسابقة عدو لعدة اميال !!

وقد كانت « ايرين » خارجة من منزل عشيقها فى آخر مرة ، وحالها كما وصفنا ، فلما هبطت السلم وقفت برهة تسترد انفاسها المكروبة ، وتستنشق قليلا من الهواء البارد.. واذا هى تسمع باب مسكن فى الدور الاعلى يغلق فجأةفيحدث قرقعة .. فانتفض بدنها واسرعت بنزول السلم وقد اسدلت على وجهها قناعا كثيفا تعودت اسداله فى مثل هذه المناسبات حتى لا يتعرف عليها احد !

وتهيأت لمغادرة المنزل الى الشارع وهى تسرع الخطى الى الباب الرئيسى محاولة عبوره .. ولكن القدر اراد ان يهىء لها فى تلك اللحظة حادثا رهيبا : اذ ما كادت تصل الى الباب الرئيسى حتى اعترضت طريقها امرأة ، فاصطدمتا معا .. واذ ذاك قالت ايرين فى عجلة ظاهرة : « معذرة !! » وهمت بعبور الباب .. ولكن المرأة سدت عليها الطريق وهى تحدجها بنظرة ملؤها الغضب والاحتقار ، وابتدرتها بلهجة بادية القسوة والانفعال : « **أخيرا .. هأنذا أضبطك يا سيدتى !! انك ولا شك امرأة شريفة ، أو ما يصفونها على الاقل بانها امرأة شريفة ! .. امرأة لا تقنع بزوجها ، ولا بحال زوجها ، ولا بكل ما لديها من اسباب المتعة والرفاهية والرخاء ، فتسطو على صديق فتاة فقيرة لتسلبها اياه !!** »

مادت الارض « بايرين » ، واجابت وقد جف حلقها من الفزع : « بحق السماء ! ماذا بك يا سيدتى !؟ انك لا شك مخطئة ؟! » .. وحاولت أن تشق لها طريقا نحو الباب لتلوذ بالفرار .. ولكن المرأة اعترضتها ، وقد سدت بجسمها السميك الطريق سدا حتى استحال على « ايرين » المرور ، وصاحت بها : « لا ! لست مخطئة !.. اننى أعرف من أنت !

انك قادمة من عند « ادوار » ، صديقى ادوار ! والان وقـــد نجحت فى ضبطك ، أعرف لماذا صار هو يعرض عنى ويزهد فى ٠٠ ولماذا لا يكاد يجد متسعا من الوقت يلقانى فيـه !٠٠ ان هذا كله بسببك ! بسببك أنت يا ٠٠! »

فقاطعتها « ايرين »واجفة متلعثمة : « بحق السماء ،لاتصيحى هكذا ! »

٠٠ وأحست بقوة تدفعها الى الوراء ، فتراجعت برغمهـا بضع خطوات ٠٠ والمرأة تصوب اليها نظراتها الصارمـــة ، الغامضة ، المسنونة كالنصل ، وقد ابتسمت ابتسامة صفراء ٠٠ ثم استطردت تخاطب « ايرين » بصوتها المنكر : « هكذا النساء المتزوجات المترفات ! النساء الفاتنات الراقيات المهذبات ٠٠ انهن يضعن على وجوههن نقابا سميكا حتى يتمكن من سرقة رجال غيرهن ٠٠ وبعدئذ يستأنفن لعب دور النساء الشريفات، كما لو أن منكرا لم يحدث ، وجريمة لم تقع ! »

فأجابت ايرين وقد انهارت من الرعب : « ماذا ؟ ماذا تقولين يا هذه ؟ وماذا تريدين منى ؟ اننى لا أعرفك ٠٠ اليك عنى ٠٠ يجب أن أذهب »

فهتفت المرأة منكرة : « **تذهبين؟ نعم تذهبين الى السيد زوجك، الى منزله الدافىء الجميل ٠٠ حيث يسارع الخدم الى استقبالك، وتهرول الخادمات الى لقائك ومساعدتك على خلع ثيابك ٠٠ لانك سيدة من الطبقة الرفيعة المترفة !! ٠٠ أما نحن ، فلنتضور جوعا ، ونسلب الشىء الوحيد الذى بقى لنا فى الوجود ! فانكن يا معشر السيدات الراقيات لا تلقين بالا الى أمـــرنا ، لانه لا يعنيكن بحال !** »

يا للموقف البشع الذى وجدت التعسة « ايرين » نفسهـا فيه ! ٠٠ انها تترنح وتهتز كالريشة أمام هذا الاعصـــار الضارى المفاجىء ٠٠ فماذا تصنع لتنجو بنفسها ؟ لم تجـــد ما تصنعه فى ارتباكها ، وحيرتها ، وذعرها ، سوى ان تدس

يدها فى حقيبتها باحثة عن نقود ٠٠ واخرجت منها كل ما كان فيها ٠٠ وبيد مرتعشة دست النقود فى يد تلك المرأة اللعينة قائلة : « خذى ! خذى هذا ! »

أطبقت المرأة أصابعها على النقود وصوبت اليها نظـــرة شريرة ، ثم صرت على أسنانها قائلة لها : « يا قذرة !! »

ارتعدت اوصال ايرين عندما سمعت هذه الكلمة ، لـكنها لاحظت ان المرأة قد افسحت لها الطريق ٠٠ فهرولت مشدوهة الى الخارج ، كمن يلقى بنفسه من قمة برج عال لينتحر تخلصا من الحياة ! ٠٠ وما كادت تجد نفسها فى الطريق العـــام حتى احست بالعرق البارد يتصبب منها ، ورأت عربة واقفة فى ركن من الشارع فقفزت الى داخلها والقت بنفسهـــا على مقعدها خائرة مضعضعة ، لاهثة الانفاس !

وسارت بها العربة مسافة على غير هدى ٠٠ وفجأة تنبـه السائق الى ما يحوط أمر السيدة الراكبة من غرابة، فانه يسير بها دون أن يعرف الى أين تبغى الذهاب !٠٠ فلما سألها ، أفاقت من غشيتها واجابت قائلة : « الى محطة الشمال » ٠٠ وهنــا خيل اليها ان المرأة المنكودة قـــد تكون فى أثرها ، فأهابت بالسائق تقول : « اسرع ! اسرع ما استطعت ! »

وجلست فى داخل العربة كالجثة بلا حراك ٠٠ ولما بدأت الحيـــاة تدب فى أوصالها ، أخذت تستعرض هول الموقف الذى اكتنفها منذ برهة ٠٠ فأحست بلعابها وكأنه صبابة من العلقم ٠٠ ودارت بها الارض الفضاء ٠٠ يالهول ما جرى ! أيمكن أن يكون هذا حقيقة ؟ وتذكرت أمرا زاد من ارتباكها وحرج موقفها : لقد أعطت المرأة معظم ما كان معها من نقود ، دون أن تفـــكر فيما يكفى أجرا للعربة ! ٠٠ فأمرت السائق بالوقوف ، ووجدت ما تبقى معها من نقود كافيا لحسن الحظ ، فنقدته اياه وانصرفت مسرعة ، برغم انها ماتزال بعيدة عن منزلها ٠٠ لقد تحتم عليها أن تقطع المسافة الباقية سيرا على قدميها ٠٠ واذا بها تجد نفسها فى حى غريب مملوء بالمارة الذين كانوا يرمقونها بنظرات ظنت أنها ذات معنى ! ان « الخوف » يلوى قدميها حتى انها لا تكاد تقوى على المسير ٠٠ وظلت تجر نفسها جرا ، من شارع الى شارع ، حتى وجدت نفسها اخيرا أمام منزلها ٠٠

تريثت قليلا .. ثم وقفت لتستجمع ما بقى لها من حطام قوة ، وتسترد بضعة أنفاس محتبسة لتعاونها على الصعود الى بيتها ..

ها هى تصعد السلم الآن .. وتدخل بيتها .. وهاهى الخادمة تخف مسرعة اليها .. وتعاونها على خلع معطفها !

ان الهدوء يعود اليها رويدا ، وهى فى أحضان بيتها الدافىء الجميل.. ويمتزج الهدوء بشىء من راحة القلب عندما يطرق أذنيها صوت ابنها وهو يعابث أخته وهما يلعبان سويا .. غير أن هذا الهدوء كان سطحيا ، فان ما وقع لها منذ لحظات لا يزال يدوى بين جنبيها ، كعاصفة عاتية هوجاء تكاد تقتلع فؤادها اقتلاعا !

بذلت « ايرين » مجهودا جبارا كى تبدو فى حال طبيعية ما استطاعت .. ومضت من فورها الى غرفة الطعام ، حيث كان زوجها جالسا الى المائدة يتصفح احدى الصحف ، بينما كان طعام العشاء قد أعد على المائدة .. وسمعت زوجها يوجه اليها الكلام موبخا ، ولكن فى رفق : « لقد تأخرت قليلا ياعزيزتى !.. ثم نهض من مكانه وذهب الى حيث كانت جالسة ، فطبع على خدها قبلة رقيقة أيقظت فيها أحساسا عميقا أليما .. ولم يلبث ان سألها فى غير اكتراث : « أين تأخرت كل هذا الوقت ؟! » .. فأجابت متلعثمة : « لقد كنت .. لقد كنت عند « اميلى » أساعدها فى شراء بعض لوازمها .. »

ان « الخوف » أعماها عن اتخاذ الحيطة الواجبة .. ترى ، ماذا يحدث لو سأل زوجها «اميلى» تليفونيا عن حقيقة الامر ؟! ولكنه لم يسأل ، بل قال لزوجته مندهشا : « ماذا بك يا عزيزتى ؟ اننى أراك بادية الارتباك .. ما هذا الذى أرى ؟ لماذا تضعين قبعتك على رأسك حتى الآن !؟ »

أسرعت « ايرين » على أثر هذه الملاحظة الى حجرتها ، متعثرة واجفة ، فخلعت قبعتها .. ولبثت برهة تمعن النظر فى وجهها فى المرآة لتستوثق من أنها أصبحت قريبة من حالها الطبيعية ، ثم عادت الى غرفة المائدة من جديد ..

وكانت الخادم تقوم بالخدمة أثناء تناول الطعام . وانقضى المساء فى صمت مطبق وفتور واضح .. اذ لم تستطع « ايرين » أن تطرد من مخيلتها منظر تلك المرأة المشؤومة التى اعترضت طريقها منذ وقت وجيز !

*

◆ فى صبيحة اليوم التالى ، وبعد خروج زوجها الى عمله ، وذهاب ولديها الى رياضتهما اليومية المعتادة ، أخذت « ايرين » تستعرض الموقف فى شىء من الهدوء وصفاء الذهن، بعد أن زال عنها هول الصدمة المفاجئة التى أفقدتها قوة التميز واتزان التقدير .. فشعرت بشىء من الطمأنينة لان القناع الذى كانت تسدله على وجهها كان من الكثافة بحيث يستحيل على

تلك المرأة أن تتعرف خلاله على شخصيتها !.. ولكى لا تستهدف لهذا الخطر الداهم مرة أخرى ، اتخذت قرارا لا رجعة فيه : هو أن لا تعود الى ذلك المكان على الاطلاق .. وان تقطع كل صلة لها بعشيقها فى المستقبل ، مهما كلفها الامر !

انها تستبعد أن تكون المرأة قد عرفتها ، أو عرفت شيئا عنها : اسمها مثلا .. أو عنوانها .. ومن تكون ؟! فقد فرت فى عربة ولم يكن هناك شك فى أن المرأة لم تكن فى أثرها !

ومع افتراض أبعد الاحتمالات ، وهو أن تلتقى المرأة بها ، وتعرف شخصيتها فاغلب الظن ان هذا اللقاء لن يتم الا فى مكان آمن ، يسهل على « ايرين » فيه أن تنكر انكارا تاما ما قد تفكر تلك المرأة فى توجيهه اليها من اتهام !

كانت « ايرين » زوجة أحد كبار المحامين فى المدينة .. ومن عجائب المصادفات أنها ذات مرة سمعت زوجها يقول فى حديث عابر أنه قد تبين له بعد طول الاختبار ان أية محاولة للتشهير بسمعة أى انسان ، اذا قوبلت برباطة جأش فانها تموت فى مهدها .. وانه كلما بدت الضحية قلقة ، خائفة ، زاد ذلك من قوة خصمها ، والعكس بالعكس !

وعليه فقد أخذت « ايرين » فى وضع خطة محكمة للدفاع عن نفسها ضد هذا الشبح المخيف : فكان أول ما فعلته هو أن أرسلت خطابا مختصرا الى عشيقها تخبره فيه بأنها لن تستطيع موافاته فى الموعد المحدد ، فى الغد .. أو فى الايام التى تليه !.. أن كبرياءها قد تحطم بعد أن علمت أنها ترتمى فى أحضان هذا العشيق ، فى أعقاب تلك المرأة البذيئة الساقطة !

كان ذلك الشاب موسيقيا ذائع الصيت من عازفى « البيانو » .. وكانت «ايرين» قد تعرفت به بعد أن سمعته فى احدى الليالى ، فبهر فنه أوتار قلبها .. ولم يمض وقت وجيز حتى أصبحت خليلته ، دون أن تقصد الوصول معه الى هذه الخاتمة ! .. كيف فعلت ذلك ؟ أنها لم تدرك السبب حتى الآن ، فقد استسلمت له دون أن تشعر بحاجة جسدية الى هذا الاستسلام .. فلم يكن فيه ما يستثير كوامن مشاعرها بالذات ، ولم تكن هى تستشعر من هذه الناحية ظمأ لا تستطيع اطفاءه الا بين ذراعيه .. انما أتت «ايرين» هذا المنكر مدفوعة بارادة متبلدة مترهلة خاملة .. من قبيل حب الاستطلاع ، لا حب الاستمتاع !

وقد كانت «ايرين» تعيش مع زوجها عيشة ناعمة هادئة سعيدة . وكان زوجها رجلا قويا يبزها ذكاء ، ويفوقها فى قوة الشخصية ، فضلا عن أنه كان ثريا .. **ولكن هناك نوع من الرخاء والنعمة اذا أحاطا بالمرأة كانا أشد**

دفعا لها الى الزلل من الاعصار الجامح .. وهناك سعادة « متوسطة » تثير الاعصاب أكثر مما يثيره الشقاء .. وشبع يشد أوتار الجسد أكثر مما يشدها الجوع .. وطمأنينة وارفة الظلال تشحذ فى النفس الرغبة فى استكشاف مجاهل المغامرات !

ولم يكن فى العازف الفنان ما يستهوى الزوجة الشابة ، اللهم الا مسحة من الحزن كانت ترتسم على ملامحه بشكل أوحى الى « ايرين » أن تتخيل فيه طرازا ممتازا من الرجال .. فدفعها الفضول الى أن تدخل الى حياتـه الخاصة ، لتدرس شخصيته وتتعرف على دخيلة نفسه !

أما هو ، فقد لفتت نظره اليها كلمة ثناء انفلتت من بين شفتيها ذات مرة ، فرفع بصره الى قائلتها .. وهنا شعرت ايرين برعشة فى بدنها ، وبشىء من الخوف الذى تبعثه فى النفس النظرة الاولى ! .. وما أن رأت الزوجة الشابة انها بدأت تستحوذ على اهتمام الموسيقى الفنان ، حتى استبدت بها نشوة الزهو والاعتزاز ، لانها أصبحت موضع اهتمام هذا الفنان الممتاز !

وتوالت الحوادث فى هدوء .. ولكن فى اسراع .. واذا بها بعد أسابيع قليلة تجيبه الى رغبته التى طالما أبداها لها : وهى أن يعزف لها مقطوعته الجديدة .. لها وحدها فى منزله !!

وفى منزل العازف الشاب ، وفى أحضان ذلك الجو العاطفى الذى غلفته الموسيقى بغلالاتها الرقيقة ، الدقيقة ، الاخاذة .. استسلمت «ايرين» !

لم يكن استسلامها مبعثه غرام جامح عنيف ، ولكنه شعور بدأ بحب الاستطلاع ، وانتهى الى هذه النهاية ، مدفوعا بارادة آلية ، ونزوة حمقاء !

ورويدا رويدا ، احتل العاشق مكانا فى حياتها ، ولكنه لم يغير ، برغم ذلك ، الخطوط الرئيسية فيها .. فقد ظلت سائرة فى نظامها المعتاد وتقاليدها المألوفة ، وكان بالنسبة لها كسيارة جديدة ، أو كطفل ثالث أضافته الاقدار الى طفليها ، فتعين عليها أن تخصص له جزءا من وقتها ، ومن عطفها ، ومن عنايتها وحبها !

أما اليوم ، وبعد أن اصطدمت بتلك المرأة البشعة ، فقد تغير الموقف تغيرا تاما : فان خطرا داهما بدأ يلوح فى أفق حياتها كالح الوجه ، مسنون الانياب .. ولما كانت قد نشأت فى جو من اليسر والرغد والتدليل ، سواء بين أسرتها قبل الزواج أو فى كنف زوجها ، فقد روعها ان ترى كل هذه المتع تنهار من أجل رجل .. وفى مقابل رغبة لم تكن عنيفة أبدا فى يوم من الايام !

وعليه فقد عقدت العزم على أن تضحى بعشيقها لتحتفظ بحياتها التى ألفتها ، وما فيها من مقومات كالزواج ، والاولاد ، والراحة ، والرخاء ، والمركز الاجتماعى الذى كان له فى نظرها كل اعتبار ! .. وعلى ضوء كل هـذه

الاعتبارات أرسلت ذلك الخطاب الى عشيقها تعتذر له فيه عن عدم موافاته فى الموعد المضروب بينهما فى الغد ، وفى الايام التى تليه ! .. فما أن وصلت الرسالة الى الموسيقى الواله حتى جن جنونه ، ورد عليها برسالة مع رسول خاص ، كلها توسل وضراعة ، وتساؤل عن سبب القطيعة ؟ .. ورجاء ملحف فى أن تمكن له من لقائها ولو مرة واحدة ، ليعرف منها سبب هذه الجفوة المفاجئة التى تكاد تحطمه وتذهب بعقله بددا !

أرضت عبارات الرسالة الملتهبة كبرياءها ، وأشبعت غرورها ـ شأنها فى ذلك شأن كل الغوانى يفرهن الثناء ، ويزيد فى دلالهن التذلل والاستخذاء ! ـ فحددت له موعدا فى مكان عام معروف فى المدينة ، يختلف اليه علية القوم لتناول الشاى .. ولكنها ، وهى تحدد له الموعد ، كانت قد عقدت العزم فى اصرار على أن تقطع كل صلة تربطها به .. مهما كلفها الامر !

- ٢ -

◆ لبست « ايرين » رداءا جميلا وقبعة جديدة ، وهمت بوضع قناع على وجهها ولكنها عدلت عن هذا الرأى ورأت فيه مساسا بكبريائها ... فممن تخاف ؟ ! انها امرأة تحتل فى المجتمع مكانا مرموقا ، فهل تخاف من امرأة ساقطة اعترضت طريقها مرة وهى ملثمة ؟ .. وعليه فقد ذهبت الى الموعد سافرة .. فلما وجدت نفسها فى الشارع شعرت برعدة خفيفة كتلك التى يشعر بها السابح فى الماء عندما تبتل قدماه قبل ان يغوص بدنه كله فيه!.. ولكن هذه الرعشة الخفيفة قد زالت كما تزول رعشة جسد السابح عندما يلقى بجسده كله فى جوف الماء !

أحست « ايرين » بمتعة كبيرة فى السير على قدميها ، وأسفت لان مكان لقائها بالموسيقى الشاب كان قريبا .. فما ان دخلت الى المكان حتى لمحها عشيقها ، فوثب من مكانه يستقبلها .. وأثارت وثبته فى نفسها سرورا ممزوجا فى الوقت نفسه بالالم .. وما كاد يستقر بهما المقام حتى أخذ يمطرها بوابل من الاسئلة وهو واضح الانفعال ، حتى لقد رجته عدة مرات أن يخفض من صوته .. ولم تحاول أن تميط اللثام عن السبب الذى حدا بها الى التصميم على فصم عرى علاقتهما .. ولم تلن قناتها أمام جزعه وتوسلاته ، بل زادت اصرارا على قطع ما بينهما من صلات منذ تلك اللحظة!

وبعد نصف ساعة تركته «ايرين» وهى أشد ما تكون صلابة واصرارا وعنادا .. ومع ذلك فقد أثارت توسلات الشاب فى تضاعيف نفسها نشوة غريبة ، وألهبت شغاف قلبها نارا هادئة لذيذة اللسعات .. تلك النشوة الغامضة ، وتلك النار اللذيذة ، اللتين طالما أحست بحرارتهما تغمر بدنها ، عندما كانت تستلقى على فراشها فى استرخاء ، وهى لم تزل بعد عذراء ! .. وزاد من

سرورها أن رأت الناس يتطلعون اليها معجبين بملاحتها وصباها .. ان الاحاسيس التى تغمرها الان أحاسيس غريبة لم تشعر بها منذ يفاعتها .. انها تريد أن تسير ، بل تريد أن تطير .. وسرعان ما وجدت نفسها أمام باب منزلها ، فتريثت قليلا لتملأ رئتيها بالهواء ، ولتستنشق آخر نسمات مغامرتها الخطرة !

وبينما هى كذلك ، اذا بيد تلمس كتفها ، فاستدارت لترى من عساه يكون ؟ .. ولو أن حية أنفذت فيها أنيابها ، أو مسا من الكهرباء صعق بدنها، أو لفحة من قرارة الجحيم هبت على وجهها .. ما أصابت«ايرين»تلك الرعدة التى أوشك أن ينشق جسدها من هولها نصفين !

ـ ماذا تريدين منى ؟

تمتمت « ايرين » بهذه الكلمات وقد فغرت فاها ، ومادت الارض تحت قدميها .. فقد كانت اليد التى لمست كتفها هى يد تلك المرأة الشريرة ، التى اعترضت طريقها منذ أيام على عتبة باب منزل عشيقها الموسيقى « ادوار » ! وبالرغم من أنها كانت فى الشارع وأمام منزلها ، فلم يكن هناك ما تخشاه منها اذن ، ومع أنها كانت قد عقدت العزم على انكار أية معرفة تربطها بتلك المرأة اذا ما ووجهت بأية اتهامات منها ، الا أنها مع ذلك خارت أمام تلك المنكودة البشعة ، وتلعثمت ، ولم تستطع عمل شىء ، أو النطق بشىء !

وهنا قالت المرأة لايرين : « اننى واقفة فى انتظارك منذ نصف ساعة يا .. «مدام فاجنر !»

انتفضت ايرين انتفاضة الملدوغ عند سماعها اسمها تفوه به شفتا تلك الشيطانة .. اذن فهى تعرف أيضا اسمها ! بل وتعرف عنوانها أيضا ؟ .. لقد ضاع كل شىء ، وليس الى النجاة من قبضة الشيطان من سبيل !

واستطردت المرأة تقول فى لهجة هى مزيج من التقريع والتهديد : « نعم ! اننى انتظرك منذ نصف ساعة يا سيدتى ! »

فأجابت ايرين : « ماذا تريدين ؟ ماذا تريدين أن تصنعى بى ؟ »

ــ أنت تعلمين جيدا ما أريد يا مدام فاجنر ! تعلمين جيد العلم لماذا أنا هنا الآن !

فردت عليها ايرين تقول : «اننى لم أعد الى لقائه مرة أخرى .. دعينى الان! اننى لن أراه ثانية على الاطلاق .. لن أراه ! لن أراه !! »

فأجابتها المرأة فى غلظة وقحة : « لا تكذبى ! لقد تبعتك الى مكان بائع الحلوى .. اننى بلا عمل الان .. فلقد طردت من عملى بسبب الازمة المالية .. وعليه فأنا أقضى وقتى فى التسكع فى الشوارع ، تماما كما تفعل غيرى من سيدات الطبقة الراقية ، الشريفات ! »

كانت المرأة المجهولة تتلفظ بهذه الكلمات فى شراسة ووقاحة تنمان عن الشر والضغينة الكامنين فى قلبها . وخشيت ايرين أن يسمع حوارهما أحد، أو أن تقود المصادفات التعسة زوجها الى المنزل فى تلك اللحظة ، فيتحطم كل أمل ، وتحل الكارثة ! فماذا تصنع المسكينة ؟ دست يدها فى حقيبتها فأخرجت منها كيس النقود ودفعت بما فيه الى المرأة ، التى لم تظهر على وجهها حركة واحدة تدل على الرفض أو الحياء ، بل على النقيض ، مدت يدها وأطبقت أصابعها على النقود . وزادت على ذلك بأن قالت لايرين:

ـ أعطنى كيس النقود أيضا ، لاضع النقود فيه حتى لا يفقد منها شىء !

لم يكن فى مقدور «ايرين» أن تطيل النظر الى وجه تلك المرأة ، فقد كانت أقرب الى زبانية الجحيم منها الى الآدميين .. وكانت كل آمالها فى تلك اللحظة تنحصر فى شىء واحد : هو ان تهرب من أمام هذا الوجه الكالح المقوت ، وان لا تراه أبدا فى المستقبل !! .. فأعطتها كيس النقود ، وأسرعت الخطى الى منزلها .. وهناك صعدت السلم مترنحة من الفزع ، متهدمة الاعصاب من الخوف ، كأنها أصيبت بضربة ساحقة فى صميم المقتل !

ولما كان زوجها لم يعد الى المنزل بعد ، فقد انتهزت الفرصة وألقت بنفسها على فراشها ، وظلت ممددة كأنها جثة ليس فيها أثر للحياة !.. حتى سمعت صوت زوجها يدخل ، فاستجمعت ما بقى لها من قوة لتنهض وتذهب للقائه فى الحجرة الاخرى ، وهى تجر قدميها جرا .. شاردة الذهن ، مضعضعة القوى ، محطمة الاعصاب !

- ٣ -

◆ **اتخذ** « الخوف » من نفس ايرين مكانه المختار .. وسيطر الذعر على كل جارحة فيها بعد لقائها الاخير بتلك المرأة .. وأخذت خطورة الموقف تتبلور وتبين على حقيقتها أمام ناظريها : فقد تمكنت تلك المرأة من معرفة اسمها ، وعنوان بيتها ، فلاشك فى انها ستستغل الموقف أسوأ استغلال ، وستتخذ منها بقرة حلوبا تستنزفها قطرة قطرة ، ويوما بعد يوم .. فكيف السبيل الى النجاة ؟ انها زوجة رجل غنى وفى امكانها أن تتصرف بحرية فى مبالغ قليلة من المال بين حين وآخر .. ولكن اذا دأبت تلك المنكودة على طلب المال ، فسيأتى يوم تعجز فيه مواردها ، وامكانياتها ، عن اعطائها ماتريد .. وحينئذ ينكشف المستور ، وتكون القارعة !! وهى لا تملك مبلغا كبيرا متجمدا ، قد تقبله المرأة دفعة واحدة لتبتعد عنها الى الابد !! يضاف الى ذلك ما كانت قد عرفته من زوجها مصادفة ، من أن أى اتفاق يعقد مع هذا الصنف من الافاقين لا قيمة له ،وان أى اتفاق لا يكون جديرا بالاحترام

الا اذا كان معقودا بين طرفين شريفين ..

ان شبح الكارثة يقترب منها شيئا فشيئا بوجهه الكالح الرهيب ..وكلما دنا منها ، بانت بشاعته ، ووضحت فظاعته !.. فلئن انكشف الغطاء وبان المستور ، وعرف زوجها بالحقيقة ، فماذا عساه صانعا معها وبها ؟! وأى قرار سيتخذه بشأنها ؟ انها تتخبط فى دياجير الفروض الحالكة ، وتتقاذفها الافكار المرعبة ، ويحيط بها الذعر من كل جانب .. أليس من العجيب أن تكتشف ايرين فى تلك الساعات المروعة ، حقيقة لم تكن تعرفها من قبـل : الا وهى انها ، الى تلك اللحظة ، لم تتمكن من أن تعرف زوجها على حقيقته ؟

لقد تزوجت منه منذ ثمانى سنوات نزولا على رغبة والديها وبغير معارضة من جانبها ــ وظلت تنعم بقربه بحياة منتظمة ، وادعة ، كلها طراوة ورخاء. ورزقت منه طفلين . وهى تحيا معه فى بيت جميل .. ولكنها فى هذا الموقف الحرج تكتشف ، لفرط دهشتها ، انها لا تعرف زوجها المعرفة التى تمكنها من أن تتبين موقفه ازاءها اذا ما عرف الحقيقة الفظيعة ! .. انها لم تستطع أن تتغلغل فى ثنايا نفسه ، وتضاعيف قلبه . فها هى الان تستعيد حياتها الماضية معه برمتها ، عساها تهتدى الى خيط من النور يقودها الى حقيقـة زوجها .. ولكنها ما تكاد تخطو ، حتى تكبو ، وما تكاد تهم بالمسير حتى تحس «بالخوف» يدفعها من الخلف ، فتكب على وجهها وقد نزف منها الدم !

*

◆ **قبعت** «ايرين» فى عقر دارها لا تبرحه ثلاثة أيام .. وقد لفت هذا أنظار من فى المنزل جميعا لانه شىء لم يتعودوه منها .. فقد كان يندر ان ينقضى يوم ، بل أن تمر ساعات ، دون أن تخرج من المنزل .. فما الذى طرأ عليها حتى جعلها تلازم بيتها هذه الايام الثلاثة ؟! ان نظرات الفضـول المنبعثة من خدم المنزل كانت تضايقها للغاية ، وكان أول من لاحظ هذا التغير هما طفلاها ، وعلى الاخص أكبرهما .. الذى لم يتردد فى أن يبدى لها دهشته من رؤيتها فى البيت أياما كاملة متتابعة !

وعبثا تذرعت « ايرين » بمختلف الذرائع لتبرر وجودها فى المنزل ، وعدم مبارحتها اياه ، بل ان كل تلك الاعذار لم تكن ،فى نظر الخدم ، من الوجاهة بحيث تبرر بقاءها فى المنزل ثلاثة أيام كاملة !

ولو كانت « ايرين » فى حال طبيعية ، لجاز الامر على هؤلاء المتطفلين الفضوليين ، ولكنها كانت بادية الارتباك والقلق ، وقد ارتسمت على وجهها أمارات الذعر ، ولم تنقطع عن أن تذرع حجرات المنزل ذهابا وجيئة .. فاذا دق جرس التليفون وثبت من « الخوف » بالرغم منها !.. واذا سمعت صوت أحد طفليها ، انتفضت انتفاضة لا ارادية .. فكيف لا تتجه اليها الانظار ، وتحوم حولها الشكوك !

وانقضت الايام الثلاثة وهى فى سجنها الاختيارى .. انقضت ثقيلة ، متثاقلة ، أبطأ من أعوام الزواج الثمانية !.. وكان عليها أن تخرج فى اليوم الثالث لتلبى دعوة كانت قد قبلتها منذ أسابيع مضت ، ولم يكن من الميسور لها أن تتخلف عنها الآن لعدم وجود سبب تستطيع أن تتذرع به ! .. هذا فضلا عن انها كانت فى مسيس الحاجة الى أن ترى الناس ، وان تفك هذه الاغلال الثقيلة المطبقة على أنفاسها ، حتى لتكاد تزهقها ! انها تريد الهرب من تلك الوحدة القاتلة وذلك « الخوف » المميت .. وتريد أن تتنفس .. وان تتحدث الى الناس .. وان تسمع أصواتهم .. فانها بين الناس ستكون فى حماية مؤقتة على الاقل .. ولن تستطيع المرأة المشئومة أن تلاحقها اذا هى لبت تلك الدعوة !

وخرجت من المنزل برفقة زوجها .. وشعرت بادىء الامر بشىء من الخوف، الخوف من أن تكون المرأة قريبة من المنزل فى تلك اللحظة ، فقبضت على ذراع زوجها بشدة ، واتكأت عليه .. فلما استقر بهما المكان فى السيارة تنفست الصعداء ، وشعرت بأن حجر الرحى الجاثم على صدرها قد انزاح ، وانها الآن بجوار زوجها فى أمان !

ولما وصلا الى منزل الداعى واحتواهما المجلس ، **شعرت « ايرين » بمزيد من الطمأنينة .. فانها تستطيع أن تحيا لبضع ساعات حياتها المعتادة دون « خوف » ، وفى امكانها أن تمرح وترقص .. بل لعل سرورها سيكون الآن مضاعفا ، مثلها فى ذلك مثل السجين الذى يرى نور الحرية ويستنشق هواءها لاول مرة بعد اطلاق سراحه ، وفك أسره .. انها الآن فى مكان لا تتمكن يد التهديد والشر أن تمتد اليها فيه بأذى !**

وما كادت «ايرين» تدخل المنزل مع زوجها ، حتى صوبت اليها أنظار جميع الحاضرين ، تشعرها بأنها امرأة جميلة ـ وكانت هى أول من يعرف هذه الحقيقة ! ـ وبدأت الموسيقى فى العزف ، فأثملتها أنغامها .. ولكنها كانت اذا كفت الموسيقى عن العزف ، عاودها الانقباض من جديد ! .. حتى اذا ما عادت الى العزف اندفعت الى حلبة الرقص اندفاع الظامىء الى جدول المياه ! .. ولم تكن « ايرين » راقصة من طراز ممتاز ، ولكنها فى تلك الليلة تخطت السدود ، وحطمت القيود ، وبدأت تتماوج فى رقصاتها ، وتتمايل أعطافها بغير صمام أو لجام .. وفجأة سمعت صوتا يوجه اليها هذه الكلمات :

ـ ماذا بك يا «ايرين» ؟

فالتفتت وهى مندفعة فى الرقص كالمجنونة ، لترى زوجها وقد بدت عليه أمارات الغضب مما رآه من مغالاتها فى التماوج والتثنى ذات اليمين وذات اليسار مع نغمات الموسيقى .. فخشيت ايرين أن تكون قد أغضبته وردت

عليه تقول :

ـ **ماذا جرى ؟ وماذا تريد أن تقول !!**

أما هو فحدجها بنظرات نافذة وكأنه ينبش قلبها بعينيه ، وتمتم يقول :

ـ انه لامر عجيب !

لم تجرؤ ايرين على أن تستوضحه مايريد .. وفى تلك اللحظة عادت الموسيقى الى العزف ، ودعاها أحد الحاضرين للرقص ، فلبت دعوته ولكن لترقص فى هذه المرة متثاقلة بطيئة .. وما هى الا برهة قصيرة حتى اعتذرت له فى عدم استطاعتها الاستمرار لشعورها بالتعب . وما كادت تعود الى مكانها حتى وجدت زوجها وقد وقف وراءها كما لو كان فى انتظارها ، وراح يصوب لها نظرات لم تدرك كنهها .. **فعاودها « الخوف » وراحت تسائل نفسها : « لماذا هو صارم وصامت هكذا ؟ » .. ثم جرؤت فقالت له : «هل نذهب ؟» فأجابها فى شىء من الخشونة : «نعم» !**

وخيل اليها فى تلك اوللحظة انها ترى كتفى زوجها وقد ازداد عرضا وقوة، فهمست فى نفسها تقول : « كتفا قاتل !! »

وعادا الى المنزل معا ، وكانا صامتين صمتا مطبقا .. وشعرت ايرين بعد تلك السهرة بأن خطرا جديدا يتهددها .. وانها محاصرة بالاعداء من كل جانب !

- ٤ -

◆ **فى تلك الليلة رأت «ايرين» حلما مزعجا .. ومن هول ما أصبحت** المسكينة فيه من ذعر دائم بسبب تلك المرأة التى تلاحقها وتهددها ، فقد رأت نفسها تعدو طالبة النجاة من امرأة تريد الفتك بها والمرأة تعدو وراءها فى الشوارع .. وقد خيم الظلام على كل مكان تسعى اليه .. حتى خارت قواها فاذا بها تصيح بأعلى صوت وهى مستغرقة فى النوم : « النجدة ! النجدة ! »

.. واستيقظت من كابوسها الثقيل لترى زوجها واقفا بجوار فراشها .. فقد سمع صيحة استغاثتها فخف الى حجرتها مسرعا ، وما ان فتحت عينيها وأفاقت قليلا حتى سألها زوجها فى قلق واضح :

« ماذا جرى ؟ وماذا ألم بك ؟ »

أخذت « ايرين» تجيل النظر فيما حولها ، فوجدت نفسها فى حجرتها ، وفى فراشها ، وبجانبها زوجها !.. انه اذن حلم مزعج وكابوس ثقيل ! أما زوجها فقد ظل واقفا الى جوار سريرها وهو يرمقها بنظرات ثاقبة كلها استفهام .. **فأجابته ايرين : « ماذا ؟ لم يحدث شىء ! لماذا تنظر الي هكذا ؟** كل ما فى الامر اننى رأيت كابوسا مزعجا .. »

ـ نعم ! فقد سمعت صياحك من حجرتى ، فماذا بك يا ايرين ؟ لابد أن شيئا حدث لك ، وهو يختلج بين أضلاعك ! انك تغيرت تغيرا كليا فى هذه الايام ، فأنت شاردة الذهن ، عصبية المزاج •• وها أنت تصيحين فى نومك صارخة « النجدة ! النجدة ! » •• فبالله عليك لا تخفى عنى شيئا •• أهناك أمر يقلقك ؟ ان ثمة أمرا حـدث يسبب لك انزعاجا كبيرا •• وكل من فى المنزل يلاحظ عليك ذلك فى هذه الايام ، ويدرك التغير الكبير الذى طرأ عليك أخيرا •• فحدثينى يا ايرين ، ولتضعى ثقتك فى !

قال الزوج ذلك ودنا منها برفق فأخذ يمسح بأنامله على ذراعها الاملس العارى الجميل •• وكان يشع من عينيه بريق عجيب ، فأحست ايرين فى تلك اللحظة برغبة عنيفة فى أن تلتصق به بقوة وتتعلق بعنقه ، وتبوح له بالسر الرهيب ، ثم لا تدعه يتركهـا الا بعد أن تستوثق من أنه صفح عنهـا وغفر لها !

ولكنها أحست بالخجل ، وعاودها الخوف •• فنكصت على عقبيها وقالت له وهى تحاول الابتسام : « لا تنزعج يا فريتز ! ان أعصابى متعبة قليـلا وأرجو أن يزول عنى هذا التعب بعد قليل •• فاطمأن» !

عندئذ ترك زوجها ذراعها ، وقد بدا لها شاحب الوجه ، وقال لها : «يخيل الى فى الايام الاخيرة ان لديك ماتريدين قوله لى •• وان هذا الذى تريدين قوله يعنينى ويعنيك وحدنا دون سوانا •• فتكلمى يا ايرين وقولى ما تشائين •• نحن بمفردنا الان ! »

يالهذا الضوء ! هذا الضوء الذى يريها أسارير وجهه وقـد اكتست بالصرامة والشحوب معا . هذا الضوء ، ليته ينطفىء ! فربما استطاعت فى الظلام ، وهى لا ترى قسمات وجهه ، أن تبوح له بكل شىء ! أما فى النور، فان ارادتها تخونها •• لانها كلما تطلعت الى وجهه استولى عليها «الخوف» !؟

واستطرد الزوج يقول : « والآن ياعزيزتى : هل حقيقة ليس لديك ما تفضين به الى ؟! » ـ وكان صـوته عذبا حنونا وهو يفوه بهذه العبارة ، عذوبة وحنانا لم تتعودهما منه من قبل ! آه من هذا الضوء ! هذا الضوء اللعين ! ـ **وأجابته : « ماذا يدور فى مخيلتك يا فرتز ؟ ان كل ما بى ناجـم عن اننى لا أنام جيدا فى هذه الايام •• انك تتخيل ان عندى أسرارا ! من يدرى ؟ لعلها مغامرات غرامية ؟ »**

وكان احساسها بما فى كلامها من مراوغة ، يشيع الرعدة فى جسدها •• انها لتقشعر من نفسها فى تلك المحنة •• أما هو فلم يأبه كثيرا بما قالت، وانما راح يتفرس فى وجهها بامعان ثم قال لها : « اذن ، فلتنامى جيدا ! »

واطفأ النور ثم غادر الغرفة •• فما كادت تسمع بابها يغلق وراءه حتى خيل اليها أن كل ما يحيط بها لاأثر فيه لحياة ، وأن الموت يبسط جناحيه على



كل شىء .. ما عدا شيئا واحدا: هو قلبها الذى يدق هلعا ، حتى ليكاد يقتلع من مكانه ! لقد تصورت وهى تسمع باب الغرفة يغلق عليها ، ان هذا الذى يغلق ليس بابا وانما هو غطاء النعش الذى تمددت فيه جثة هامدة .. لتشييع الى مرقدها الاخير !

*

◆ **فيما** كانت الاسرة مجتمعة فى مساء اليوم التالى حول مائدة العشاء، دخلت الخادمة غرفة الطعام واتجهت الى ايرين فسلمتها مظروفا صغيرا وقالت لها : « هــذا الخطاب لك ياسيدتى..والرسول ينتظر الجواب!»

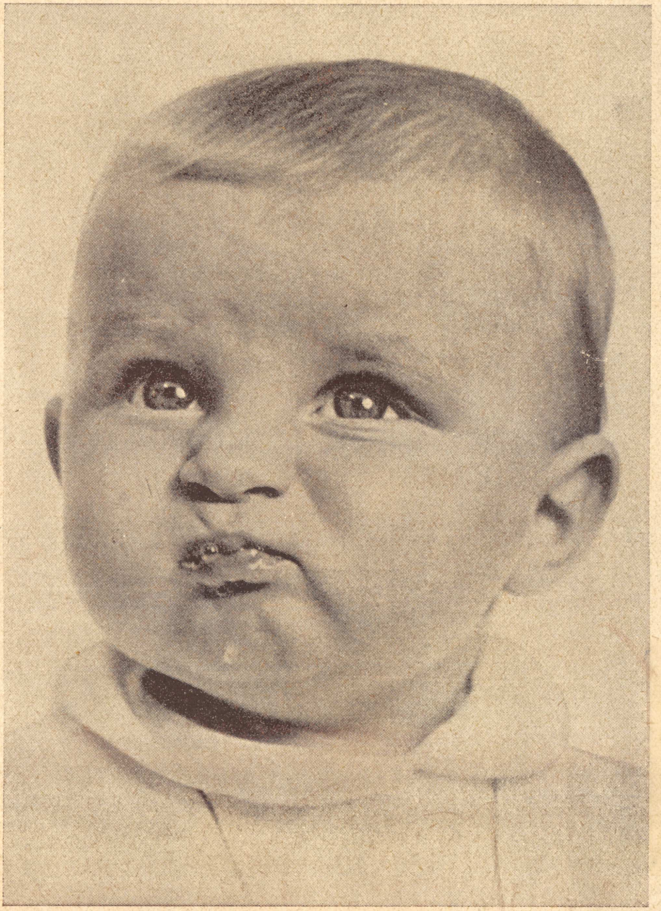
ألقت ايرين نظرة على الخط الغريب الذى على المظروف ، وفضته . ومـا كادت تقرأ أسطره حتى علت وجههـا صفرة الموت ، وانتفضت واقفة وقد جمدت كتمثال من الرخام..كل هذا والحاضرون يتطلعون اليها فى دهشة !

كتمثال من الرخام .. كل هذا والحاضرون يتطلعون اليها فى دهشة !

وكان الخطاب غاية فى الاختصار ، اذ لم يحتو الا على هذين السطرين : « الرجا تسليم حامل هذا الخطاب مبلغ مائة فرنك ! » .. وفيما عدا هذا «الامر» ، لم يحمل الخطاب توقيعا ، ولا تاريخا !

سارعت ايرين الى حجرتها للبحث عن المبلغ ، ولكنها فى ارتباكها وذعرها نسيت أين وضعت مفتاح خزانتها الخاصة .. فراحت تفتح جميع الادراج واجفة راجفة ، وتلقى بجميع محتوياتها يمينا ويسارا ، باحثة عن المفتاح .. حتى عثرت عليه ، فأخذت المبلغ المطلوب ووضعته بنفسها فى مظروف واتجهت الى الباب حيث كان الرسول واقفا ينتظر ، وسلمته اياه .. كل هـذا فى حركة آلية سريعة لا أثر فيها للتفكير أو التدبير ، وفى سرعة فائقة .. فى **دقيقتين اثنتين فقط .. ثم قفلت راجعة الى غرفة الطعام !!**

وما كادت تستقر على مقعدها حتى اكتشفت أمرا خطيرا : فانها فى ارتباكها وذعرها تركت أيضا الخطاب على المائدة مبسوطا .. فاختطفته الآن بيد راعشة وأخذت تضغط عليه وتعاود الضغط حتى استحال الى كرة صغيرة من الورق ! وبينما هى تحاول اخفاءه التقت عيناها بعينى زوجها الفاحصتين النافذتين ، فعقد الخوف لسانها ، ولم تنطق .. وكان العشاء من حسن الحظ قد أوشك



ماذا يشـــم ؟ للفنانة السويدية « آن مارى جريبمان »



ملاك الرحمة

لوحـة بمتحف اللوفر للرسام الفرنسى
سـيمون فوييه (١٥٩٠ - ١٦٤٩)

على الانتهاء ، ففادر الطفلان المائدة وهما يتصايحان ، أما زوجها فقد توجه الى الحجرة المجاورة دون أن ينبس ببنت شفة !

فلما ألفت نفسها بمفردها فى الحجرة ، أخرجت الخطاب من مخبئه وأعادت تلاوته .. وهمت بتمزيقه والقائه فى سلة المهملات ، ولكنها عدلت عن تمزيقه واتجهت الى الموقد وألقت به فى النار ، فلما أتت النار عليه ، شعرت بشىء من الاطمئنان !!

فى تلك اللحظة سمع وقع أقدام زوجها قادما اليها ، فارتعدت أوصالها ..وكان وجهها متوهجا من حرارة النار، وحرارة الانفعال معا. فلما رأته يدخل الغرفة نهضت من مقعدها . أما هو فاتجه الى المائدة التى فى وسط الغرفة وأشعل عودا من الثقاب ، وقد ارتسمت امارات الغضب على وجهه ، وقال لها : « تعلمين انك لست مضطرة لاطلاعى على خطاباتك .. فان لك مطلق الحرية فى الاحتفاظ بأسرارك لنفسك ! »

جمدت ايرين فى مكانها ولم تحر جوابا .. أما هو فقد ظل برهة قصيرة واقفا فى مكانه ، ثم نفخ من فمه سحابة من الدخان .. وترك الغرفة وانصرف !

❖

◆ **وتطور** الموقف .. فقد رأت ايرين أنه أصبح من المحتم عليها أن تعمل عملا ايجابيا . ان تتحرك لتشعر على الاقل بأنها لم تزل على قيد الحياة ! ان بقاءها فى المنزل يخيفها ، ويكاد يطبق على أنفاسها ويخنقها خنقا .. فلا أقل من أن تبارح المنزل ردحا من الزمن ، وتسير فى الشارع ، فما أشد حاجتها الى رؤية الناس والى السير وسط الزحام .. لقد اشترت بهذه المائة فرنك حريتها لبضعة أيام .. فلتخرج اذن ..

وهكذا سارت فى الطريق على غير هدى ، فأحست بشىء من الهدوء فى أعصابها .. وان لم يزايلها مع ذلك « الخوف » من أن تكون تلك المرأة فى أثرها !.. وفيما هى سائرة ، مشلولة الفكر ، مسلوبة الارادة ، خيل اليها كما لو كان انسان يتعقبها .. فأسرعت فى المسير .. فاذا بالشخص الذى يتعقبها يسرع الخطى وراءها ، حتى أصبح على مقربة منها .. لعله هو الآخر سيضع يده على كتفها ؟ !

خارت قدماها ، ولهثت أنفاسها .. واذا بالذى يقتفى أثرها شخص حقيقى لا وهم من الاوهام .. واذا به يصيح بها ، ولكن فى هدوء ، قائلا : «ايرين!»

لم تعرف صاحب الصوت ، ولكن الصوت لم يكن صوت تلك المرأة على كل حال .. فاستدارت لترى من عساه يكون..واذا بها وجها لوجه أمام عشيقها: الموسيقى الشاب !

وقفا وجها لوجه ، وقد شحب وجهه وبانت عليـه عـلامات الاضطراب والانفعال والحرج .. أما هى فقد تفرست فى وجهه بنظرات زائغة فزعة ! .. ومد الشاب يده لتحيتها ، ولكنه اضطر الى سحبها ، لان ايرين فى ذهولها لم تمد يدها اليه .. بل صوبت اليه نظرات فاحصة وشفتاها الراعشتان تفصحان عما يختلج بين أضلاعها من فزع وألم مبرحين .. وهنـا تمتم الشاب يقول لها :

ـ ايرين ؟ ماذا بك ؟ وما الذى اقترفته ضدك من ذنب ؟

فردت عليه فى سخرية ممزوجة بالغضب : « ماذا اقترفته ضدى من ذنب؟ لا شيء ! لا شيء على الاطلاق !! انك لم تصنع بى الا كل خير ، ولم تأت معى الا كل عمل طيب ! »

ففغر الشاب فمه ، ثم أجاب ذاهلا : « ولكن .. ايرين ! .. ايرين ! » .. فردت بلهجة آمرة : « لا أريد فضيحة وسط الشارع .. فلتكف عن هـذه المهزلة .. لاشك « أنها » على مقربة منى الان تتلصص على .. صـديقتك الجميلة هذه .. لتهددنى مرة أخرى !! »

ـ من تقصدين ! من ؟!

لكم ودت لو أمكنها أن تهوى بقبضة يدها على وجهه القبيح .. فانها لم تشعر بكراهية واحتقار نحو مخلوق كشعورها الآن بالبغض والاحتقار نحو هذا الرجل ! أما هو فاسترسل يقول : « ولكن ، ايرين !.. ماذا صـنعت لك ؟ لقد انقطعت فجأة عن التردد على .. ولكم انتظرتك ، ليلا ونهارا .. بل لقد قضيت اليوم بأكمله أمام منزلك ، لعلى أتمكن من التحدث اليك ولو دقيقة واحدة ! »

ـ أنت الآخر .. ؟ كنت فى انتظارى ؟

ان الغضب يكاد يذهب بعقلها .. ولو امكنها ان تصفعه لشعرت فى ذلك بسرور بالغ ، ولكنها تمالكت اعصابها ونظرت اليه مرة أخرى نظرة اشمئزاز .. ثم أدارت له ظهرها واستأنفت المسير وسط زحام المارة . أما هو فظل واقفـا برهة وقد جمد فى مكانه من فرط الدهشة والاضطراب .. حتى اضطره سيل المارة الى أن يحرك قدميه ويخطو بضع خطوات .. فكان كورقة من أوراق الشجر الذابلة المتساقطة تذروها فى الفضاء عاصفة عاتية ثم تقذف بهـا فى جوف اليم !

ـ ٥ ـ

◆ **لم** يرد القدر القاسى لايرين أن تخلد الى الراحة طويلا ، ففى صبيحة اليوم التالى فوجئت بورقة جديدة تصل الى دارها تطلب فيها « مائتى » فرنك فى هذه المرة ! فسلمت المبلغ للرسول دون ابطاء ، وأخذ خوفها يتزايد من

تضاعف المبلغ المطلوب .. فلئن استمرت الحال على هذا المنوال فان مواردها ستنضب وستعجز عن اجابة هذه الطلبات فى وقت قريب .. فقد تطلب منها غريمتها فى الغد اربعمائة فرنك ! وهكذا كلما أعطت كان عليها أن تضاعف قيمة العطاء ، فاذا ما وصلت الى العجز المالى الكامل ، حلت الكارثة ... **انها تشترى راحتها لبضعة ايام بهذه المبالغ ، ثم يتجدد الخوف ، فكيف السبيل الى النجاة !! ولعل أشق مراحل هذه المعركة هو اضطرارها الى اخفاء ما تضطرم به مشاعرها عمن حولها ، ومحاولتها الابتسام والظهور بمظهر طبيعى لا اثر فيه لكل هذه التيارات الجارفة والانفعالات المتضاربة !.. فما أهول الموقف وما أرهبه !.. ان شخصا واحدا فقط من المحيطين بها ، كان يدرك ما تعانيه من آلام ، ويراقبها بعناية عن كثب ، كما كانت هى أيضا تراقبه بنفس العناية ، وكل منهما يحاول أن يكتشف سر الآخر ..**

وهذا الشخص : هو زوجها !!

ولم يكن من العسير على ايرين أن تتبين هذه الحقيقة ، فقد لاحظت ان زوجها يعاملها كما لو كانت مريضة، ويتلطف معها كما كان يفعل أيام خطبتهما. وكلما ازداد حبا لها وحدبا عليها ، ازداد شعورها بالخزى والخجل .. لكم كانت تود لو اعترفت له بالحقيقة وأزاحت عن صدرها هذا الحمل الثقيل !؟ ولكن خجلها كان أشد من خوفها من الاعتراف !

ولكن ذات يوم ، حدث ما جعله يوجه اليها الكلام فى وضوح لا التباس فيه : فقد كانت قادمة من الخارج ، وما كادت تخطو الى بهو المنزل بضع خطوات حتى سمعت جلبة وضوضاء ... منبعثتين من صوت زوجها الذى كان شديد النبرات ، وصوت المربية المشوب بالاحتجاج وعدم الرضا .. وقد امتزج الصوتان بصوت بكاء شديد !

شلت قدماها وسمرتا من الخوف !! ترى هل وقع أحد تلك الخطابات فى يد زوجها وافتضح السر يا ترى ؟!

وبعد قليل زال هلعها ، اذ لم يكن الامر أكثر من شجار وقع بين ولدها وابنتها ، أصدر الوالد حكمه فيه فى الحال . وكان الشجار بينهما حول احدى اللعب التى يريدها كل منهما لنفسه ، وهى حصان خشبى كان ملكا للولد ، فلما يئست أخته من الحصول عليه ألقت به فى النار سرا.. وأخذ أبوها يستدرجها للاعتراف ، حتى اعترفت بعد جهد كبير ، فقرر أبوها أن يعاقبها على فعلتها بحرمانها من الذهاب الى ملعب كان مقررا ذهابها اليه فى اليوم التالى . اما الولد فقد ابتهج بتوقيع هذه العقوبة على اخته التى اتلفت حصانه واحرقته . فما كان من ابيه الا ان عاقبه على شماتته بها بحرمانه هو ايضا من الذهاب الى ذلك الملعب !.. فانسحب الطفلان الي غرفتهما وليس لهما من عزاء الا مساواتهما فى العقوبة

التى حلت بهما معا !!

وبقيت ايرين بمفردها مع زوجها ، ورأت ان هذه قد تكون احسن فرصة سنحت كى تتحدث فيها اليه عن ذنبها الذى اقترفته ، فبادرته بقولها :

— قل لى يا فرتز : أمصمم انت على منع الولدين من الذهاب الى الملعب غدا ؟ ان اصرارك هذا سيجعلهما فى غاية التعاسة ، ولاسيما البنت ٠٠ والواقع ان الذنب الذى اقترفته هذه الطفلة ليس من الفظاعة الى هذا الحد ، فلماذا تعاقبها بمثل هذه القسوة ؟ الا تستدر هذه الطفلة البريئة شفقتك ؟!

فحدق فيها ببصره واجاب : **«انك تسألينني عما اذا كانت الطفلة تستدر شفقتى ؟؟ كلا ، انها لم تعد تستدر هذه الشفقة الان ٠٠ لانها منذ عاقبتها هدأت ثائرتها ، حتى وان بدت لها العقوبة قاسية .. لقد كانت تستحق الرثاء امس عندما القت بلعبة أخيها فى الموقد وظل أهل المنزل جميعا غافلين عنها ، وهى فى كل لحظة تتوقع اكتشاف فعلتها فيستحوذ عليها الخوف ٠٠ ان الخوف أقسى من العقاب وافظع» ! لان العقاب شىء محدود معلوم ، وهين فى حد ذاته ، بل انه اهون من الخوف الذى يثير تفززا مستمرا فى الاعصاب ٠٠ ان هذه الطفلة قد هدأت عندما عرفت مصيرها ، فلا تخدعنك هذه الدموع التى تذرفها ٠٠ فلخيرلها ان تذرفها ، من أن تحبسها فى مآقيها ! »**

رفعت ايرين بصرها الى زوجها وقد خيل اليها انها المعنية بكل كلمة قالها ٠٠ أما هو فظهر كمن لا يلقى اليها بالا على الاطلاق ٠٠ واستطرد يقول :

— صدقينى ان ما اقوله هو الحق ، وقد اكدته لى التجارب العديدة ٠٠ ان المتهمين يتعذبون عذابا اليما من محاولتهم اخفاء جرائمهم ، ومن سيف التهديد المصلت فوق رءووسهم والذى يهددهم انهم لا يستطيعون الاستمرار فى اخفاء هذه الجرائم طويلا ٠٠ وهم يعذبون من ذلك الكفاح الذى يكافحونه للدفاع عن كذبهم امام الهجمات الكثيرة القوية التى تصوب اليهم ليعترفوا ٠٠ فيراهم المحقق وقد تلووا من الالم عندما يحاول انتزاع الاعتراف منهم ٠٠ **وقد يصل الاعتراف الى « حلق » المذنب منهم حتى ليكاد ينفلت خارجا من فمه ، ويشعر المحقق بان قوة لا تقاوم تريد ان تقذف بذلك الاعتراف الى الخارج ٠٠ وفجأة تظهر قوة اخرى تطغى على القوة الاولى ، وهذه القوة هى مزيج من الخوف والعناد ٠٠ فيموت الاعتراف على عتبة الشفاه لتبدأ المعركة من جديد !!** ٠٠ وان القاضى ليتعذب فى هذه المعركة كما يتعذب المتهمون ٠٠ ورغم ذلك فان هؤلاء المتهمين يعتبرونه خصمهم دائما ، مع انه فى الواقع اكبر عون لهم ٠٠ اما فيما يختص بى ، فبصفتى محاميا يتحتم على ان انصح عملائى بان لا يقولوا الحق ، كما يتعين على أن أسندهم فى أكاذيبهم ، وبالرغم من ذلك فاننى لا أجرؤ على التقدم للمتهمين بهذه النصيحة فى غالب الاحايين ، لاننى أعلم أنهم يتعذبون من

انكارهم أكثر مما يتعذبون من اعترافهم .. وأنه ليدهشنى فى الواقع هذا التناقض العجيب فى شخصية المتهم : اذ كيف يمكنه أن يرتكب عامدا عملا اجراميا خطيرا : ولا تكون عنده الشجاعة بعد ذلك لان يعترف بالعمل الاجرامى الخطير الذى ارتكبه !.. انه الخوف ولا شك ، وهو فى تقديرى أبعث على الرثاء لحال المتهم من أية جريمة يرتكبها ! .

فقالت ايرين :

ـ « أتعتقد يا فرتز أن الخوف هو الذى يمنع المتهم من الاعتراف دائما؟ ولم لا يكون المانع هو الخجل فى بعض الاحيان ؟ . الخجل من أن يفتح الانسان خوان صدره فيظهر للاعين ما يحتويه من وضر ، والخجل من ان يعرض قلبه عاريا امام الناس ؟

دهش الزوج من رد ايرين اذ لم يتعود منها المحاجة فى المناقشة ، غير أن ملاحظتها أثارت اهتمامه فأجابها بقوله : « الخجل؟ أتقولين الخجل؟ ولكن الخجل نوع من الخوف .. وصاحبه أحق بالتأنيب اذا كان الباعث عليه ، والدافع اليه ليس هو الخوف من العقاب ! »

وهنا نهض فرتز ، وأخذ يذرع الغرفة ذهابا وجيئة وقد استولت عليه رعدة عنيفة .. ثم وقف فجأة وقال : « اننى أفهم أن يخجل الانسان من البوح بخطيئته أمام الغرباء ، أمام الجماهير التى يلذ لها أن تضع أنوفها فى شؤون الناس ، وتتطفل على خفايا حياة الاخرين .. ولكننى لا افهم كيف يخجل الانسان من الاقرباء ! ؟ »

فحولت ايرين بصرها عنه من فرط ما اعتراها من اضطراب وقالت : « قد يكون الخجل من الاقرباء ، بل من المقربين جدا ، أعنف من الخجل من الغرباء ! »

فأجابها وقد تغيرت نبرات صوته فصارت رقيقة هادئة : « اذن فأنت تعتقدين بأنه كان أيسر على طفلتنا أن تعترف بخطئها لشخص آخر غيرنا .. للمربية مثلا ؟ »

ـ « اننى مقتنعة بذلك كل الاقتناع .. فانها اذا كانت قد قاومتك كل هذه المقاومة فما ذلك الا لان حكمك عليها يهمها أكثر من حكم أى انسان آخر .. ولانها تحبك أكثر مما تحب أى انسان آخر ! ! »

ـ قد تكونين على حق .. ولكن هذا غريب ! كيف لم أفكر فى هذه الناحية قط ؟ من المؤكد أنك على حق .. وأنا لا أريد أن تعتبرينى عاجزا عن الصفح .. لا أحب ذلك منك أنت على الخصوص يا ايرين ! !

ما هذا الذى يقوله فرتز ؟ ! أتراه يفوه بهذه العبارات متعمدا ، أم أنه توارد خواطر عجيب ، وصدفة مرعبة خطيرة ؟ .. وعاد الشك يقبض على عنقها بيد من حديد عندما استطرد زوجها يقول : « لقد ألغيت

الحكم ! ان العقوبة التى وقعتها على (هيــلين) قد رفعت ، وسأذهب بنفسى لاخبرها بذلك فهل انت مسرورة منى ؟ وهل لك رغبة اخرى تريدين الافضاء بها الى ؟ انك ترين اننى اليوم فى حالة معنوية طيبة، ولعل مصدر ذلك معرفتى فى الوقت المناسب بأننى ارتكبت عملا ظالما .. ان رفع الظلم يريحنا يا ايرين لان فيه دائما متنفسا للاثقال التى تنوء بها صدورنا .. »

وما كاد ينتهى من الكلام حتى دنت منــه ايرين ، ودنا هو منها مسرعا كما لو كان يريد أن ينتزع منها السر الذى تنوء بحمله طوال هذا الزمن.. ولكن ما كادت نظراتها تلتقى بنظراته حتى تخاذلت ، وأخــذت قواها فى الاضمحلال فلم تستطع الى الاعتراف سبيلا ! .. أنه عبث لا طائل تحته. فليس فى مقدورها ان تبوح بالسر الذى تأكل نيرانه صدرها أكـلا وتلتهم فيه الراحة والسلام ..ان الخطر يضيق عليهـا الخناق من كل جانب ، ويحاصرها شيئا فشيئا..ولكنها أيقنت أنه لم يعد لها مهرب من المقادير !!

وعاودها الفزع من افتضاح أمرها ، واكتشاف جريمتها !

- ٦ -

◆ **اختفت** المرأة أربعة أيام لم تظهر خلالها .. غير أن هذا لم يكن من بواعث الطمأنينة عند ايرين .. فكانت اذا ما دق جرس البــاب وثبت بسرعة اليه لتلتقى بنفسها خطاب التهـديد المتوقع !.. بل لقد كان يضيق صدرها من عدم وصول الخطاب المشؤوم .. لان وصــوله ، ودفع الاتاوة المطلوبة ، كان يريحها يوما أو يومين على الاقل تقضيهما فى صحبة أولادها فى هدوء..ويمكنها من الخروج من المنزل والتريض فى بعض أنحاءالمدينة..

وبينما هى فى المنزل ، فى اليوم الرابع ، اذا بجرس الباب يدق ! فهرولت الى الباب لترى من الطارق .. واذ ذاك أدهشها أن ترى أمامها امرأة بدت لها غريبة لاول وهلة ، **ولكن لم تمض برهة قصيرة حتى تراجعت ايرين الى الوراء مذعورة .. فلم تكن تلك المرأة الا .. « هى » ! وكانت تلبس ثوبا جديدا ، وقبعة جميلة .. وعاجلت ايرين بقولها : « أهذه أنت يا مدام فاجنر ؟ اننى مسرورة للغاية بلقائك ، فلدى أمر هام أريد التحدث فيه اليك .. »**

كانت ايرين متكئــة على قبضــة الباب حتى لا تهوى على الارض من هول المفاجأة .. وقبل أن تتمكن من الكلام دخلت المرأة الى المنزل ، ووضعت جانبا مظلتها الحمراء ــ التى ابتاعتها ولاشك بجزء من المال الــذى دأبت على ابتزازه منها ! ثم دخلت الى المنزل فى غير تردد كما لو كانت تسير فى ردهات بيتها .. وراحت تجيل الطرف في أثاث المنزل الفخم الجميل ،

وتتقدم دون أن تنتظر دعوة من ربة الدار ،متجهة الى حجرة الاستقبال .. وأشارت الى الغرفة فى سخرية قائلة :

ـ هنا سنجلس ، أليس كذلك ؟

وحين لاحظت علامات الذعر مرتسمة على وجه ايرين ، أردفت تقول: «اننى سأنتهى من الحديث بسرعة ، اذا كان وجودى يضايقك ! »

تبعتها ايرين دون مقاومة ، وهى تظن أنها تحلم ، فلم يكن يجول بمخيلتها قط أن تبلغ الجرأة بتلك المرأة الى حد حضورها بنفسها الى منزلها على هذا النحو السمج الكريه ! .. وألقت المرأة بنفسها على أحد المقاعد فى جلسة هادئة مستريحة ، وهنا ثارت ثائرة ايرين وانفجرت صائحة : « ماذا تريدين منى أيتها التعسة ؟ ألم يكفك ابتزاز أموالى فجئت الى بيتى لفضيحتى ؟ وكيف تجرؤين على تعقبى الى منزلى على هذا النحو ؟ اننى لن أسمح لك بالاستمرار فى تعذيبى على هذا المنوال .. اننى .. »

فقاطعتها المرأة قائلة فى هدوء وقلة مبالاة : **« لا ترفعى صوتك هكذا، ان باب الغرفة مفتوح وقد يسمعك الخدم ! لست أقول هذا لحسابى الخاص، فان الامر يستوى عندى ان يسمعنا الخدم أو لا يسمعونا .. فهذا آخر ما أهتم به وآبه له ، لان الحياة فى السجن لن تكون أردأ من الحياة التى أحياها الان !.. أما بالنسبة لك أنت يا مدام فاجنر ، فانه يتحتم عليك أن تكونى أكثر حذرا .. دعينى أغلق باب الحجرة أولا ما دمت ترغبين فى الصياح هكذا ! وبهذه المناسبة أحب أن أقول لك بأننى لا أهتم بالشتائم على الاطلاق!!»**

ماذا تستطيع ايرين أن تفعل أمام هذا الشيطان المريد ؟ لقد انهارت قوتها .. وجف حلقها .. وهدأت ثائرتها .. وانتظرت فى استسلام قدرها المحتوم! .. أما المرأة فاستأنفت تقول : « والآن يامدام فاجنر ، سأقول لك ما أريد قوله دون لف أو دوران : ان حالتى تسوء كما تعلمين ، وأذكر اننى سبق أن أخبرتك بذلك .. وأنا اليوم فى حاجة ماسة الى نقود لاسدد ايجار منزلى الذى تراكم على منذ أمد طويل ، كما اننى مدينة بمبالغ أخرى كثيرة .. واننى أرغب فى أن أرتب أمورى بعض الشىء ، لذلك جئت اليك لآخذ مبلغ أربعمائة فرنك !! »

هالت ايرين ضخامة المبلغ المطلوب .. فصاحت قائلة :

ـ هذا مستحيل ! فليس معى هذا المبلغ الآن .. لقد أعطيتك هذا الشهر ثلثمائة فرنكا ، فمن أين لى أن أحصل على المبلغ الذى تطلبين ؟

ـ انك تستطيعين تدبير الامر على كل حال . لا تتعجلى ، بل فكرى مليا .. ان امرأة فى مثل ثرائك تستطيع الحصول على أى مبلغ من المال تريده ، متى صحت نيتها ! .. أعود فأقول لك لا تتعجلى وفكرى مليا يامدام فاجنر ، وسوف تسير الامور بعد ذلك على ما يرام !

ـ ولكنى لا أملك هذا المبلغ الآن .. لقد كنت مستعدة لان أجيبك الى طلبك عن طيب خاطر لو كان المبلغ معى، ولكنى لا أملك مبلغا كبيرا كهذا.. قد أستطيع أن أعطيك مائة فرنكا مثلا !

ـ بل اننى فى حاجة الى الاربعمائة فرنك التى حدثتك عنها كاملة !

نطقت المرأة بهذه الكلمات فى غلظة كما لو كان اقتراح منحها مائة فرنك قد خدش كرامتها ! .. فصاحت ايرين يائسة :

ـ أؤكد لك مرة أخرى اننى لا أملك اربعمائة فرنك فى الوقت الحاضر ..

وهنا بدأ يساور الزوجة الخوف من احتمال وصول زوجها ـ فان وصوله كان متوقعا فى أية لحظة ـ فاستطردت تقول : « أقسم لك بأننى لا أملك هذا المبلغ الآن ! »

ـ اذن فحاولى الحصول عليه

ـ هذا مستحيل !

وهنا راحت المرأة تحملق فيها من قمة رأسها الى أخمص قدمها ، كما لو كانت تزنها وتريد أن تقدر ثمنها وكم تساوى .. ثم قالت لها : **« وهـــذا الخاتم .. مثلا ! ما رأيك فى أن ترهنيه ؟ ان هذا يسهل سير الامور فى الحال .. وأنا لا أفقه شيئا فى الجواهر ـ فلم يحدث ان كنت أملك منها فى يوم من الايام شيئا ولكننى أعتقد أن هذا «الشىء» اذا رهن أمكن الحصول على أربعمائة فرنك فى غير عناء ! »**

فقاطعتها ايرين مذعورة : « تعنين خاتمى هذا ؟ »

ياللهول ! .. انه خاتم خطوبتها ، وهو الوحيد الذى لم يفارق أصبعها لحظة واحدة .. وكان مصوغا على حجر نفيس ! .. لكن اللعينة أجابتها : « ولم لا ؟ اننى سأبعث اليك بايصال الرهن حتى تتمكنى من استرداده متى تشائين .. وستجدينه حينئذ بلا ريب ، لاننى لا أريده .. فمـــاذا تستطيع فتاة فقيرة مثلى أن تصنع بخاتم ثمين كهذا ؟

ـ لماذا تضطهديننى على هذا النحو ؟ وتمعنين فى تعذيبى هكذا ؟ اننى عاجزة عن فعل ما تريدين..لا أستطيع! عليك أن تفهمينى ياهذه. لقد رأيت كيف اننى فعلت كل ما أمكننى لارضائك .. فهلا قدرت موقفى وأشفقت على؟»

ـ ان أحدا لم تأخذه الشفقة على ، فقد تركنى الناس أكاد أموت جوعا .. فلماذا تأخذنى اليوم الشفقة على امرأة غنية مثلك ؟

وبينما ايرين تتأهب للرد اذا بالدم يجمد فى عروقها ! ألم يكن باب المنزل هو الذى فتح وأغلق فى تلك اللحظة ؟ انه زوجها بالتأكيد قد عاد من مكتبه .. ان الثوانى ثمينة الآن ، فلم تشأ ايرين أن تفقد ثانية واحدة منها .. وهكذا سارعت بانتزاع الخاتم من أصبعها وأعطته للمرأة ، التى اختطفته منها اختطافا وأخفته فى طرفة عين .. ثم قالت لايرين :

ـ لا تخافى ! اننى ذاهبة ..

وأنصتت ايرين مشدوهة الى خطوات رجل يتقدم بخطوات وئيدة الى حجرة الاستقبال .. وفتح باب الغرفة ودخل منه زوجها ، فحيته ، أما هو فقد ألقى نظرة قصيرة على المرأة الغريبة الموجودة مع زوجته دون أن يظهر عليه أقل اكتراث ..

وهنا انصرفت المرأة .. فقالت ايرين موجهة الكلام الى زوجها : « هذه امرأة جاءت تطلب منى صدقة » .. فلم يجب زوجها ، بل اتجه الى غرفة المائدة حيث كان الطعام قد أعد .. وشعرت ايرين بأن نسمات الهواء تلسعها لسعات نارية فى المكان الذى كان يشغله الخاتم من أصبعها ! وخيل اليها ان جميع الانظار تتجه الى ذلك الحيز الصغير الابيض الذى ظهر فى أصبعها بعد انتزاع الخاتم منه .. فجاهدت فى اخفاء يدها أثناء تناول الطعام ! ولكن التفزز الشديد الذى اعترى أعصابها جعلها تظن ان نظرات زوجها قد تركزت فى مكان الخاتم بالذات .. فعمدت الى تضليله بتوجيه الكلام اليه تارة ، والى الاولاد تارة أخرى ، والى المربية تارة ثالثة .. ولكن الحديث كان ينتهى فى كل مرة الى التوقف والجمود ! .. وعبثا حاولت التعسة الظهور بمظهر المرح ، بتكلف الضحك ومداعبة ولديها .. فقد كانت تشعر شعورا عميقا بأن جميع من حولها يدركون أن كل محاولاتها زيف وتضليل ! .. فلم تجد بدا آخر الامر من السكوت .. وسكت الآخرون بدورهم ، فلم يعد يسمع فى الحجرة غير رنين الاطباق الخافت ، ممتزجا بصوت أدوات المائدة الذى كان يبعث فيها الخوف والرهبة . وعلى حين غرة فاجأها زوجها بهذا السؤال: « لماذا لا تضعين خاتمك اليوم فى أصبعك !! ؟ » .. فانتفضت ايرين كما لو أصابها مس من الكهرباء فى صميم القلب .. وكأن هاتفا مخيفا قد هتف فى أعماق نفسها ينذرها بدنو العاصفة واقتراب الاجل المحتوم ! .. لكن غريزة المقاومة دفعتها الى الاستمرار فى الدفاع عن نفسها حتى الرمق الاخير .. فلتجب على سؤال زوجها ، ولتبحث عن أكذوبة جديدة، ولتكن الاكذوبة الاخيرة ! وأجابته بقولها : « لقد .. لقد بعثت به الى بائع الجواهر ليصقله .. وسأذهب لاخذه بعد غد ! »

لقد حددت بنفسها التاريخ .. وانها لتشعر الآن بشعور غريب يخترم قلبها ، شعور لم تعهده من قبل .. انه الشعور بالراحة .. لقد عرفت الآن مصيرها ، وحددت تاريخه .. فهى تعرف على الاقل ماذا ينتظرها على وجه التحقيق .. ولقد ران عليها هدوء عجيب .. وتدفق فيها النشاط من جديد ..وأن لبين جنبيها الآن من القوة ما يمكنها من أن تحيا ، ومن أن تموت .. !

انها قد تستطيع أن تبدأ حياتها من جديد لو أتيحت لها الفرصة .. ولكن كيف السبيل ؟ لقد وضحت لها حقيقة لا مراء فيها ، وهى انها لم تعد قادرة على تحمل عبء الحياة التى تحياها فى مهب هذه الاعاصير .. فهى عاجزة عن أن تحيا حياة امرأة زانية ، أو امرأة مطلقة ، فهذان لونان من الحياة الفاضحة الملوثة لا تطيقها ايرين التى نشأت بين أعطاف التدليل والنعيم ! ولم يعد فى طاقتها أيضا أن تقاوم أكثر مما قاومت .. أما الاعتراف فقد وثقت من أنها عاجزة عنه عجزا مطلقا ، بل لعلها تراه الآن من المستحيلات !

واذن .. لم يبق أمامها الا سبيل واحد للنجاة من هذه الاخطار المحدقة بها من كل جانب .. وهو سبيل اذا سارت فيه ، فانها لن تعود !

- ٧ -

◆ **عمدت** ايرين فى صبيحة اليوم التالى الى اعادة ترتيب بعض شؤونها الخاصة الصغيرة .. فبدأت بحرق خطاباتها ، وتجنبت رؤية أطفالها قدر المستطاع ، كى لا تضعف أو تجد أسبابا تدفعها الى التعلق بأهداب الحياة، والعدول عن القرار الذى عولت على اتخاذه ! .. **ثم خرجت تسعى الى لقاء المرأة المشؤومة للمرة الاخيرة ، فراحت تذرع الشوارع شارعا شارعا ، ولكن فى غير انفعال أو اضطراب فى هذه المرة .. ان شيئا فى أعماقها قد تحطم، فجعلها تتخلى عن المقاومة والكفاح .. وهكذا ظلت هائمة فى الشوارع ساعتين كاملتين، ولكنها لم تعثر للمرأة على أثر فى أى مكان .. وبدت لها ملامح المارة فى هذه المرة صماء لا أثر فيها لتعبير أو حياة .. فكأن هؤلاء الناس من عالم آخر غير العالم الذى تعيش فيه .. وبينما هى على هذه الحال ،خيل اليها انها لمحت بين الناس رجلا يشبه زوجها ، فارتعبت ، ولكن من ظنته زوجها قد ضاع فى الزحام فلم تعد تراه . اختفى قبل أن تتحقق من شخصيته ! ..**
وأنستها حالتها النفسية الوقت ، فلما عادت الى منزلها تبينت أنها قد تأخرت ساعة عن الموعد المعتاد لتناول الغداء .. ومع ان زوجها كان دقيقا فى مواعيده الا أنه وصل فى هذه المرة بعدها بعدة دقائق ، وكان يبدو عصبى المزاج قليلا !

انها تعد الساعات الآن قلقة مذعورة من طولها وتباطؤها ، فهى لم تعد فى حاجة الى وقت طويل لتودع كل هذه الاشياء التافهة التى تحيط بها .. لقد تبلدت أعصابها وترهلت .. واذا بها تعود الى الخروج والسير فى الشوارع على غير هدى دون أن تفكر فى شىء ، أو تتطلع الى شىء ! .. ما ألذ أن لا يفكر الانسان فى شىء ، وان يستشعر فى داخله ذلك الشعور الغامض باقتراب نهايته !

وبينما هى كذلك ، رفعت بصرها دون قصد الى اللافتة التى تحمل اسم الشارع الذى تسير فيه ، فما كان أشد دهشتها اذ رأت نفسها أمام منزل عشيقها ! أمصادفة هذه أم الهام ؟ أتراه يستطيع مساعدتها ؟ انه لا شك يعرف عنوان تلك المرأة .. وأدهش ايرين أن أمرا بسيطا كهذا لم يخطر على بالها من قبل .. **وأحست بدبيب الحياة يسرى فى أوصالها المشلولة ! ان أول شىء كان ينبغى أن تفكر فيه هو أن تستصحب عشيقها الى حيث تلك المرأة الفاجرة لتأمرها بأن تكف عن اضطهادها وتعذيبها وابتزازها.. وربما أمكنه اقناعها بمغادرة البلدة نهائيا لقاء مبلغ معين من المال !! .. وانها لتشعر بالاسف الآن لانها أساءت معاملة هذا العشيق فى المرة الاخيرة التى تقابلا فيها معا .. أنه لاشك سيخف الى نجدتها .. حقا انه لامر عجيب أن تلوح أمام ناظريها بارقة الامل فى النجاة وهى أقرب ما تكون الى نهايتها المحتومة !**

صعدت ايرين سلم منزل الموسيقى الشاب ، مسرعة لاهثة الانفاس .. وما كادت تصل الى الباب حتى ضغطت على الجرس . ولكن أحدا لم يجب

فراحت تنصت بانتباه .. وظنت انها تسمع وقع أقدام حذرة خلف الباب .. فضغطت على الجرس مرة ثانية . ولكن الصمت المشوب بهمهمة خافتة ، وحركة خفيفة ، عاد يخيم على داخل المنزل ! فنفذ صبرها ، وأخذت تضغط على جرس الباب بحركة عصبية ودون توقف .. ان حياتها أصبحت فى كفة القدر ، وكل شىء فى سبيل انقاذها يهون !!

واذا بصوت المفتاح يدور .. ثم يفتح الباب مواربا .. فقالت ايرين هامسة : « هذا أنا .. ؟ » ففتح الباب على مصراعيه وظهر على عتبته «ادوار» متلعثما يقول « أهـذه أنت ؟! أنت هنـا يا مدام .. لقد كنت .. أرجوك المعذرة ، فلم أكن أتوقع زيارتك هذه .. أرجوك المعذرة عن هندامى المشعث .. »



نطق ادوار بهذه العبارات المتقطعة دون أن يفسح لها الطريق لتدخل ، بل كان يكلمها وهى لم تزل على عتبـة الباب ، كأنها من طالبات الاحسان !..

فقالت له ايرين فى عصبية ظـاهرة : « اننى أريد أن أحدثك فى أمر هـام ، فعليك أن تخف الى نجدتى .. هـلا تركتنى أدخل ، وتكرمت بالاصغاء الى دقيقة واحدة فقط !! ؟ »

فأجابها مرتبكا وعيناه تتطلعان الى غرفة جانبيـة من المنزل : « اننى ألتمس منك المعذرة .. فانى .. وخصوصا فى هذه اللحظة .. لا أستطيع!!»

ـ بل يجب عليك أن تصغى الى : ان كل ما يصادفنى من أهوال انما هو بسببك .. وان الواجب ليحتم عليكمساعدتى ، ويحتم عليك أن لاتدخـر جهدا فى سبيل اعادة الخاتم الى .. فان لم تفعل فلا أقل من أن تخبرنى بعنوان تلك المرأة .. انها لا تتوقف عن ملاحقتى فى كل لحظة وكل مكان، وان كانت قد اختفت فى هذه اللحظة بالذات التى أنا فى حاجة الى لقائها فيها ! .. والآن عليك أن تساعدنى .. هل تسمعنى ؟ يجب عليك .. يجب !!

أصغى اليها الشاب ذاهلا ، بينما استمرت تقول: « آه ، نعم ! هذا صحيح .. أظنك لا تعرف ! أظنك لا تعرف ان عشيقتك السابقة قد رأتنى وأنا خارجة من عندك فى المرة الاخيرة . ومنذ ذلك الحين وهى تتعقبنى وتهددنى بالفضيحة ! .. انها تعذبنى بشتى وسائل التعذيب . وفى آخر مرة لقيتنى فيها طلبت منى خاتمى ! أقول لك يجب أن أراها اذ يتحتم على أن أسترد هذا الخاتم قبل حلول المساء .. لقد قلت لزوجى ان الخاتم سيكون معى هذا المساء .. فبربك ساعدنى !

ـ ولكن .. ولكننى !

ـ هل تريد أن تساعدنى أم لا ! ؟

ـ ولكننى لا أعرف انسانا ما بهذه الاوصاف ، ولا أعرف من تقصدين بكلامك .. فلم يحدث قط ان كانت لى علاقات بنساء يهددن بفضح الاسرار !

ـ آه ! انك لا تعرف من هى اذن ! لعلها قد اخترعت كل هذه القصة اختراعا .. ولكنها تعرف اسمك مع ذلك كما تعرف عنوان منزلى ! لا أحسبك تريد أن تقول بأنه ليست هناك امرأة تمعن فى تعذيبى وتهديدى وملاحقتى فى كل مكان .. من الممكن جدا أن أكون حالمة وأنا أحدثك هنا عن كل هذه الامور !

وضحكت ضحكة مدوية .. فحسبها برهة قد جنت ، اذ كان يشـع من عينيها بريق غريب ، وكان مسلكها يبعث على الدهشة .. فأخذ الموسيقى الشاب يجيل الطرف فيما حوله خائفا وهو يحاول جهده أن يهدىء من روعها .. قائلا لها: «**أرجوك أن تتمالكى أعصابك.. وأؤكد لك انك مخطئة .. اذ من المستحيل أن .. لا ! اننى بدورى لا أكاد أفهم شيئا مما يجرى حولى .. فانا لا أعرف نساء من هذا الطراز .. أؤكد لك صدق ما أقول ! فالعلاقتان الوحيدتان اللتان كانتا لى فى الفترة القصيرة التى قضيتها منذ وصولى الى هذه البلدة ـ وأنت تعلمين ذلك جيد العلم ـ لم تكونا مع نساء من هذا الصنف .. اننى لا اريد أن أذكر أسماء .. ولكن هذا مضحك حقيقـة ..**

وأعود فأؤكد لك انه لا بد وأن تكون هناك غلطة كبرى بشأن هذا الموضوع !

ـ اذن فأنت لا تريد معاونتى ؟

ـ اننى أريد .. اذا استطعت

ـ اذن تعال نذهب اليها معا !

ـ ولكن الى من نذهب ؟ الى من ؟

فقبضت ايرين على ذراعه بقوة ، بحيث عاوده الظن بأنها قد جنت :

ـ لنذهب اليها معا ! هل تريد ذلك أم لا ؟ !

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد !

ـ تعال اذن ! ان المسألة بالنسبة لى مسألة حياة أو موت ! !

بذل الشاب مجهودا كبيرا كى لا يضحك .. وأجاب ببرود ظاهر : **« معذرة ياسيدتى .. فان هذا ليس مستطاعا بالنسبة لى فى هذه اللحظة.. فقد بدأت فى اعطاء أحد دروس البيانو ، وليس فى امكانى أن أقطع الدرس الآن .. »**

فضحكت ايرين ضحكة عصبية وقالت : « آه ! آه ! أو تعطى درسا فى البيانو وأنت بهذا الهندام الاشعث ؟ يالك من كذاب !! »

وانطلقت ايرين كالسهم الى داخل البيت .. فحاول أن يصدها ، لكنه لم يتمكن ، فقد راحت تصيح فيه : « لعلها هنا معك .. هذه المرأة الاثيمة ولعلك تشاركها فى مؤامرتها الحقيرة وتقاسمها المبالغ التى تبتزها منى .. اننى أريد أن أراها .. فلم أعد أخشى شيئا بعد الآن . ! »

وكانت تهدر وهى تتكلم هديرا مجنونا .. فأمسك بيديها، ولكنها انفلتت من قبضته واندفعت نحو باب غرفة النوم !

كان شخصا ما خلف باب تلك الغرفة واقفا ينصت فى انتباه شديد .. فما كادت ايرين تقتحم الباب حتى تراجـــع ذلك الشخص أمامها .. **واذا بها وجها لوجه أمام امرأة .. ولكنها لم تكن تلك الشيطانة التى تتعقبها ، بل كانت امرأة أخرى ذات هندام أشعث مثل صاحبها ! .. وما كاد بصر المرأة يقع على ايرين حتى أدارت لها ظهرها .. بينما اندفع ادوار المسكين وراء ايرين وقد حسبها جنت فعلا ، ليحول دون وقوع شر مستطير بين المرأتين ! .. لكن ايرين خرجت من المخدع تتمتم فى خجل وقد صدمتها المفاجأة : « معذرة ! »**

لقد عرا المسكينة ارتباك شديد ، وخارت حتى لم تعد قادرة على الحراك، ثم عادت تتمتم أمام نظرات ادوار الزائغة بهذه العبارات المتقطعة : « معذرة ! غدا .. غدا ستفهم كل شىء .. أما اليوم فأنا نفسى لا أفهم شيئا !! »

وكانت تخاطبه كما لو كانت انسانة غريبة عنه ، لا امرأة كانت خليلته منذ أسابيع معدودة !.. انها لا تكاد تشعر بأنها كائن حى فى الوجـــود ،

فهى تتخبط فى دياجير ظلام كثيف مخيف .. ولكنها بدأت توقن من شىء واحد ، هو أن أكاذيب ضخمة تنسج خيوطها حولها ! ولكن الاعياء قد بلغ بها حدا لم تستطيع معه أن تفكر فى شىء .. فتركت منزل « ادوار » ونزلت الدرج مغمضة العينين ، كالمحكوم عليه بالاعدام وهو يسير الى المقصلة !

- ٨ -

◆ **كان** الشارع مظلما عندما خرجت ايرين من منزل «ادوار» وهى تأمل أن تجد المرأة فى انتظارها فى مكان ما .. فلعل النجاة تأتيها فى اللحظة الاخيرة !.. واستشعرت رغبة قوية فى أن تضم يديها الى صدرها وتصلى الى الله الذى نسيته منذ أمد طويل .. آه لو مد الله فى فترة هـذه «الهدنة» حتى حلول الصيف ؟ ! اذن لربما تمكنت من الخلاص نهائيا من بين براثن تلك الشيطانة ، عندما تغادر هى البلدة أثناء الصيف الى الضواحى .. ولكن ، ما أبعد الزمن بينها وبين الصيف !

سارت تترنح فى الشارع وهى تحملق فى وجوه الناس ، وخيل اليها انها رأت سحنة تشبه سحنة زوجها .. فأبطأت فى المسير لتكون على بصيرة من أمرها ، ولكن سحنة الرجل الذى ظنته زوجها كانت قد اختفت .. فعاودت السير والقلق ينتهبها ، واحساس غريب يهيىء لها أن انسانا ما يتعقبها ! .. وتطلعت الى الخلف ، لكنها لم تجد أحدا .. ولاحت لها صيدلية على مقربة منها ، فمضت اليها ، وقدمت الى الصيدلى تذكرة دواء تبغى الحصول عليه .. فتسلمها الصيدلى منها وأخذ فى تركيب الدواء المطلوب ، وايرين تتابع جميع حركاته فى يقظة وانتباه دون ان تفلت منها حركة واحدة .. بينما كانت تتصاعد الى أنفها رائحة العقاقير التى يمتلىء بها فى العادة جو الصيدليات ، تلك الرائحة التى طالما أحبتها ايرين فى صباها حتى لقد كانت ترجو أمها أن ترسلها الى الصيدلية كلما احتاجت الى دواء.. وهنا اعترتها رعشة مخيفة : تذكرت فى تلك اللحظة فقط انها قد نسيت أن تودع أمها ، وشعرت بأسى على مصير تلك المرأة التعسة عندما يصك سمعها بالخبر المشؤوم ! .. وكان الصيدلى فى تلك اللحظة يعد النقط التى كانت تتسرب خلال أنبوبة زجاجية لتستقر فى زجاجة صغيرة زرقاء ، فلما نظرت الى تلك النقط جمد الدم فى عروقها ، ويبست مفاصلها ، لانها أبصرت فيها ذلك الموت البشع الذى يتربص لها !

وهنا أحكم الصيدلى وضع غطاء الزجاجة الصغيرة وسلمها الى ايرين وهو يقول : « الثمن فرنكان » .. فردها صوت الصيدلى الى الصواب من غاشية قصيرة كانت قد ألمت بها، وأجالت بصرها الحائر فيما حولها، وفيمن حولها،

ثم دست يدها فى حقيبتها وأخرجت المبلغ المطلوب ، وظلت تنظر اليه وهو لم يزل فى يدها ، وتحصيه فى تباطؤ آلى ، وتثاقل غير متعمد !

فى تلك اللحظة أحست بقبضة حديدية تطبق على ذراعها بعنف ، فسقطت النقود من يدها على رخام مائدة الصيدلى.. واذا بيد تمتد الى الزجاجة وتختطفها فى طرفة عين !

تلفتت مذعورة لترى من عساه يكون، فجمدت كالتمثال .. اذ رأت أن الواقف بجوارها لم يكن سوى زوجها..وقد زم شفتيه، وشحب وجهه، وبلل العرق جبهته !

كادت ايرين تهوى على الارض مغشيا عليها ، ومالت الى الامام متكئة على المائدة الرخامية . لقد تحققت فى تلك اللحظة من أن السحنة التى كانت تتبعها فى الشارع محتمية بالظلام لم تكن الا سحنة زوجها فعلا ، وانه لا شك كان يقتفى أثرها ، ويتجسس عليها !

وهنا قال لها زوجها بصوت محتبس أجش :

ـ تعالى !

فأطاعته دون مقاومة .. وانصرفا معا جنبا الى جنب ، وهو ما يزال ممسكا بالزجاجة الصغيرة الزرقاء فى يده .. وبعد برهة قصيرة توقف عن السير ليجفف العرق المتساقط على جبينه..كل هذا وهى لا تجرؤ على التطلع اليه!.. حتى وصلا معا الى المنزل ، وأخذا فى الصعود .. فتركها تتقدمه ، ولكنها ما كادت تهم بالصعود حتى خارت قواها ، فاستندت الى الحاجز .. واذ ذاك أسرع هو اليها وحماها من السقوط

ودخلا البيت معا ، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ، ومضت هى الى غرفتها .. فتبعها هو اليها ! .. كل ذلك والصمت المطبق يبسط عليهما وعلى الحجرة جناحين ثقيلين .. وهنالك ، فى الغرفة ، رفع زوجها السدادة عن فم الزجاجة وأفرغ ما فيها فى أحد الاركان ، ثم ألقى بالزجاجة الفارغة فى عنف الى أقصى الحجرة ، فأحدثت صوتا دوى فى أذنيها كهزيم الرعد !

واستأنفا صمتهما المطبق !! ولكن لم يكن من الصعب على الزوجة ان تستنتج المجهود الجبار الذى يبذله زوجها ليكبح جماح مشاعره ... وأخيرا تقدم حتى أصبح على مقربة منها ، بحيث أحست بحرارة أنفاسه المكروبة ، ورأت بريق عينيه يتوهج نارا فى ظلام الحجرة .. فتوقعت حمما سيقذفها من بركان غضبه ، وأخذت ترتجف اشفاقا من حركة يده التى تنم على القسوة .. ان قلبها يكاد يقف .. وانها لتعيش بما تبقى فى أعصابها المشدودة من حياة !.. واستمر الزوج صامتا ، فهيأت ايرين نفسها لتلقى الصدمة .. ولكن ما كان أعظم دهشتها حين سمعته يقطع حبل الصمت ليوجه اليها الكلام بصوت عطوف لا أثر فيه للقسوة على الاطلاق :

– ايرين ! الى متى سنظل نعذب أنفسنا على هذا النحو الاليم ؟

كانت هذه الكلمات بمثابة الضربة القوية التى اطاحت بالصمام الضاغط على اعصاب المسكينة طوال هذه الفترة المرهوبة .. فانفجرت عواطفها المكبوتة ، وتدفقت دموعها الحبيسة ، وفك اسار انفعالاتها السجينة من اضلاعها ، فأخذت تنشج نشيج المطعون الذبيح ، ودوى عويلها ، وتعالت صيحاتها، وبدأ جسدها ينتفض كأن يدا حديدية قبضت على روحها وراحت تهزها هزا عنيفا حتى ترنحت من الالم واوشكت ان تهوى على الارض ، لولا ان سارع زوجها الى التقاطها بين ذراعيه وهو يناديها بصوت يزداد حنانا وعطفا ، محاولا ان يهدىء من ثائرتها :

– ايرين !.. ايرين !

ولكن صوته الحانى لم يستطع ان يكبح جماح هذه العاصفة العاتية التى تكاد تقتلع قلب المسكينة من جذوره ، ولا تمكنت نظرات العطف التى تشع من عينيه من تخفيف آلام هذه النفس الممزقة ، والروح المثخنة بالجراح .. فحملها زوجها بين ذراعيه الى حيث مددها على مقعد طويل ، بينما كان جسدها يرتعش ويهتز .. وبكاؤها يزداد .. ونشيجها فى ثورته الهدارة !

ان الالم والخوف اللذين ظلا حبيسين خلف قضبان تلك النفس طوال ذلك الزمن ، يكادان يجتاحانها اجتياحا ، فلا يبقيان منها الا على ما تبقيه الرياح الهوجاء من الخرائب والاطلال !

وهنا حنا عليها زوجها ، واحتضنها بين ذراعيه ، وضمها الى صدره بقوة ، واخذ يمسح دموعها ، ويجفف العرق المتصبب على جبينها كالسيل المنهمر .. وهو يناشدها :

– ايرين ! لماذا تبكين الان ؟ لقد انتهى كل شىء ! اطمئنى ، «انها» لن تعود .. لن تعود ثانية ، الى الابد !

دوت هذه العبارة الهادئة فى اذنى ايرين دوى الرعد القاصف ، فكاد ينشق لها كيانها نصفين .. أما هو فان الالم كان يقطع نياط قلبه وهو يبصر زوجته فريسة لكل هذه الاوجاع .. لقد خيل اليه انه ذبحها ذبحا .. فراح يغمرها بقبلاته ، ويهتف بها فى لهجة النادم المعتذر : «لن تعود اليك هذه المرأة ثانية الى الابد ! واقسم لك على ما اقول .. اننى لم اكن أتصور انها ستسبب لك كل هذا الفزع .. لقد أردت ان اذكرك بواجبك كزوجة ، وان أردك اليه .. حتى تتركى ذلك الشاب الى غير رجعة ، وتعودى الينا من جديد .. ولم أجد وسيلة أخرى ألجأ اليها ، عندما علمت – بمحض المصادفة – بما بينكما من علاقة .. كما انه لم يكن فى مقدورى أن افاتحك فى الامر بنفسى ! وكنت قوى الاعتقاد دائما بانك لابد عائدة الينا ، ونادمة على ما فعلت .. ومن اجل ذلك ارسلت اليك هذه المرأة حتى تنفرك من ذلك

الشاب ، وتزهدك فى التعلق به ·· انها فتاة فقيرة مسكينة ، كانت ممثلة فى أحد المسارح ثم استغنى عن خدماتها ·· وقد رفضت فى بادىء الامر أن تقوم بتمثيل هذا الدور ، وأخيرا قبلت القيام به أمام الحاحى الشديد ·· **انى ارى الان اننى قد أخطأت التقدير ، وتصرفت فى شىء غير قليل من الشطط ·· ولكنى لم اكن فى تصرفاتى ارمى الى شىء سوى ان اعيدك الى بيتك وزوجك واولادك .. ولطالما افهمتك ، وأوضحت لك فى مناسبات عدة ، اننى كنت دائما على تمام الاستعداد للصفح ، واننى لا ارغب فى شىء غير الصفح .. ولكنك لم تفهمى مقصدى ، غير اننى لم أرد ابدا ان ادفع بك الى هذه الخاتمة .. ولكم تعذبت وأنا أرى فصول هذه المأساة تمثل أمامى ، وانا ارصد خطواتك !.. لقد فعلت كل ذلك من اجل اولادنا كما تعلمين ·· فمن أجلهم أردت ان ارغمك على العودة ، وعلى التوبة ، وها قد انتهى الان كل شىء ، وأصلح كل شىء !**

*

◆ **كانت** ايرين تصغى الى زوجها وكأن صوته منبعث من اعماق الابدية .. ما هذا الذى تسمعه ! ان اعصابها قد غرقت فى خضم متلاطم الامواج من الاحاسيس التى لم تستطع ان تتبين كنهها ، او تسبر غورها ، او تدرك حقيقتها !·· ان الدموع لم تزل تسيل من مقلتيها ، ولكنها تشعر الان بانها لم تعد دموعا حرى لاذعة كاوية ، بل دموعا باردة ، ملطفة ، هادئة ·· واحست بانسان الى جوارها يغطيها بالقبلات ، فاغمى عليها ·· وعندما افاقت ادهشها ان ترى نفسها وقد نزعت عنها ثيابها ، وألبست ثياب النوم ·· فلما فتحت عينيها ، أبصرت زوجها الى جوار فراشها يرمقها بنظرات الحنو والحدب والعطف ، فراحت فى نوم هادىء عميق لا تزعجه الاشباح ، ولا يقلقه ذعر أو فزع .. هذا النوم اللذيذ الذى حرمته منذ امد طويل !

وعندما استيقظت فى صباح اليوم التالى كان ضوء النهار قد تسلل الى الغرفة .. فشعرت لاول مرة براحة الدعة والاطمئنان وبالدم يجرى فى عروقها هادئا .. لم تعد ترى امامها السحب القاتمة التى رانت على حياتها ردحا من الزمن .. وحاولت ان تتذكر ما جرى لها ، فكانت كمن يحلم بانه يسقط من حالق فى الجو ، ثم يستيقظ فجاة من كابوسه ! .. واخذت تفرك يديها لتقنع نفسها بانها ليست حالمة ، ولتستشعر وجودها المادى فى الحيـاة ..

وفجأة قفزت مذعورة .. ما هذا الذى تراه فى اصبعها ؟ انه الخاتم ! انها ترى الامور على حقيقتها المجردة من كل زيف .. وها هو كل ما سمعته من زوجها يتبلور امامها فى هذه الآونة .. فتدرك كل شىء : لقد فهمت فى طرفة عين مغزى تلك الاسئلة التى كان ينهال بها زوجها عليها ، كما فهمت

سر الدهشة التى استحوذت على الموسيقى الشاب عندما ذهبت اليه لتخبره بما وقع .. ووضحت امامها هذه الشبكة الدقيقة التى حيكت حولها من كل جانب .. فشعرت بالمرارة والخجل يغمرانها ، وبدأت تعاودها الرجفة ، ولكنها رجفة الخجل فى هذه المرة .. وندمت على ان استيقظت من تلك الغمرة العميقة ، وذلك النوم الهادىء اللذيذ !!

وهنا طرق سمعها صوت ضحكات عذبة ، فقد دخل ولداها الى حجرتها واخذا يلعبان ويصخبان كعادتهما ، وكان صوتهما اشبه بصوت العصافير التى تغرد منبئة بمولد يوم جديد .. واذ اصغت الى صوت ابنها ادهشها أن تدرك لاول مرة الشبه الكبير بين صوته وصوت ابيه .. فارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة ، واغمضت عينيها ، وظلت بلا حراك ، لتعب من منهل هذه السعادة عبا ، وتستغرق فى احضانها استغراقا ..

انها لم تزل تتألم .. ولكنه ذلك الالم اللذيذ المملوء بالآمال .. ذلك الالم الذى تحسه فى جرحك قبل ان يندمل ، وهو يتقدم حثيثا الى البرؤ والشـــفاء !

النقد الفني

بقلم : كمال الملاخ

◆ **انتهى** مهرجان «كان» السينمائى ..

يستعد اصحاب الافلام العالمية لعرضها فى مهرجان «فينتسيا» بعد شهرين ..

غرفة السينما فى مصر تعقد اجتماعات متوالية ، والنتيجة المعروفة تحيات وسلامات واشواق ، فان الغرفة لم تصل الى نتيجة بعد ..

ما زالت اقامة مهرجان القاهرة السينمائى والدعوة اليه فكرة فى حيز الخيال ، لم تقفز بعد الى مرحلة الواقع .

وهكذا تتوالى الاخبار ، ويتهامس اهل الفن السينمائى ، بعد ان اصبح موسم الشتاء على عتبة الرحيل ، واقبل الصيف الذى تعاد فيه اغلب الافلام الناجحة ، لا تحت سقف دور السينما وانما تحت قبة السماء .

وعلى ذكر النقد السينمائى ، فقد هاجمنا بشدة فى العدد الماضى فيلم «صراع فى الوادى» ، وانفرد «كتابى» بهذا النقد وسط الدعاية الكبرى التى قامت حول الفيلم .. وكان اشتراكه فى مهرجان «كان» جزءا من هذه الدعاية .. وقد صح ما توقعناه ، فلم يلق الفيلم التقدير الكافى ، ولم يفز بشىء من جوائز المهرجان

ولسنا نفرح لان فيلما مصريا فشل فى مهرجان دولى ، بل اننا على العكس نشعر بالاسف .. ولكنا نسجل هنا مرة اخرى ان ما نقدمه من نقد يتجرد دائما عن الهوى ، ويقترب قدر المستطاع من العدالة الفنية المطلقة .. وقد توقعنا ان الفيلم لن يقوى على القيام على قدميه فى «كان» مهما بذلت له الدعاية فى مصر !.. وهذا لا يمنع بالطبع من ان نشهد بان مستوى «صراع فى الوادى» يعلو على المتوسط بالنسبة للافلام المصرية التى شاهدناها فى الشتاء الهارب ..

آثار فى الرمال

وقد توالت عدة افلام مصرية فى هذا الشهر ، مازال يعرض منها حتى الان فيلم «آثار فى الرمال» .

وقد كتب قصته وحواره الاديب يوسف السباعى ، وقام بالتمثيل : عماد حمدى وفاتن حمامه وحمدى غيث والطوخى ، وتولى الاخراج : مدكور .

وتدور فكرة الفيلم حول الصراع النفسى الدفين ، عندما تنتاب بطل الفيلم (عماد حمدى) احدى العقد النفسية منذ الصغر .. فهى الى حد ما تشبه فكرة الفيلم الامريكى «المأخوذ» الذى قام بتمثيل الدور الاول فيه جريجورى بيك امام انجريد برجمان ، والذى اصاب نجاحا منقطع النظير من ناحية الفكرة والتمثيل والاخراج .

وكان من الممكن لفيلمنا المصرى (آثار فى الرمال) ان يصل الى



عماد حمدى

مستوى معقول من ناحية التوفيق والنجاح ، لو اعتنى باخراجه وتصويره . ولكن ضعف الاخراج والتصوير مزق القصة وجعل حوادث الفيلم تبدو شاحبة «مهزوزة» ، معروفة للمشاهد قبل ان يسرد (حبكتها) كما ان لقطات التصوير جاءت ضعيفة . ولا ندرى لماذا لم يبذل المصور اى جهد يذكر اللهم الا اشتراكه مع المخرج فى تصوير (كادرين) فقط لا غير من ناحية المنظور او تركيز الضوء والظلال !!

يبدأ الفيلم فنرى المؤلف الموسيقى الذاهل (عماد حمدى) فى صحبة دكتور (حمدى غيث) فى القطار المتجه الى القاهرة ، حيث اقتاد الطبيب مريضه الموسيقى الى عيادة الدكتور النفسانى (الطوخى) .. واذا بحديث طويل بين الدكتورين ، وبينهما وبين عماد حمدى ، **فى لقطات اقرب الى المسرح منها الى السينما ، اذ تركزت «الكاميرا» على الحوار لا على الحركة والتعبير ..**

ويستدعى الطبيبان خطيبة الموسيقى (فاتن حمامة) الى القاهرة كى يستعينا بها فى علاجه وكشف العقدة النفسية التى ادت الى ذهوله ... ولكنه لا يعرفها .. وتصطنع (فاتن) موقفا غراميا مع الدكتور لاثارة خطيبها وتحريك وعيه ، ولكنه لا يتأثر ، بل ينعم النظر فى مروحة قائمة ، ويستغرق فى الشرود .. ويلاحظ الدكتور النفسى

(الطوخى) تأثير المروحة على المريض فيوجه اليها اهتمامه ، ويعمد الى تنويمه تنويما مغناطيسيا لاستدراجه الى الكشف عن سر خوفه من المروحة !

ويشرع (عماد) فى الحديث .. ويترجم المخرج حديثه صورا ومناظر .. فاذا به ينتقل الى ايام صباه، حين كان فى حوالى السابعة من عمره ، يلهو مع اخته فى حديقة عامة اصطحبهما اليها والداهما .. ويصور الفيلم طبيعة العناد فى الصغيرين .. ثم يبينهما وقد اتفقا على استئجار حمار ركباه معا .. وما لبثا ان صادفا مروحة عالية - من المراوح الهوائية التى تقام على الابار لرفع المياه .. فيقنع الصبى (عماد) اخته بان تصعد سلمها ، لينفرد بالحمار .. وتصعد الصغيرة .. وتوغل فى الصعود .. وفجأة ، تفقد توازنها فتهوى الى الارض صريعة !.. ومن ذلك اليوم أصيب «عماد» بعقدة نفسية ، اذ خيل اليه انه السبب الاول فى موت اخته .. وظلت المروحة رمز الجريمة لديه ..

ثم ينتقل المخرج الى مرحلة اخرى من حياة الموسيقى .. اذ تحاب وجارته (فاتن) رغم معارضة جدها اكثر من مرة - **وبقدر ما كان الجد معارضا ،بقدر ما غدا متسامحا فى تسليمه وترحيبه بالزواج !! -** وتتوالى لقاءات العاشقين فى حدائق الاسكندرية وشواطئها ، فى الشتاء لا فى الصيف .. **ومع ذلك فقد نسى المخرج كل شىء عن المطر والسحب !.. وفجأة، ودون مقدمات ولامبررات ،** يصارح «عماد» حبيبته «فاتن» برغبته فى الانفصال لانه **يؤمن بان لا خير يرجى من علاقتهما!**

ولكن المروحة لم تكن العقدة الوحيدة فى نفس «عماد» .. بل لقد لوحظ انه دائما يحمل حقيبة صغيرة بها كتاب و«ايشارب» - كوفية - واذ لا يعرف احد ما يبرر حرصه على حملها ، يسعى الطبيبان «غيث» و «الطوخى» الى كشف سرها ، حتى انهما يهجران عيادتيهما ويصحبانه الى الشاطىء عسى ان يستخلصا السر ..

ولسنا ندرى كيف غفل المخرج أن يبين لنا الدوافع الشديدة التى تزين لطبيبين ان يهجرا عيادتيهما فى سبيل مريض واحد !.. ولا علاقة «غيث» بعماد .. العلاقة التى تبرر تفانيه فى الاخلاص له ، مع ان الحوادث تبينه جاهلا بكل ما جرى فى حياة عماد !!

نهايته .. يعلم الطبيبان من تابع الموسيقى ان هذا كثيرا ما كان يتردد على ناحية معينة من شاطىء البحر فى الصباح ، فيذهبان الى تلك الناحية ، واذا بهما يريان احدى مراوح الهواء .. ويعلمان من حارسها ان شخصا - تنطبق اوصافه على اوصاف «عماد» - يفد

كثيرا لمشاهدة المروحة ٠٠

وفى جلسة علاجية اخرى مع المريض ، يروى سر العقدة الثانية ٠٠ وتترجم «الكاميرا» الحديث

فقد حدث ان كان «عماد» فى زيارته الصباحية لموقع مروحة الهواء ، ذات يوم ، واذا به يلتقى بفتاة (زهرة العلى) تجلس وحيدة على الساحل الخالى ، وقد استغرقت فى قراءة كتاب ٠٠ ويثير منظرها فضوله ، فيقترب منها ، ولشد ما يؤخذ اذ يرى فيها صورة اخته الميتة ٠٠ ويحبها ٠٠ وتسمح له بان يقابلها فى تلك البقعة من الساحل لاكثر من مرة ، على شرط ان يغادرها فى وقت معين ٠٠ وفى احدى المرات حدثها عن قصة قرأها ٠٠ قصة فتاة مصابة بشلل الاطفال، هامت حبا بشاب لم يلبث ان تبين انها لا تقوى على السير ٠٠ وترى حبها يحتضر فتلحق به وتنتحر٠٠

ويعجب «عماد» اذ يرى الفتاة تضطرب وتنتابها الانفعالات اثر روايته ٠٠ ويلمس انها تخفى عنه امرا ، فيتظاهر بالانصراف، ويتسلل الى مروحة الهواء فيكمن فى برجها ويرقب من ثغرتها ما تفعله الفتاة بعد أن يفارقها ٠٠

(وينسى المخرج تقدير مدى بصر الانسان ، فاذا المروحة تبدو بعيدة كل البعد عن الشاطى) ٠٠

ويتبين «عماد» ان الفتاة كسيحة ٠٠ وان هناك من يأتى فيحملها الى سيارتها !

ويعود فى اليوم التالى الى الشاطىء فلا يجد الفتاة ٠٠ وانما يفاجأ بـ «آثار فى الرمال» بين مقعدها وحافة المياه ٠٠ ثم يعثر على كتابها وكوفيتها ، فيدرك انها انتحرت ٠٠ **ويأبى المخرج ان يعتمد على ذكاء المتفرج ، فيعيد عليه قصة الانتحار كما تصورها البطل !**

ومرة اخرى ، يعتقد «عماد» انه سبب موت هذه الفتاة ، بما رواه لها عن بطلة القصة التى قرأها ٠٠ فيحتفظ بآثارها !

*

واحب ان اقدر للمخرج والمصور لقطتين رائعتين ٠٠ الاولى لظلال المروحة وقد ترامت على جثة أخت «عماد» ٠٠ والثانية لاثار الرمال بين المقعد والبحر ٠٠ وكانت الموسيقى المصاحبة لكل منهما لاتقل روعة !

ولكن ٠٠ كان فى الوسع استغلال المروحة القائمة بقرب الشاطىء فى مزيد من المناظر ٠٠ وكان فى الامكان الافادة من مناظر كورنيش الاسكندرية

ثم ، كيف عنى المخرج – او لعله المؤلف – باظهار اهتمام جد « فاتن » بطريقة زواجها اهتماما بالغا ٠٠ ثم أغفل هذا الجد أو نسيه ٠٠ فاذا الجد لا يبدو بعد خطوبة الفتاة ولا يشترك معها فى الاهتمام بخطيبها المريض ، رغم انه ولى أمرها ومقيم معها ٠٠

والخلاصة ٠٠ ان **التمثيل** : كان

متوسطا فى المجموع !.. **والموسيقى :** جيدة ولكنها لم تستغل كما ينبغى.. أما **التصوير** ، فأنه ضعيف . . وكان شديد البطء فى كثير من الاحيان الى درجة تبعث الملل !.. **والحوار :** أكثر مما ينبغى .. **والصوت :** أقل من المتوسط

صائدات المليونير

◆ وتعرض القاهرة فيلمها الثانى للسينما سكوب بعد فيلم «الرداء» .. و« صائدات المليونير » — أو « كيف تتزوجين مليونيرا » كما هى ترجمة العنوان الاصلى — على نقيض فيلم السينما سكوب الاول « الرداء » تماما .. فذلك دينى يصور طرفا من حياة الشرق والماضى البعيد ، فى حين أن هذا



مارلين مونرو

يصور آخر ما وصلت اليه المرأة الامريكية من فنون الاغراء سعيا وراء الفوز بزوج .. وزوج مليونير !

والفيلم من تمثيل : « مارلين مونرو » و « بتى جرابل » و « لورين باكال » و « رودى كالهورن» و «وليم باول» .. وهو يصور قصة ثلاث فتيات أمريكيات دفع بهن الطموح الى أن يسعين للزواج بأى رجل .. على شرط أن يكون مليونيرا .. فلا يهم بعد ذلك ان كان عجوزا ، او قصيرا ، أو عاجزا ، طالما أن له رصيدا من الدولارات مكونا من سبعة أرقام او اكثر !!.. وعلى هذا الاساس دارت حوادث القصة ، فى روح مرحة يتخللها فى كثير من اللقطات استعراض لملابس النساء فى الصيف والشتاء والربيع .. واستعراض لمناظر نيويورك وأحراش أمريكا.. وكل هذا استغلال لصور السينماسكوب الملون من غير شك.

ويبدأ الفيلم بخطأ من المخرج، اذ ظلت الكاميرا لاتتحرك لمدة عشر دقائق على احدى فرق «الفيلهارمونيك» الموسيقية دون أن تكون لذلك صلة بالفيلم ! !..

وقصة الفيلم لابأس بها لتقضية الفراغ ، فهى للتسلية ولا تحتمل اكثر من هذا . وأعتقد أن سبب نجاحها المتوسط هو اشتراك مارلين مونرو فى الفيلم والدعاية الكبرى من حولها ! ! .. والفيلم « أمريكى » فى التفكير والاخراج والتأليف !


والآن احتفظي لشفتيك بجمالها وبهائها
باستعمال احمر الشفاه
"نضرة كالزهرة"
ماكس فاكتور هوليوود السحري الذي يبقى طويلا
* يبقى اللون ثابتا حتى تزيليه
* لا يجف أبدا وهو على شفتيك
* أسهل في وضعه واكمل في تغطيته
* ألوانه ثابتة جذابة وتركيبه لا يضر نسيج الشفاه الرقيق.
* هو الأنعم لأنه يحتوي من اللانولين اكثر من أي أحمر شفاه آخر...
٦٤ ٤٢ ٢٦
شاهدي المجموعة الكاملة لأحمر الشفاه ماكس فاكتور السحري الجديد فهي قطعا أجمل ما تشتهي شفتاك وأقدر ما يكسبها الإغراء..
احمر الشفاه
ماكس فاكتور هوليوود
Max Factor Hollywood
يباع في جميع المحلات الكبرى ومخازن الأدوية والصيدليات ومحلات العطور
الموزعون: "ناديكو" الشركة الأهلية للتوكيل والتوزيع
ڤيتا وشركاه ش. ت. ١٠ القاهرة س. ت ٣٣١٣

اعـــلان

تقبل العطاءات بمصلحة السياحة بالقاهرة لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ٦ مايو سنة ١٩٥٤ عن مناقصة اقامة استراحات ومكاتب وجراجات بالسده والكيب ـ بمصيف رأس البر ويمكن الحصول على الشروط من مكتب مصيف رأس البر بدمياط نظير مبلغ ٢٠٠ مليما بخلاف أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة فئة الخمسين مليما ـ ٧٥٣٠

وزارة الاشغال العمومية

مصلحة الميكانيكا والكهرباء

مطلوب تقديم عطاء لغاية ظهر يوم ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ عن توريد عدد ٢٩ ثلاجة تعمل بالكيروسين لوزارة الصحة . ويمكن الحصول على دفتر الشروط مقابل ٣٥٠ مليما للنسخة الواحدة بخلاف ٦٠ مليما أجر بريد ويقدم تأمين ابتدائى بواقع ٢ فى المائة مع العطاء والا فلا يلتفت اليه. ٧٤٦٣

مجلس بلدى طنطا

تقبل العطاءات حتى ظهر يوم الثلاثاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ عن توريد زلط فولى للرصف

وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة دمغة فئة ٥٠ مليم نظير مبلغ ٣٠٠ مليم للنسخة بخلاف أجرة البريد وكل عطاء لا يرفق به تأمين ابتدائى قدره ٢ فى المائة من قيمته لا يلتفت اليه . ٧٥٢٠

مجلس بلدى طنطا

تقبل العطاءات حتى ظهر يوم الثلاثاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٤ عن عملية انشاء كشكين للشبكة الكهربائية وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس على ورقة دمغة فئة ٥٠ مليم نظير مبلغ ١ واحد جنيه للنسخة بخلاف أجرة البريد وكل عطاء لا يرفق به تامين ابتدائى قدره ٢ فى المائة من قيمته لا يلتفت اليه ـ ٧٥٣٩

اعلان مناقصة

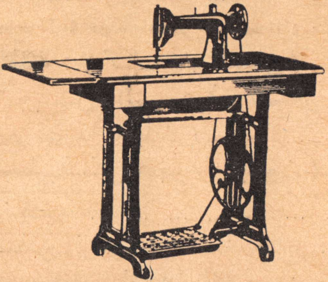
تقبل العطاءات بمكتب تفتيش مشروعات رى مصر العليا باسنا لغاية الساعة الثانية عشر من ظهر يوم الاربعاء الموافق ١٢ مايو سنة ١٩٥٤ عن توريد أدوات لازمة لتأثيث المنازل العائمة ويشمل :

١ ـ أطقم للمطبخ وأطقم للسفرة وخلافه .

٢ ـ ملايات وبطاطين وفوط وسجاد وخلافه

ويمكن الحصول على المواصفات مقابل دفع مبلغ ١٥٠ مليما بخلاف مائة مليم أجرة البريد وتقدم الطلبات على عرضحال تمغة فئة خمسين مليما . مع ملاحظة أن التفتيش سوف لا يلتفت بتاتا للعطاءات الغير مصحوبة بتأمينات ابتدائية كاملة . ٧٥٠٠

Husqvarna



ماكينات خياطة للاستعمال
المنزلى ولأعمال البرودريه

ماركة

هوسكفارنا

الممتازة

المصنوعة من الصلب السويدى القوى

اولاد نرسيس تشاكجيان وشركاهم

١٧ ميدان العتبة (معرض هوسكفارنا)
تليفون ٤٥٣٦٢ مصر - س ت ٣٧١٦٨

محتويات الكتاب

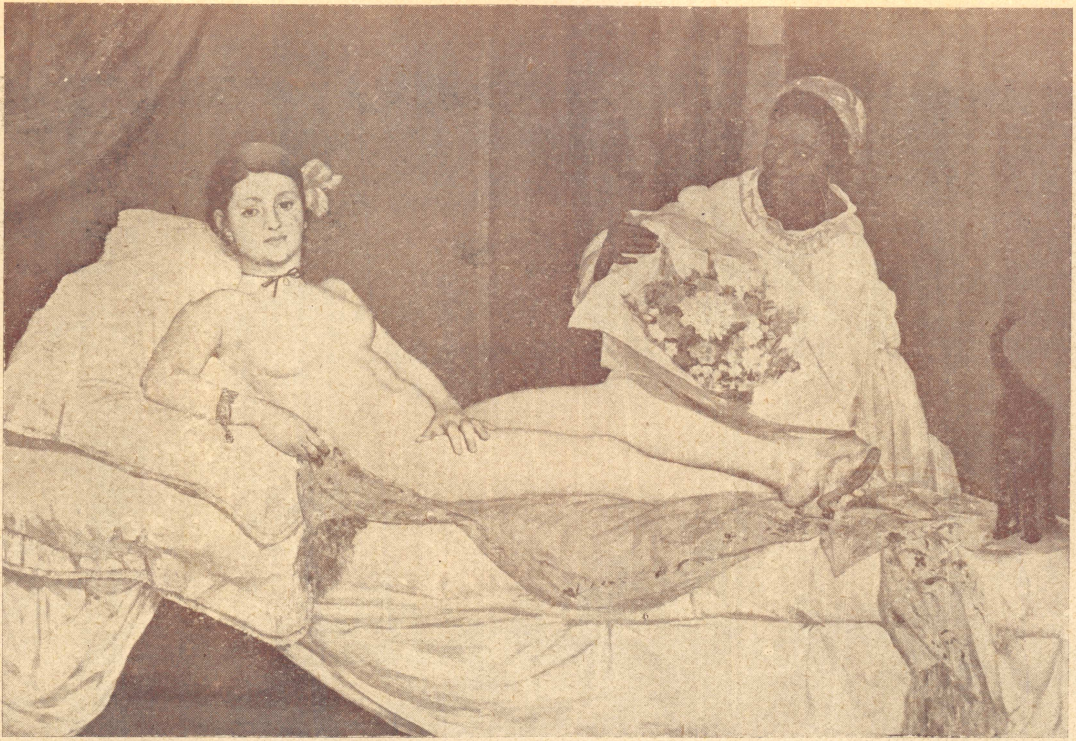
نتيجة استفتاء « كتابى »

◆ بعد فرز ردود القراء الاعزاء الذين اشتركوا فى الاستفتاء الخاص بوثبة كتابى فى مستهل عامه الثالث ، منحت الجوائز الخمس (وهى اشتراك لمدة سنة فى كتابى ومطبوعاته) للسادة : محمد السيد حسنين ، ١٣ شارع بهجت باشا ، باكوس ـ رمل الاسكندرية ٠٠ ولسن ميخائيل جورجى ، مدرس بمدرسة الاقباط الثانوية بالسويس ٠٠ ابراهيم بنى ونيس على خانقيوه ، عن (متوسطة الرسمية للبنين خانقيوه ـ العراق) .. عبد الملك شمس ابراهيم ، مدرس (بريد سبك الضحاك) ٠٠ محمد تيمور شحاته ، صندوق بريد ٤١ ـ طنطا .. وقد قيد حضراتهم فى سجل المشتركين ابتداء من هـذا العدد .

أبواب دائرة المعارف

◆ حال طول بعض مواد هذا العـدد دون نشر الكثير من الابواب فى دائرة معارف الثقافة العالمية ، وموعدنا بها العدد القادم باذن الله .

مطبعة شركة الاعلانات الشرقيـة



« أوليمبيا »

لوحة بمتحف اللوفر للرسام الفرنسى
ادوار مانيـــه (١٨٣٢ - ١٨٨٣)



غروب

تصوير الاستاذ يوسف عبد الشهيد المحامى

كتابى

الحب .. وفوارق الطبقات !

« ولم تنم ليلتها .. فقد فطنت لأول مرة إلى أن خطيبها الثرى لم يعرب لها يومًا عن الحب مثلما فعل البستانى ، الذى أيقظ فى نفسها شيئًا لم تدر كنهه ولا كان لها عهد به من قبل !

وراحت تتمثله والدمع فى عينيه .. وترددت فى أذنيها أصداء لهجته الجريئة ، الصادقة ، الحارة .. ومضت تتذكر وجهه وملامحه : كان وسيمًا ، فارع الطول ، متين البنيان .. وقارنته بخطيبها ، وكلما أمعنت فى تذكر أوصافه ، ازدادت ميلا اليه !.. وظلت هكذا حتى الصباح .. ثم هبطت إلى الحديقة ، واذا البستانى أمامها وجهًا لوجه .. وكانت أساريره تنطق بأنه هو الآخر قضى الليل مسهدا .. وسمعته يقول فى صراحة وبساطة :

ـ اننى لم أذق للنوم طعمًا ، لا لأننى سأفقد عملى ، وانما لأن الرجل إذا أحب امرأة حبًا صادقا فانه لا يقوى ما عاش على حب سواها .. ولقد ظللت سنوات أحبك فى صمت ، فكان تصرفك بالأمس صفعة قاسية .. افتظنين اننى اذا تركت عملى سأقوى على أن أسلوك ؟.. اننى أحبك .. أتعرفين معنى ذلك ؟

ووقفت مشدوهة ، فقد أشعرتها لهجته بأنه أسمى منها وأرفع .. وبدلًا من أن تستشيط غضبًا ، أحست بأن كلماته نفذت إلى اعماق فؤادها !

من " أبواب الحب المغلقة " أحد موضوعات هذا العدد